الطريق

تأليف : مغفل حلبسس

ترجمة : سامي ياسين رشيد

مراجعة : سلمان العطار

المشروع القومي للترجمة

170

اهداءات ٢٠٠٢

مجلس الاعلى للثقافة

القاهرة

المشروع القومى للترجمة

الطريق

تأليف

ميغيل دليبيس

ترجمة

بسام ياسين رشيد

مراجعة

سليمان العطار

المجلس الأعلى للثقافة
٢٠٠٠

المقدمة

« أبنائي لكل منا في الواقع طريق محدّد في الحياة علينا أن نواصله دائماً وألا نحيد عنه ... قد يفقد البعض نصيبهم الذي خصّصه الله لهم من السعادة . قد يفقدونه وهم يبحثون ، لطمع في نفوسهم ، عن طريق أسهل . والسعادة ، في الواقع ، لا تكمن في الأعلى ولا في أكبر ولا في الأرفع ولا في الأشهر ، بل في اتفاق خطواتنا مع الطريق الذي حدّده الرب لنا على الطريق ، وإن كان ذلك الطريق سهلاً متواضعاً » .

هذا هو مفهوم « الطريق » الذي جعله الروائي الإسباني ميغيل دليبيس (١٩٢٠) عنواناً لروايته التي ظهرت عام ١٩٥٠ . أما المتكلم هنا فراهب ورع تقي ، وأما المعنيان بالأمر من المخاطبين فهما صبي في الحادية عشرة ووالده الجبّان الذي قرر من سنين خلت أن يبعث بولده إلى المدينة ليواصل دراسته الثانونية فيها ويصبح من ثمّ ذا شأن ومكانة في الحياة : « ولا سيكون للولد شأن آخر .. كوني على ثقة من ذلك . إنه لن يقضي حياته مربوطاً إلى هذه الدكّة مثل العبد ... أو قولي مثلي » . ولكن الابن كان يرى في قرار أبيه خروجاً عن الطريق الذي حدده له الرب : «وفكر دانييل هو يتذكر ذلك أنه انحرف عن طريقه مدفوعاً بطموح أبيه ، وكظم رعشة في داخله » . وهكذا فإن المؤلف يطرح ومنذ البداية فكرة التناقض هذه بين ما يريده الأب لابنه وما يحلم به الابن لنفسه ؛ قرارات لا تقبل النقض بازاء أحلام لا تقبل التحقيق :

– « القضية محسومة فلا تفتحي باب الموضوع ثانية »

— « لو كان بيده لاكتفى بزوج من الأبقار وديكان جبن صغير ، ولا كتفى بالبستان (الجنينة) الصغيرة الكائنة خلف بيتهم » وفى هذا تعريج على إحدى سمات أدب ميغيل دليبيس الواقعى الاجتماعى والمتمثلة بانتقاده لظواهر المجتمع السلبية .

لقد وصفت رواية « الطريق » بأنها من أدب الطفولة لأن مؤلفها اعتمد مجموعة من الصبيان محوراً لأحداث روايته وواجهة لعرض أفكارهم وعوالمهم المرحة الساذجة :

— « ما أجملها دانييل ، أليس كذلك ؟ إنها بقرة حلوب — قالت له أمه .

— لا أماه ... إنها ليست حلوباً ... انظرى ... إنها لا تحمل جراراً

وضحكت الأم من سذاجة ولدها وضمته إلى صدرها قائلة :

— البقرة الحلوب لا تحمل جراراً يا ولدى » .

« ولمع فى عينى (الأقرع) بريق ذكاء غريب :

— فليس اللقلق إذا من يأتى بالأطفال ! لقد كان يبدو لى ذلك غريباً ، حتى انني كنت أقول لنفسى : لماذا يزور اللقلق أمى عشر مرات وهى لا ترغب فى كثرة الأولاد بينما لا يزور جارتنا ولا مرة وهى التى تتمنى أن يكون لها ولد ؟ ! »

ولكن يحدث أن يذهب المؤلف بعيداً فى تقدير درجة نضوج أبطال روايته من الفتية الصغار فيضع على ألسنتهم ما لا يصدر عادة إلا عن إنسان كبير فى عمره ناضج فى فكره :

– « ولطالما وقف دانييل يتأمل دروب بلدته المتعرجة وساحتها المليئة بالبعر والحصى وأبنيتها الكئيبة التي صُمِّمت بحس خدمي محض . ولكنه ما كان يستاء من ذلك . فالشوارع والساحات والأبنية لا تصنع البلدة ولا ترسم معالمها بل هو رجالها وتاريخها » .

كان الصبي دانييل يعشق بلدته ويعشق الوادي الذي يضمها ويعشق كل ما فيها وما فيه : « إنه غير معني بالتقدم ، والتقدم عنده لا يساوي قرشاً . تهمه ، في المقابل ، القاطرات التي يتأملها ضئيلة من بعيد ، والبيوت البيض والحقول ومزارع الذرة المجزأة و(بركة الإنكليزي) وتيارات النهر الصاخبة المجنونة وملعب الصولجان ودقات أجراس النواقيس وقط (الفلفة) ورائحة قوالب الجبن الملوثة الحامضة وقطع الروث تصاغ بعناية ووقار وفن . وتهمّهُ الزوايا الكئيبة الموحشة التي يرقد فيها وإلى الأبد صديقه جيرمان (الأقرع) ونقيق الضفادع الرتيب من تحت الأحجار في الليالي الرطبة ، ونمش وجه أوكا–أوكا وحركات أمه البطيئة وهي تقوم بأعمال البيت ، وخضوع أسماك النهر الصغيرة واستسلامها واثقة مطمئنة ، وغيرها وغيرها من الأشياء » .

ولذلك نراه ، وقد اقترب موعد رحيله عن البلدة وبنت ساعة الفراق ، يستعرض كلَّ ما أسعفته به ذاكرته الغضّة الفتية من صور ومواقف عاشها مع صديقيه الحميمين روكي (البعرور) وجيرمان (الأقرع) وكل ما جرى له ولهما من أحداث ومفارقات مع بقية شخوص الرواية . إن « الطريق» رواية استرجاعية من الطراز الأول .

ولما كان ميغيل دليبيس صاحب نزعة واقعية اجتماعية ومعنياً بوصف عالم الناس البسطاء ولا سيما في القرى وفي مدن الأطراف والمحافظات فقد عمد إلى حشد نماذج كثيرة ومتنوعة من الشخوص ذوي السلوك المتناقض والعادات البلدية والأفكار الغريبة سلباً وإيجاباً ، ثم راح يروي الحوادث تباعاً وينثر الآراء والأفكار على ألسنة ذلك الحشد جاعلاً من الرواية مجموعة من القصص والحكايات المنفصلة في أحداثها ، المتصلة في شخوصها وفي مكان وقوعها وزمانه .

أما أبطال الرواية فهم ثلاثة أولاد : دانييل (البوم) الذي يمتاز بذكائه ودقة ملاحظاته ورومانسيته وروكي (البعرور) الذي يمتاز بقوته ووله بالمجازفة واستعراض مهاراته البدنية وجيرمان (الأقرع) الخبير بالطيور والعارف بأنواعها وطباعها . وغير هؤلاء الفتية ، العديد من الرجال والنساء :

حدّاد قوي الجسم مفتول العضلات لا يحلم لولده بدراسة ولا بتقدم وراهب ورع تقي يراه الناس قديساً عظيماً ولكنهم يلجأون اليه في ضرّائهم دون سرّائهم .

وملحد غير مؤمن يعلن على رؤوس الأشهاد أن لا جدوى من الورع والتقى وأنه لن يطأ عتبة الكنيسة مستقبلاً .

وإسكافي مغرم بإنجاب الأولاد والمزاوجة بين الطيور والتطلع ملياً إلى سيقان النسوة المارات من أمام ورشته .

و(أقطع) يغرم بمسلولة فيتزوجها بعد أن يصد عن ثانية تقدم على الانتحار غيرة عليه واحتجاجاً على زواجه .

ومعلم لا يكف عن معاقبة طلابه ولا يفتأ يتحدث عن عصامية لم تورثه إلا الفقر والجوع . وشقيقتان عانستان ترفع كبراهن علم الفضيلة وتحشر أنفها في كل صغيرة وكبيرة وتضرب الثانية بالفضيلة عرض الحائط وتفرّ مع من سلبها لبّها وعفافها ثم نقودها قبل أن يتركها ذليلة خائبة .

ومهاجر يغادر بلدته الصغيرة إلى المكسيك وهو نصف مغفل ليعود إليها بعد عشرين عاماً وقد صار من ذوي الجاه والثروة .

وغير هؤلاء وأولئك الكثير .

بل إن المؤلف يشرك الطبيعة نفسها في بطولة روايته ويجعل منها عنصراً حاضراً على الدوام . فمن جبل لا يكف صبيّنا عن التطلع إليه ، ومن بركة يتردد عليها للسباحة فيها مع صاحبيه أيام الصيف ، ومن نهر صاخب بمائه جارف بتياراته ، ومن وادٍ هو كل شيء في حياته .

أما خبرة ميغيل دليبيس الذاتية في الطيور فيودعها في شخص جيرمان (الأقرع) . وأما تجربته الشخصية في الصيد فينقلها إلينا من خلال ولع الجبّان بهذه الممارسة .

لقد حظيت « الطريق » وهي الثالثة في أعمال ميغيل دليبيس الروائية ، بقبول النقاد وحسن ثنائهم ، وعدوها بداية مرحلة في مسيرته التي بدأها قبل ذلك بروايتين هما : «ظلال شجرة السرو وارفة (١٩٤٦) » و« مازال الوقت نهاراً (١٩٤٧) » . وتتمثل جدّتها في الجو المرح البريء الذي يشيعه المؤلف في أحداثها وأبطالها وصولاً في بعض الأحيان إلى

To: www.al-mostafa.com

رسم صور كاريكاتورية لبعضهم : « كان دون مويسيس رجلاً طويلاً هزيل الجسم متوتر الأعصاب . كان هيكلاً من العظام المكسوة بالجلد ، وقد اعتاد فتل فمه فكأنه يحاول عض شحمة اذنه . وكانت حالة الإنبساط تزيد من استدارة فمه ليصل فى انفراجه حتى سالفتيه » ؛ وفى اعتماده أسلوباً سلساً لا يعكره إغراق فى الوصف ولا مبالغة فى استخدام الصفات ، وفى خروجه من مبدأ العقدة الواحدة فى الرواية واعتماده أسلوب القصص المختلفة بأحداثها المتنوعة بعقدها .

وهكذا عُدت رواية « الطريق » البداية الحقيقية لأدب ميغيل دليبيس الروائى ، وصُنّفت ضمن قائمة أفضل الروايات الإسبانية المعاصرة وترجمت إلى الفرنسية والألمانية والإنجليزية والبرتغالية وصدرت فى الولايات المتحدة الأمريكية طبعة خصصت لطلبة المدارس كما جرت محاولة لنقل الرواية إلى السينما . أما ميغيل دليبيس فقد تكرس بعد صدور هذه الرواية واحداً من أبرز روائيى إسبانيا المعاصرين وواحداً من أفضل ثلاثة مثلوا الأدب الروائى الإسبانى فى فترة ما بعد الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦ – ١٩٣٩) جنباً إلى جنب مع لافوريت وكاميلو خوسيه ثيلا .

ويعد فهذه رواية « الطريق » تقدمها إلى القارىء العربى لتكون اسهاماً بسيطاً يقرّبه من عالم واسع وغريب يعطيه أدب عريض وعريق هو جزء من أدب الإنسانية وحضارتها وثقافتها . فعسى أن تنال الرواية والترجمة رضاه .

المترجم

الطريق

كان يمكن للأمور أن تجرى على نحو مختلف ، ولكنها جرت على هذا النحو . لم يكن دانييل (البوم) ، من أعماق سنيه الاحدى عشرة ، راضياً عن سير الأمور هكذا ، وأن تقبلها حقيقة مقدرة . فإذا كان طموح ابيه فى جعله أكثر من مجرّد جبّان يبعث الاعتزاز فى نفس الأب ، فماذا عنه هو ؟ أبوه يسمى ذلك « تقدماً » ، ولكن دانييل (البوم) لم يكن مقتنعاً بذلك تماماً . فربما يعنى إكمال الثانوية فى المدينة تقدماً على المدى البعيد . خذ مثلاً على ذلك رامون ابن الصيدلى : إنه يدرس المحاماه فى المدينة ويأتى فى العطلة مختالا كالطاووس متعالياً على الناس ، حتى أنه يسمح لنفسه عند انصرافه من قدّاس الآحاد والأعياد بتصحيح الكلمات التى كان دون خوسيه ، وهو القديس العظيم ، تفّوه بها من على المنبر . فإذا كان هذا تقدماً فلاريب أن إكمال الثانوية فى المدينة هو أساسه . ولكن شكوكاً كثيرة تملأ رأس دانييل (البوم) إنه يجد نفسه ملمّاً بكل ما فى مقدور الإنسان الإلمام به : يحتفظ عن ظهر قلب ويكتب ما هو مفهوم ويتقن العمليات الأربع ويحسن تطبيقها . فهل فى وسع العقل الطبيعى أن يلمّ بما هو أكثر من ذلك ؟ يقال ، فى المقابل ، أن دراسة الثانوية فى المدينة تستغرق سبع سنوات تتبعها سبع أخرى ، فى الأقل ، للدراسة الجامعية ، فهل يوجد فى الدنيا ما تحتاج معرفته إلى أربعة عشر عاماً من الجهد ، أى ما يزيد على عمره بثلاثة أعوام ؟ « لابّد أن الحياة فى المدينة تعنى إضاعة الكثير من الوقت ، ثم يأتيك ، وبعد أربعة عشر عاماً من الدراسة ، من لا يحسن التمييز بين طائر ابى زريق والحسّون أوبين البعر

والروث . فما أغرب الحياة وما أشد عبثها وتعسفها . إنها عمل وكدّ فى مالا نفع فيه أو ما هو قليل الجدوى » .

وتقلّب دانييل (البوم) على فراشة فصدر عن نوابض السرير الحديدى صرير مزعج . انها ، فيما يذكر . المرة الأولى التى لا يغط فيها نائما بمجرد الاستلقاء على الفراش . ففكره الليلة مشغول بأمور كثيرة ، وقد لا يكون الغد مناسباً للتفكير فيها اذ سيستقل عند التاسعة صباحاً القطار السريع الصاعد ولن يعود إلى بلدته حتى أعياد الميلاد : ثلاثة أشهر من الحجر المدرسى . وبدا لدانييل (البوم) أن صدره يضيق ، فاستنشق الهواء بقوة مرتين أو ثلاثا . واستحضر مشهد السفر ، وقدّر أنه لن يستطيع فى غده حبس دموعه وإن قال له صديقه روكى (البعرور) إن الرجل الحق هو من لا يبكى ولو مات ابوه .

وليس (البعرور) بالشخص الاعتيادى ، وأن كبره بعامين دون أن يبدأ الثانوية ، ولن يبدأها مادام باكو الحداد لا يحلم بالتقدّم لولده ، بل يكفيه أن يصبح حداداً مثله وأن يمتلك من المهارة ما يلزمه ليكيف الحديد على هواه فيا لها من صنعة لا يحتاج من يريد ممارستها أن يدرس أربعة عشر عاماً ولا ثلاثة عشر ولا اثنى عشر ولا عشرة أعوام ولا تسعة ولا عاماً واحداً ، صنعة تجعله رجلاً قوياً مفتول العضلات كما هو حال باكو والد (البعرور)

لم يكن دانيل (البوم) يملّ التطلع إلى باكو الحداد وهو يتصرّف بالحديد فى الكور . كانت تستهويه تلكما الذراعان الغليظتان كجذعى الشجرة ، المكسوتان بالشعّر الأحمر الكثيف والمليئتان بالعضلات والأوردة

« لا شكّ أنه قادر على رفع أريكة حجرته بواحدة من ذراعيه الجبارتين دون أن ينال منه التعب » . وصدره ؟ ماذا عن صدره ؟ . فلطالما اشتغل الحدّاد وهو يرتدى قميصه الداخلى ، فبدا صدره الهرقلى فى صعوده وهبوطه مثل صدر فيل جريح . « هذه هى الرجولة الحقة ، رجولة الحدّاد لا رجولة رامون ابن الصيدلى ، المتأنق المشدود الشاحب الذى يبدو مثل بنت ناعمة متغطرسة » . فاذا كان التقدم يعنى هذا فإنه زاهد فى التقدم . ولو كان الأمر بيده لاكتفى بزوج من الأبقار ودكان جبن صغير ولا كتفى بالبستان الصغيرة الكائنة خلف بيتهم . إنه لا يطمع فى أكثرمن ذلك : يصنع الجبن كأبيه طيلة أيام الأسبوع ويتسلى أيام الأحد بالقنص بالبندقية أو بصيد السمك فى النهر أو بلعب الصولجان .

كانت فكرة السفر تثير الغم فى نفس دانييل (البوم) . وينفذ ضوء الطابق السفلى من خلال شقوق الأرضية وتسقط حزمة منه على السقف فتتسمر فوقه . ستنقضى ثلاثة أشهر دون أن يشاهد ذلك الخيط الفسفورى ودون أن يسمع حركات أمه الهادئة وهى تقوم بأعمال البيت ، أو همهمات أبيه المتجهّم على الدوام خشنة جافة . ثلاثة أشهر من دون أن يستنشق ذلك الهواء الذى يدخل الآن عبر النافذة المفتوحة مثقلاً برائحة العشب الحصيد والروث المجفّف . ياالهى ، ما أطوله من وقت ! .

ربما كان بمقدوره التمرّد على فكرة السفر ، ولكن ما عاد ذلك ممكناً الآن . لقد أجهشت أمه بالبكاء ، قبل ساعات من هذا وهى تعدّد معه قائمة ملابسه :

– انظر يا صغيرى . هذه شراشفك . لقد طرزت عليها الحروف الأولى من اسمك . وهذه قمصانك الداخلية ، وهذه سراويلك وجواربك

كلّها تحمل الحرف الأول من اسمك كيلا تضيع ، فعددكم فى المدرسة سيكون كبيراً .

ولاحظ دانييل (البوم) نبرة غير مألوفة فى صوتها بدت مثل جسم غريب ، ثم إنها مسحت طرف أنفها الأخنس بظاهر يدها وابتلعت ريقها . فقال فى نفسه : « لابّد أن الظرف خاص جداً . فأمى تسمح لنفسها بما تمنعنى منه فى أوقات أخرى » ، وأحس برغبة شديدة وصادقة فى البكاء .

وواصلت أمّه كلامها :

– اعتن بنفسك وبملابسك يا ولدى . فأنت تعلم كم كلّف أباك كل هذا . اننا فقراء . ولكّن أباك يريد أن يكون لك شأن فى الحياة . إنّه لا يريد أن تشقى وتتعب مثله .

وأردفت وهى تنظر إليه حالمة :

– إن بإمكانك أن تصبح ذا شأن ، ذا شأن كبير فى الحياة يا صغيرى أنا وأبوك لم نرد أن يبدر من ناحيتنا أى تقصير .

عاودت ابتلاع ريقها وسكتت . وردد (البوم) مع نفسه : « ذو شأن كبير فى الحياة » . وهزّ رأسه . إنه لا يدرى كيف يمكن للإنسان أن يصبح ذا شأن كبير فى الحياة . إنه يحاول جاهداً إدراك ذلك . ذو الشأن الكبير عنده رجل مثل پاكو الحدّاد بصدره الواسع وبعارضيه المرتفعين وشعره الكث الأحمر وبمظهره القاسى المتجهّم الذى يذكّر بوجه اله قديم . وذو الشأن الكبير عنده أبوه الذى جندل من ثلاث سنين مضت حدأة عظيمة تبلغ المترين باعاً . لكنّ أمّه لا تقصد هذا النوع من العظمة ،

إنهـا تفكر فى تلك التى يتصف بهـا دون موبسـيس المعلم أو دون رامون الصيدلى الـذى نصّب عمدة للبلدة من أشهـر . إن والديه يتطلعان أن يبلغ عظمة من هذا القبيل ، لكنه ما كان راغباً فى هذه الأنواع من العظمة ، بل لم يكن معنياً بعظمة ولا راغباً فى تقدّم .

وتقلّب فى الفراش وانكفأ على وجهه محـاولاً التخفيف من إحساسه بالقلق الذى بدأ يكوى جوفـه ، فهكذا يشعر براحة أكـبر ، وهكذا يتحكم بعض الشىء بقلقه . ولكن ما الفرق بين الانكفـاء على الوجه أو الاستلقاء على الظهر مادام سـيركب فى غده قطار التاسعة السـريع المتّجه إلى المدينة ويودّع حينها كلّ شىء . لو أنه . . . ولكنّ الوقت قد فات . فمنذ سنوات وهذا المشروع يداعب فكر أبيه ، فليس فى مقدوره اذاً أن يغـامر بتدمير كل شىء فى خبطة رأس عابرة . إن أباه يريد أن يحقّق فـيه كل مالم يقدر هو على تحقيقه . إنها مسألة هوى ليس غير ، وللكبار فى أهوائهم أحيانا عناد وغرابة تفوقان مـا لدى الصغار منهما . والغريب أن فكرة تغيـير نمط الحياة التى تعذّب دانييل الآن كانت من أشهـر مضت تروق له . فمنذ ستة أعوام تقريباً وهو يعلم بخطط أبيه بشأن مـستقبله . فلطالما تنصت على والديه ، وهما يتحادثان فى الطابق السفلى أثناء الليل بعد إيوائه إلى الفراش ، رغم أن القس دون خوسـيه ، وهو قديس عظيم ، يردد دائـما أن التنصت على أحاديث الآخرين خطيـئة . فمن بين شقـوق الأرضية الخشبـية كان يمكنه مشـاهدة الموقد وطاولة الصنوبر والمقـاعد وطاولة صنع الجبن وكل مـعدات المعمل ولوازمه . كان دانييل (البوم) يتنصت وهو مستلق على الأرض فى مكمنه ذاك . كانت تلك عادة فيه . ومع همس الحديث كانت تتصاعد من

الطابق السفلي رائحة اللبن الحامضة وقوالب القش المتسخة . كانت تعجبه رائحة اللبن المختمر الحادة والآدمية تقريباً .

كان أبوه ليلتها متكئاً على طاولة صنع الجبن بينما راحت أمه ترفع فضلة العشاء . مضت ستة أعوام تقريباً منذ أن رأى دانييل (البوم) ذلك المشهد ، مع ذلك فقد ظل ارتباطه بحياته قوياً حتى أنه ليتذكره الآن بكل تفاصيله .

– لا . سيكون للولد شأن آخر . كوني على ثقة من ذلك . إنه لن يقضي حياته مربوطاً إلى هذه الدكة مثل العبد ، أو قولي مثلي .

وتفوّه بكلمة نابية وضرب بقبضة متشنجّة على الطاولة . لقد بدا وكأنه ساخط على أحد ، وأن يفلح دانييل (البوم) في معرفة من يكون ذلك الاحد . لم يكن دانييل حينها يدرك أن الرجال قد يسخطون على الدنيا وعلى نظام للأشياء يعتبرونه مهيناً وجائراً . كان يعجبه أن يرى أباه مغتاظاً لأن عينيه تقدحان ساعة الغضب شرراً ولأن عضلات وجهه تتقلص فينعقد عندها شبه بينه وبين باكو الحدّاد .

– ولكن ليس في مقدورنا مفارقته ، إنّه ولدنا الوحيد . لو كانت لدينا بنت على الأقل ، ولكّن بطني ، كما تعلم ، يبس وماعدنا قادرين على إنجاب البنت ، وقد قال دون ريكاردو آخر مرة إنني صرت عاقراً بعد الإجهاض .

وأطلق الأب شتيمة أخرى ثم أضاف دون أن يبدّل جلسته :

– اتركي الكلام في هذا الموضوع ، فما عاد من فائدة . ولا تنقّري في أمور منتهية .

وتأوهت الأم وهى تجمع فى علبة صدئة فتات الخبز من على الطاولة ثم أضافت :

– ربما لا يصلح الولد للدراسة . إن من السابق لأوانه الحديث عن كل هذا . كما أن إقامته فى المدينة تكلف الكثير . ونحن لا نقدر على ما يقدر عليه الصيدلى رامون أو السيد القاضى لأننا لا مال لدينا .

وراح الأب يحرّك قالب جبن بين يديه بعصبية . وأدرك دانييل (البوم) أن أباه يجاهد نفسه كى لا يزيد فى آلام زوجته . وأضاف بعد برهة :

– دعى تدبير هذا الأمر لى . إما أن يصلح الولد للدراسة أو لا يصلح فذلك يعتمد على ماعنده من مال . أظن كلامى مفهوماً . ونهض الأب وراح يبعثر بالعصا الجمرات التى كانت ماتزال متوهجة فى الموقد . أمّا الأم فقد جلست مسبلة يديها الخشنتين على حجرها منهكة خائرة خاوية وبلا حول .

وعاود الأب توجيه كلامه إليها :

– القضية محسومة فلا تفتحى باب الموضوع ثانية . سيذهب الولد إلى المدينة عندما يبلغ الحادية عشرة ليبدأ دراسته الثانوية . ولم تردّ الأم بشىء بل تنهّدت مستسلمة . أما دانييل (البوم) فقد رقد وهو يتساءل عن معنى قول أمه إن بطنها قد يبس وإنها صارت عاقراً بعد الإجهاض .

الفصل الثاني

ولكن دانييل (البوم) يعرف الآن معنى أن يكون البطن يابسا ويعرف المقصود بالإجهاض . وفكّر في روكي (البعرور) الذي لولاه لبقي ، على عمره ، جاهلاً بمعنى البطن اليابس والإجهاض . فروكي (البعرور) يعرف الشيء الكثير عن « هذا » . ولطالما نصحته أمه بالابتعاد عن روكي لأن (البعرور) نشأ محروماً من أمه ولأنه يعرف الكثير من البذاءات . ولطالما رددت (الفلفلات) أنّه لكثرة مصاحبته (البعرور) صار مثله صعلوكا قليل الأدب .

أمّا دانييل (البوم) فكان يتبرى دائمًا للدفاع عن صاحبه ، ولكّن أهل البلدة ما كانوا يفهمونه أو ما كانوا يريدون أن يفهموه . فأن يعرف روكي الكثير عن « هذا » لا يعني أنه قليل الادب ، وأن يكون قوي الجسم كالثور أو كأبيه الحدّاد لا يعني أنه شرير ، وأن يحتفظ أبوه الحدّاد بقربة النبيذ إلى جوار الكور يعبّ منها بين الحين والحين لا يعني أنهّ سكير مدمن ، كما لا يصحّ الجزم بأن روكي (البعرور) صعلوك كأبيه لمجّرد العلم بأن « العصا من العصية » . دانييل (البوم) يعلم جيداً أنها سلسلة من الأكاذيب وحسب ، لأنه يعرف روكي وأباه حق المعرفة . أما موت امرأة ياكو الحدّاد ساعة وضعها (البعرور) فلا ذنب لأحد فيه ، كما لا ذنب لأحد في ألاّ تحسن أخته سارة تربيته وهي التي فيها من الفظاظة والصرامة ما يخرج بها من خانة بنات حوّاء . كانت سارة فتاة حمراء الشعر شعثاءه ، جسيمة قوية كأبيها وأخيها ، وقد تولت مسؤولية البيت منذ موت أمها ، وكان دانييل (البوم) يتصور أحياناً أن أم روكي (البعرور) لم تمت إلاّ لأن شعرها

لم يكن أحمر ، فقد يكون الشعر الأحمر بالفعل سبباً فى إطالة العمر أو على الأقل ضرباً من التعاويذ التى تقى الانسان وتحفظه . ومهما يكن من شيء فقد ماتت أم (البعرور) ساعة ولادته ، ومنذ ذلك الحين تعاملت معه أخته التى تكبره بثلاثة عشر عاماً وكأنه قاتل لا يرجى له صلاح . إنها فتاة ضيّقة الصدر وذات طبع حاد نزق ، وقد رآها دانييل (البوم) أول ما رآها وهى تنزل السلّم راكضة فى إثر أخيها شعثاء تبعث على الرعب وتصرخ كالمجنونة :

– حيوان وأكثر من حيوان ، بل إنّك حيوان من قبل أن تولد .

بعد ذلك سمعها تردد هذه المقطوعة مئات بل آلاف المرات ، ولكن روكى (البعرور) ما كان يأبه لذلك . ولا شك أن أشد ما جعل سارة حادة الطبع صعبة الأخلاق هو فشلها الذريع فى أسلوبها التربوى . لقد تمرّد (البعرور) منذ صغره على (البعبع) و (صاحب الجراب) والغول ، وكان له فى قوته البدنية ما ألهمه تلك الاستهانة التامة بكل ما ليس هو من صنف الرجال الحقيقيين ، بعظامهم وعضلاتهم ودمهم الذى يجرى فى عروقهم . وعندما كانت سارة تهدد أخاها قائلة : « روكى ، لا تفعل هذا وإلاّ جاءك البعبع » ، كان (البعرور) يبتسم بخبث وكأنّه يقول متحدّياً : « وأنا بانتظاره ، فليأت » . لم يكن عمره يتجاوز آنذاك الثلاث سنين وما كان بعد قادراً على الكلام . فتستشيط سارة غيظاً وهى ترى تهديدها يقابل بلامبالاة الصغير واستهزائه .

وصار (البعرور) يكبر شيئا فشيئا ، وراحت أخته تلجأ إلى طرق أخرى ، فاعتادت ، إن هو ارتكب حماقة ، أن تحبسه فى المتبن لترتّل عليه من خارجه وبصوت متأن كئيب صلاة المحتضر .

ومازال دانييل (البوم) يذكر احدى زياراته الأولى لبيت صديقه . كان الباب نصف مفتوح والدار تبدو خالية فما كان يشاهد في داخلها من أحد ولا يسمع فيها صوت . كان السلّم المؤدى إلى الطابق العلوى ينتصب أمامه يغريه بالصعود ، ولكنه اكتفى بالنظر إليه والإمساك بمحجره . كان وقتها قد سمع بسارة ، ثم إن السكون الغريب كان يبعث في قلبه رهبة غامضة . وبينما هو مشغول بالامساك بسحلية كانت تحاول النفاذ بين بلاطات مدخل الدار طرقت سمعه رشقة من الشتائم الغاضبة انبعثت من فوق متبوعة بصفقة باب مدوّية وهنا قرّر أن ينادى وهو متهيّب بعض الشيء :

- بعرور . . . . . يا بعرور .

فانهال عليه سيل من عبارات التوبيخ أحّس معها بالانكماش :

- من يكون هذا الوقح الذى ينادى ؟ ليس بيننا من يتسمّى بـ (البعرور) كلنا في هذا البيت لنا أسماء قدّيسين . هيّا انصرف من هنا .

ولم يدرك دانييل (البوم) لماذا بقى وقتها ورغم كل شيء مسمّراً على الأرض كالصنم . لقد بدا جامدا أخرس مقطوع النفس . وسمع حينها صوت سارة يأتى من فوق فأصغى إليه . كانت عباراتها الفخمة تنهمر من خلال السلّم مثل مطر قاتم كئيب :

- عندما تخبرني قدماى ، وهى بلا حراك ، بأن طريقى في هذا العالم موشك على نهايته .

ويأتى صوت (البعرور) من بعد قائماً حفّياً وكأنه ينعبث من غيابة بئر :

– رحماك يا يسوع .

– عندما تسمّر عيناى المزججّتان الجاحظتان نظراتهما الواهنة المحتضرة فيك فرقاً من الموت الوشيك . . .

– رحماك يا يسوع .

ويسيطر على دانيـيل (البوم) رعب غامض يصيـبه بقشعـريرة . أما تلك الترتيلة الكئـيبة فكانت تدغدغه فى نخـاع عظمه . لكنه مع ذلك لم يتحرك من مكانه بسبب فضول مبـهم غريب كان يلح عليه . ويعود صوت سارة رتيباً :

– عندمـا أفقـد حواسى ويختـفى العـالم من ناظرى وأنن تحت وطأة النزع الأخير ومغالبة الموت .

ويعود صوت (البعرور) واهناً مبهماً هادئاً وهو ينبعث من المتبن :

– رحماك يا يسوع .

ولما انتهت سارة من عقابها الشفوى بدا نفاد صبر على روكى :

– هل انتهيت ؟

– نعم .

– افتحى اذاً .

ولكن السؤال اللاحق كان ينم عن غيظ لم تحسن سارة كظمه :

– هل اتعظت ؟

– كلا .

– لن أفتح إذاً .

– افتحي وإلا كسرت الباب ، فقد انتهت العقوبة .

وفتحت له سارة مرغمة . أما (البعرور) فقال وهو يمرّ من أمامها :

– لم تخيفيني اليوم كبقية الأيام .

وفقدت الأخت أعصابها فقالت وهي تستشيط غضبا :

– اخرس أيها الخنزير . يوما ما سأقطع لسانك ، يوماً ما . . يوماً ما . . لا أدري ماذا سأفعل بك يوماً ما .

– لا ، سارة ، لا تقربي ناحيتي ، فلم يخلق بعد من يمسّني بأذى . إنّي أحذّرك .

وتوقع دانيـيل (البوم) سمـاع دوى صفـعة ، ولكن يبـدو أن سارة فكّرت في الأمر جيـداً فلم يحدث ما توقعه . وسـمع دانييل وقع خطوات صاحـبه وهـو ينزل بشـقـة على درجات الـسلّم . فخرج من الـباب المردود تدفعه غريزة الكتمان والعفة لينتظره في الشارع . ولمّا صار (البعرور) إلى جانبه قال له :

– هل سمعت ما قالته سارة ؟

ولم يجرؤ دانييل (البوم) على الكذب فقال :

– نعم سمعتها .

– أرأيت كم هي ثرثارة ملعونة ؟

– الحق أنها أخافتني – أجابه (البوم) مضطرباً .

– لا عليك يا صاحبي ، فكل مـا قالته عن العيون الجـامدة والأقدام

التي لا تتحّـرك إنما هو محض هراء . فأبي يقـول انّك عندما تسلّم الروح فلن تشعر بشيء .

وحّرك (البوم) رأسه متشككاً :

– وكيف يعرف أبوك ذلك ؟

لم يكن روكي (البعـرور) فكّر في ذلك من قبل ، فـتردّد لحظة ثم قال :

– ومـا أدرانـي أنـا فلعل أمي قالت له ذلك وهي تموت . أنا لا أذكر ذلك .

ومنذ ذلك اليوم صار (البعرور) محط إعجاب دانييل (البوم) .

لم يكن (البعرور) ذكيا ، ولكنه يظهر حيثما تتأزم الأمور مع الكبار . كان يبدو أحيانا رجلا في جرأته وشخصيته . أنه لا يرضخ لمواقف مفروضة ولا لعدالة متذبذبة متقلّبة الأهواء ، كتلك السائدة في المنزل بالطبع . أخته تحترمـه ، وليست كلمته صفرا علـى الشمال كما هو الحال مـعه ، بل إنها تعـدل كلمة رجـل يحسب له حسـاب سواء في البـيت أم في الشـارع ، فللبـعرور شـخـصيـته . ومع مـرور الوقت ازداد اعـجاب (البـوم) بـ (البعـرور) . كان هذا دائم العـراك مع صبـيان البلدة ، وكان هـو الغالب دائماً دون أن يصاب بسوء يذكر . لقد شـاهده دانييل ذات مساء وهو يشبع طبال فرقة شعبية ضرباً بالعصا ، ولما تعب من ضربه حشر رأسه في الطبل فبدا كالقبـعة على رأسه . وضحك الناس كثيراً . كان عـمر الطبال يقرب من العشرين بينما لم يتجاوز (البعرور) حـينها الحادية عشرة . ومن ساعتها

أدرك (البوم) أن روكى شجرة كبيرة يمكنه الاحتماء بها فلازمه على الرغم من أن تلك الصداقة كانت تدفعه أحياناً إلى مضاعفة جرأته ، وربما أوردته بضع مسطرات من دون مويسيس المعلم ، ولكن ما أكثر ما حماه (البعرور) ودفع عنه الأذى . مع هذا فليس من حق أم دانييل ولا دون خوسيه القس ولا دون مويسيس المعلم ولا (الفلفلة) الكبرى ولا (الأرنبات) أن يصفوا روكى بأنه صعلوك قليل الأدب فما كان (البعرور) يتشاجر الا لقضية عادلة أو لهدف نبيل ، ولم يحدث أن تشاجر مرة باطلاً أو لمجرد الرغبة فى الشجار .

أما أبوه پاكو الحداد فشأنه مختلف . فهو يعمل أكثر من أى انسان آخر ويكسب من المال ما يكفيه . وبما أن أهل البلدة فى رأى (الفلفلة) الكبرى و (الأرنبات) صنفان : صنف يكسب القليل ، يقولون عنه إنه حشد من الكسالى المتسكعين ، وصنف يكسب الكثير ، يقولون عنه إنه صنف الذين يعملون لينفقوا مالهم فى شرب النبيذ ، فقد كانوا يطالبون بحال وسط يصعب بلوغة والوصول إليه . ولكن پاكو الحّداد ، والحق يقال ، ما كان يشرب إلا لحاجة ، ودانييل (البوم) يدرك ذلك تماما لأنه يعرف پاكو حق المعرفة : فإن هو لم يشرب فإن الكور لن يشتعل ، ولطالما ردّد قائلا : « حتى السيارات لا تسير من دون وقود » ليتناول جرعة وليعاود بعدها عمله بحماس أكبر ومثابرة أشد . وكل هذا يصب أولاً وآخراً فى مصلحة البلدة ولكن البلدة ما كانت تشكر له ذلك بل تصفه بقلة الحياء والعربدة . ومن حسن الحظ أن الحّداد صبور كولده ، فما كانت تلك الشتائم تثير حفيظته حتى أن دانييل (البوم) كان يعتقد أنه إن حدث

وغضب الحّداد يومـا فلن يبقى فى البلدة حجرا على حجر بل سـيدمرّ كل شيء كالإعصار .

وما كان يصح أيضـاً اتهام الحّداد بالتحرش بالفتـيات المآرات من أمام دكانه ودعوته لهن بالجلوس معه برهة لتبادل الحديث وتناول الشراب . فهو رجل أرمل وعمره يؤهله للزواج ثانية كما أن له فى ضخامة جسمه ما يحّببه إلى النساء . ألم يتـزوج دون انطونينو (الماركيـز) ثلاث مرّات ومع ذلك واصل الناس مناداته بدون انـطونينو وواصلوا رفع قـبعـاتهم تحـيـة له عند ملاقـاته وواصل هو احتـفاظه بلقب (الماركـيز) ؟. ولكن لئن لـم يتزّوج باكو الحّداد ثانية فلكي لا يأتى لأولاده بـزوجة أب وليس لكى يوفر النقود اللازمة لشرابه كما تدّعى بخبث (الفلفلة) الكبرى و (الأرنبات) .

كان باكو الحّداد يشرب أيام الأحد والأعـياد فى حانة (الجانو) حتى الثمالة . هذا ، على الأقل ، ما تقـوله (الفلفلة) الكبرى و (الأرنبات) عنه . وقد صّح ما يقلن ، فلاّ بد أن للحداد دوافـعه القوية التى تتمثل فى نسيان ستة أيام مـن العمل انقضت وستة أخرى قادمة لن يذوق فـيها طعماً للراحة . فما أكثر ما تكلّف الحياة الرجال ، وما أقّل ما ترحمهم .

وقـد يعكـر الكحـول مـزاج باكـو فيدخل فـى مشادات حـامية فـى حـانة (الجانو) ولكنه ما كان يبلغ حد إشهار السكاكين وأن أقدم خصومه على ذلك . وتصفـه (الفلفلة) الكبرى و (الأرنبات) بأنه شـقى مقرف وهو الذى ما كان يتشاجر إلا بصدر مكشوف والا بأعلى مراتب الشهامة . والحق إن ما يغيظ (الفلفلة) الكبرى و (الأرنبـات) والمعّلم والقيّمة على بيت (الماركيز) وأم دانييل والـقس هى عضلات الحّداد المفتولة وشخـصيته

القدّة وقوته البدنية . ولو كان پاكو وولده هزيلين ناحلين لما أقلق الناس أن يكونا سكيرين أو معربدين ، لأن في مقدورهم حينها الإطاحة بالاثنين بصفعة واحدة . ولكن الأمر يختلف عندما يكون الجسم ضخماً قوياً ، ولذا فهم يكتفون بشتمهم غيبة . وما أحسن ما كان يقول اندريس الاسكافي :

« عندما تختفي العضلات من الذراعين تظهر في اللسان » .

حتى دون خوسيه القس ، وهو القديس العظيم ، كان يحمل في داخله الاعجاب لپاكو الحّداد مع أنه يجاهر بإدانته على تجاوزاته . وهو مهما حمل على الحّداد فإنه لن ينسى ما حدث في « عيد العذراء » من أعوام مضت عندما مرض توماس ولم يقدر على الحضور لرفع المحفّة ، وعندما اضطر خوليان ، وهو من حملتها الدائمين أيضاً ، إلى مغادرة المكان لسفر مفاجيء . وساءت الأمور إذ لم يظهر البديل ، وفكّر دون خوسيه القس في تأجيل الموكب ، ولكن پاكو الحّداد حضر إلى الكنيسة ليقول بتواضع :

– إن رغبتم ، حضرة القس ، فان في مقدوري الطواف بالعذراء في البلدة ، ولكن بشرط أن أقوم بذلك لوحدي .

وابتسم دون خوسيه بخبث للحّداد :

– اشكرك يا ولدي على همّتك ، وأنا لا أشك في مقدرتك ، ولكن التمثال يزن أكثر من مائتي كيلو .

وطأطأ پاكو الحداد رأسه تواضعًا وقال :

– في استطاعتي ، سيّدي القس ، حمل مائة أخرى . ثم إنها ليست

المرة الأولى . وطافت العذراء بالبلدة محمولة على كتفى پاكو الحّداد القويتين ، طافت بخطى بطيئة ، وتوقفت فى أربع محطّات : فى الساحة وأمام البلدية ومقابل البريد وفى فناء الكنيسة عند العودة حيث أنشدت ، كما جرت العادة ، تحيّه العذراء . وعند انتهاء الموكب أحاط الصبية بپاكو الحّداد يرمقونه بنظرات الاعجاب بينما راح هو يطلب منهم وقد رسم على وجهه ابتسامة صبيانية أن يعاينوا قميصه فى الصدر والظهر وتحت الإبطين :

– انظروا ، انظروا ، لم أعرق ، لم تخرج منى قطرة عرق واحدة .

ولامت (الفلفلة) الكبرى و (الأرنبات) القس دون خوسيه أن سمح لاشّد سكان البلدة خطيئة أن يرفع محفّة العذراء على كتفيه ، وعدّوا ما قام به پاكو الحّداد من فعل خيّر مجّرد استعراض قوة أثيم . ولكن دانييل (اليوم) كان محقّا فى ظنّه : فما لا يمكن غفرانه لپاكو الحّداد يكمن فى بنيته ، فى كونه أقوى رجال الوادى ، كل الوادى .

الفصل الثالث

الوادى . . . . ذلك الوادى يعنى الكثير بالنسبة إلى دانييل (البوم) ، بل هو كل شيء عنده . ففيه ولد ، ولم يتخطّ فى سنيّه الإحدى عشرة سلسلة الجبال العالية التى تحيط به ، بل لم يشعر بالحاجة إلى ذلك . وكان دانييل (البوم) أحيانا يوافق أباه والقس والمعلم اذ يشبهون الوادى بقدر كبير مستقل ومنعزل تماما عن العالم الخارجى ، مع ذلك فليس هو كما يصفون ، فللوادى حبله السّرى ، بل حبلاه السريان اللذان يمدّانه بالقوة والنشاط من جهة ، وبالضعف والانحلال من جهة أخرى . أنهما سكة القطار والطريق العام يقطعانه من جنوبه إلى شماله : يصدران من سهول قشتالة البنية الجافة وينحدران صوب سهول البحر السماوية ليشكّلا حلقة وصل بين عالمين واسعين متناقضين .

وتشابك سكة القطار والطريق العام والنهر ألف مرة ومرة وهى تقطع الوادى مكّونة مخطّطا مضطربا من الجسور والأنفاق ونقاط مرور القطارات والقناطر . أمّا النهر فينضم إليهما بعد أن يندفع فى ثورة من الانحدارات والسيول المتدفقة من أعالى قمة جبل راندو . كان روكى (البمرور) ودانييل (البوم) قد اعتادا أيام الربيع والصيف الجلوس ساعة الأصيل فوق أى مرتفع بسيط من الأرض ليتأملا ، وقد أعياهما ما يوشك أن يكون تعبّدا ، حيوية الوادى الفائرة المتواصلة . كانت السكة والطريق يرسمان فى الوادى خطوطا متعرّجة حادة وكثيرة ، تتجاذب أحيانا وتتنافر أحيانا أخرى ولكنها تبدو فى المخطط دائما مثل أخدودين أبيضين مفتوحين فى خضرة

كثيفة من المروج وحقول الذرة . ومن بعيد كانت القطارات والسيارات والبيوت البيض تتضاءل فتبدو كتماثيل « الميلاد » بعيدة إلى درجة لا تصدق وفى متناول اليد إلى درجة غير مفهومة .

وقد يظهر قطاران أو ثلاثة فى وقت واحد وقد ارتفعت فوق كل منها كتلة من الدخان معلّقة فى الفضاء يتصدّع لها تناسق المرج النباتى الوضّاء . وكم هو ممتع خروج القطارات من فتحات الأنفاق . انها تطّل كالجداجد التى كان هو و (البعرور) يتسبّولان عليها حتى تغرق فى جحورها . فالقطار والجدجد يبديان ، وهما يخرجان من جحريهما ، تعبيرا واحدا قوامه اللهاث والفزع والاختناق . كان يروق لـ (البوم) الاحساس بأن الوادى يلّفه بهدوئه الساكن الرائق ، ويعجبه تأمل المساحات الخضر المجزّأة والمزروعة بالضياع المتناثرة ، أو بقع غابات الكستناء الداكنة الكثيفة أو سلّم الألوان الفاتحة الخامدة الذى تؤلّفه غابات أشجار الكينا . أو الجبال البعيدة التى انتصبت فى كل الانحاء والتى تبدّل هيأتها بحسب الفصول والمناخات لتتراوح بين شحة نباتية ظاهرة وكثافة داكنة رمادية جامدة فى الأيام المعتمة ما كان يروق لـ (البوم) شىء أكثر من ذلك المشهد ، ربما لأنه لم يألف غيره . وكان يعجبه التحقّق من خمود الحقل وثورة الخضرة ودفقات الصخب والحركة القادمين من المدينة بين وقت وآخر فى دقة تضاهى دقة الساعة .

ولطالما فقدا ، وهما يرقبان توقف الطبيعة وسكونها ، الاحساس بالوقت فيدركهما الليل ، وتمتلىء قبة السماء بالنجوم فيرتاع روكى (البعرور) بتأثير ضرب من الفزع الكونى . كانت ترد على باله فى مثل هذه الأحوال

من الظلمة والانقطاع عن العالم ، أفكار غـريبة وخواطر لا تشغل باله فى الأحوال الاعتيادية .

سأل مرّة :

– (بوم) ، لو أن نجمـة من تلك سقطت فـهل يمكن ألا تصل إلى القاع أبدا ؟

ونظر دانييل (البوم) إلى صديقه وقد بدا عليه أنه لم يفهمه :

– لا أفهم ماذا تقصد .

كان (البعرور) يجـاهد قصوره فى التعبير ، حـرّك يديه مرارا ليقول فى النهاية :

– النجوم فى الهواء ، أليس كذلك ؟

– بلى .

– والأرض هى الأخرى فى الهواء كبقية النجوم ، أليس كذلك ؟

– بلى . هذا ما يقوله المعلم على الأقل .

– حـسناً هذا مـا أقصـده . فلو أن نجـمـة سـقطت ولم تصطدم لا بالارض ولا بأية نجمـة أخرى فهل سـتصل إلى القاع ؟ أليس لهـذا الهواء الذى يحيط بالنجوم من قاع ؟

وأطرق دانييل (البوم) مفكّرا للحظة ، وقد بدأ اضطراب كونىّ مبهم يسيطر عليه ، فخرج الصوت من حنجرته مترددا مرهفا وكأنه بكاء :

– (بعرور)

– ماذا ؟

– كفّ عن هذه الاسئلة فقد أصبت بدوار .

– دوار أم خوف ؟

– ربما بالاثنين .

وضحك (البعرور) ضحكة متقطعة ثم قال :

– سأقول لك شيئا .

– ماذا ؟

– أنا كذلك أخاف من النجوم ومن كل هذه الأشياء التى لا يحيط بها شيء ولا تعرف لهـا نهاية . ولكن اسـمع ، لا تقل ذلك لأحد . لا أريد أن تعرف أختى سارة عن ذلك شيئا على الاطلاق .

كان (البعرور) دائما يختار أوقات الهدوء والعزلة هذه للبوح بأسراره فقـد كـانت الجبال الشامخـة بقممهـا الضخمة المتصدّعـة فـوق الأفـق تمـلأ (البعرور) بإحـساس مهين بالضآلة . وفكّر دانيـيل (البوم) : لو عرفت سارة بنقطة الضعف هذه لسيطرت على (البـعرور) بسهولة . لكنه بالطبع لـن يصرّح لها بشيء ، فسارة بنت مكروهـة وقـاسية ، أمّا روكى فهو خير أصدقائه ، فلتكتشف بنفسهـا الـرعب المبهم الذى تبعثه النجوم فى قلب (البعرور) .

كان نبض الحيـاة فى الوادى يبدو ، ساعة العـودة إلى البلدة مساء ، اشدّ وضوحا وحضورا . فمن قطارات تطلق صفاراتها فى المحطات المتناثرة لتجرّح الفضـاء بصفيرها الحاد كالسكين ، ومن أرض تعـبق برائحة التراب

الندى وروث البقر ، ومن عشب تنبعث منه رائحة قوية أو خفيفة تبعا لحالة الجو أو لهطول المطر .

كانت تلك الروائح تروق لدانييل (البوم) كما كان يروق له أن يسمع في هدأة الليل خوار بقرة ناعسًا أو أنين عربة رتيبًا وهي تتقدّم على الطريق متعثّرة تجرّها الثيران .

أما في الصيف ، ومع تبدّل الوقت ، فكانا يعودان إلى البلدة والوقت نهار . كانا يسيران فوق النفق ساعة مرور قطار المحافظات ، وينتظران وصوله بشوق وقد انبطحا على التل وأطلا بأنفيهما على الهاوية . وتنبئهما الجلبة المنبعثة من جوف الوادي باقتراب القطار . وما إن يخرج القطار من النفق متلفعا بسحابة دخان كثيفة حتى ينفجر الاثنان في نوبات من العطاس والضحك . أما القطار فينساب تحت بصريهما بطيئًا هادئًا رتيبًا فيوشكان أن يمساه بأيديهما .

وينزلان من هناك سالكين درب الرعاة للوصول إلى الطريق العام . كان النهر يمرّ من تحت الجسر هادرًا كالشلال ، إنه سيل ينحدر من الجبل مندفعًا بقوة بين صخور عظيمة لا تتأثر بتعرية ولا بتآكل .

ولكن سرعان ما يهدأ صخب مياهه الداكنة بعد عشرين مترًا حيث تمتد « بركة الانكليزي » التي اعتادوا الاستحمام فيها ساعات القيظ الصيفية .

عند ملتقى النهر بالطريق العام وعلى مسافة كيلو متر واحد من البلدة تقع حانة كينو (الأقطع) . ويتذكّر دانييل (البوم) أيام الخير ، أيام الصفقات السهلة الرخيصة ، أيام كان كينو (الأقطع) يقدم لهما قدحاً

كبيراً من عصير التفاح المحفوظ مقابل خمسة سنتات فضلا عن الحديث معهما . ولكن الأمور تغيرت مؤخراً . وما عاد كينو (الاقطع) يقدّم لهما لقاء ذاك المبلغ غير الكلام .

كانت الحانة خالية من الرواد معظم الوقت . وكان (الاقطع) كريماً إلى حدّ الإسراف ، وإن من الطيش أن يكون المرء كريماً في هذه الأيام ، ولكن الحانة ما عادت تقدّم لسبب أو لآخر غير نبيذ ردىء ، يطفىء به عمال وعاملات معمل المسامير الكائن على مسافة ٥٠٠ متر إلى الجنوب ظمأهم

ويلي الحانة ، بعد اجتياز آخر منعطف إلى جهة اليسار ، دكان والد (البوم) ، وتقع قبالته المحطة المتوغلة قليلاً في الحقول ، وإلى جوارها بيت كوكو ، مأمور المحطة ، بلونيه الأبيض والأحمر وبمظهره البهيج . وبعد ذلك ، ومع نهاية الانحدار ، تبدأ البلدة بمعناها المحدد الصحيح . أنها بلدة صغيرة منزوية عادية . لبيوتها الحجرية شبابيك خشبية مفتوحة ومعلّقة ومطلية عمومًا بلون أزرق يقف في الربيع والصيف ازاء الأخضر والأحمر في الجيرانيو الذى يملأ الشبابيك والشرفات .

والصيدلية هي أول ما يظهر من المباني على جهة اليسار ، تليها اصطبلات دون رامون الصيدلي العمدة وهي اصطبلات رائعة مليئة بالابقار المتفخة مرضًا أو عافية . وفي باب الصيدلية جلجل يصرف برنينه دون رامون عن واجباته البلدية ويعيده خلال دقائق إلى مهنته . ونتقدّم صعودا فنصادف قصر (الماركيز) المسوّر بسياج عال من الحجر الأملس الصلب ، ثم ورشة الاسكافي ، ثم البلدية وقد ظهر شعار قديم على واجهتها . ثم دكان (الفلفلات) ذو الواجهة الزجاجية الملونة التي أعيد ترميمها ،

ثم الفندق الذى يحتل بشرفته الزجاجية الشهيرة اثنين من جوانب البناية . وعلى يمين الفندق تقع الساحة المغطاة بالبعرور والحصى وقد توسطتها نافورة ذات ماسورتين . وتنتهى الساحة من الطرف الآخر ببناية المصرف تليها ثلاثة بيوت لكل منها حديقته الأمامية . أما على اليمين مقابل الصيدلية فتقع مزرعة خيرادو (الأمريكى) التى تنتج أفضل ثمار المنطقة واصطبل بانجو (الملحد) حيث أقيمت دار السينما ، وحانة جانو ثم ورشة (الحداد) ثم دائرة الهاتف التى تديرها (الأرنبات) ثم متجر انطونيو (الحوصلة) ثم بيت دون خوسيه القس ومكتبه فى الطابق الأرضى منه . على بعد ٣٠٠ متر نزولاً تقع الكنيسة ذات البناء الحجرى والطراز المعمارى غير المحدد والبرج المتصب الرشيق . وبإزائها بناية المدرسة الجديدة المطلية بالكلس الأبيض بشبابيكها الخضر ثم سكن دون موسيس المعلّم . فالبلدة ، وبنظرة سريعة كهذه ، لا تختلف عن سواها الكثير . . أما بالنسبة إلى دانييل (البوم) فكل ما فى بلدته يختلف تماماً عمّا فى غيرها فمشاكلها ليست اعتيادية ، ونظام الحياة فيها يفصح عن أصالة وجميع نشاطاتها تقريباً محمودة العواقب وإن لم يشأ الآخرون الإقرار بكل ذلك .

ولطالما وقف دانييل (البوم) يتأملّ دروبها المتعّرجة وساحتها المليئة بالبعر والحصى وأبنيتها الكئيبة التى صمّمت بحّس خدمى محض . ولكنه ما كان يستاء لذلك ، فالشوارع والساحات والأبنية لا تصنع البلدة ولا ترسم معالمها بل هم رجالها وتأريخها . ويعلم دانييل (البوم) أن هذه الشوارع المغطاة بالروث الطرى وهذه البيوت المحيطة بها شهدت مرور رجال عظام هم الآن مجرد ذكرى ولكنهم منحوا البلدة والوادى معنى وتناسقاً وأعرافاً ووقعاً وأسلوباً خاصا ومنفرداً فى الحياة .

أيقول دون رامون العمدة إن البلدة تتصف بنزعة فردانية متطرفة وأن لا مكان فيها للمؤسسات العامة ؟ ، حسناً . إن (البوم) لا يفهم معنى « النزعة الفردانية » ولا معنى « المؤسسة العامة » ولا ينكر ذلك ، ولكن إن كان هذا صحيحاً فان عواقبه لا تتعدى حدود البلدة ، وبالتالى فالسكان يدفعون بأنفسهم ثمن خطاياهم .

أيقولون أنهم يفضلون عدم رصف الساحة الا بعد زيادة الضرائب عليهم ؟ لا بأس ، ألم يمنع هذا أن تجرى الدماء أنهاراً . وينتهز دون رامون أية فرصة ويتكلم صارخاً « ما أسوء الأمور العامة . إنها كارثة . فكل واحد ينظر إلى أموره الخاصة ناسياً أن هناك أموراً تخص الجماعة وأن من الواجب الالتفات إليها » . وليس هناك من يدرك أن هذه الأنانية إنما هى زهرة أو شوكة ، فضيلة أو رذيلة يتّصف بها جنس بأكمله .

ولكن ليس بالإمكان ، لأى من هذه الأسباب ، تجريد البلدة من صفات الكفاءة والجد والرصانة . صحيح أن كل انسان وشأنه ، ولكن المتسكعين ليسوا متسكعين لمجرد عدم رغبتهم فى المشاركة فى أعمال الآخرين . والبلدة ، بلا شك ، تمتلك كفاءة معتدلة ورصانة بناءة ، أما أن يقال عن (الفلفلة) الكبرى وعن كوكو ، موظف المحطة ، إنهما تمآمان ، فلا جسد يخلو من شامة . أما عن « فردانية » البلدة ، أفلا يكفى التقاء الشباب من فتية وبنات أماسى السبت والأحد ؟ . ولطالما صرحّ دون خوسيه القس ، وهو القديس العظيم ، متألماً : « من المؤسف أن يحيا كل منّا لِذاته فى جميع شؤونه ، ثم لا نلتقى إلا لنغضب الرب » . ولكن دون خوسيه ما كان يريد هو الآخر أن يفهم أن هذه الحسّية إنما هى زهرة أو شوكة ، فضيلة أو رذيلة يتّصف بها جنس بأكمله .

الفصل الرابع

مضت الأشياء فى وقتها ، ولكن دانييل (البوم) يتذكرها الآن بتلذذ كان الجبان قد فكّر فى اسم لولده ولمّا يولد الصغير بعد . جهّز الاسم وصار يلفّه ويحنو عليه فكأنّه رزق بالولد حقاً . تم ولد دانييل . واستحضر (البوم) خطواته الأولى فى الحياة . كانت تنبعث من أبيه رائحة نفّاذة ، فكأنه قطعة جبن عظيمة طرّية بيضاء اللون ثقيلة الوزن . ولكن دانييل (البوم) كان يستمتع بتلك الرائحة التى تضمّخ أباه وتفيض عليه عندما يداعبه الأب فى ليالى الشتاء وهو يحكى له ، أمام الموقد ، حكاية اسمه . كان الجبّان يريد الولد ليكون فى مقدوره ، وقبل كل شىء ، أن يسميه دانييل . كان يحكى ذلك لـ (البوم) ولما يتجاوز هذا الثالثة من عمره وعندما كانت مذاعبة جسمه الصغير المكّور البدين تعدل إطالة الوقوف أمام طاولة صنع الجبن . كان فى مقدور الجبّان أن يسمى ولده ساعة التعميد بألف اسم غير اسمه ، لكنه فضل أن يسميه « دانييل » .

– هل تعلم أن دانييل كان نبيّا حشر فى قفص مع عشرة أسود لكنها لم تجرؤ على إيذائه ؟ – كان يقول له وهو يضمّه بقوة إلى صدره . إن رجلاً قادراً على ترويض جماعة من الأسود بنظراته له قوة تفوق ما لدى الرجال جميعاً . كان حادثاً فريداً رائعاً فتن الجبّان منذ طفولته .

– أبى ، ماذا تفعل الأسود ؟

– تعضّ وتخمش .

- هل هى أسود من الذئاب .

- إنها أشدّ وحشية .

- ماذا ؟

كان الجبّان يبسّط الأشياء لولده كما تمضغ الأم الطعام قبل تقديمه إلى صغيرها .

- أى إنها تؤذى أكثر من الذئاب ، هل فهمت ؟

ولا يشبع دانييل (البوم) من السؤال :

- وهل صحيح أن الأسود أكبر من الكلاب ؟

- نعم ، إنها أكبر .

- ولماذا لم تؤذ دانييل ؟

كان الجبّان يجد متعة وهو يفصّل الكلام حول تلك الحكاية :

- كان يغلبها بمجرّد النظر إليها . لأنه يمتلك قوة الرب فى عينيه .

- ماذا ؟

ويضم الولد إليه :

- لأنه من أولياء الله .

- وماذا يعنى هذا ؟

وهنا تتدخل الام متحوّطة :

- دع الولد فإنك تعلّمه أشياء أكبر من عمره .

وتنتزعه من أبيه وترقده . كانت رائحة اللبن المحلّى والجبن القريش تنبعث من أمه أيضاً . فكل شيء في بيتهم له تلك الرائحة بل كانوا هم أنفسهم رائحة لبن خالصة . وكان أبوه يحمل تلك الرائحة القوية حتى في نهايات أظفاره السود . وما كان دانييل (البوم) يفهم كيف تكون أظفار أبيه سوداً وهو الذي يشتغل في اللبن ، أو كيف يخرج الجبن أبيض وقد مرّ من بين تلك الأظفار الداكنة السواد .

ومالبث أبوه أن ابتعد عنه ، فما عاد يداعبه ولا يلاعبه بعد أن أدرك أن الولد أصبح قادراً على التعلّم بنفسه . حدث هذا عندما بدأ دانييل الذهاب إلى المدرسة وعندما لجأ إلى (البعرور) بحثاً عن معين . مع ذلك فقد ظل أبوه وظلّت أمه وكل ما في الدار يحملون رائحة اللبن المحلّى والجبن القريش وظلّت تلك الرائحة تروق له رغم نفور روكي (البعرور) منها وقوله بأنها تشبه رائحة القدمين .

ابتعد عنه أبوه كمن يبتعد عن شيء صار واكتمل وما عاد بحاجة إلى العناية ، وأصيب الأب بالخيبة وهو يرى ابنه مستقلاً غير محتاج إلى رعايته وحمايته . وبدا الجبّان كذلك متجهّم الوجه معكر المزاج وهو الذي كان حتى ذلك الوقت مثل الكمّشراة المجفلقة المحلاة بالسكر ، على حد وصف امرأته ؛ لقد غيّر حرصه المحموم على جمع المال طبعه ، والاقتصاد عندما يقوم على أساس التقصير في الضروريات فإنه يحدث في طبع الإنسان حدّة ولؤماً . وهذا هو ما حدث للجبّان ، فصار ينزعج لأي إنفاق طفيف أو أي مصروف إضافي . كان يريد الادخار وبأية طريقة ليصبح ابنه دانييل رجلاً في المدينة وليتقدم فلا يكون مثله ، مجرّد جبّان معدم .

ولكن ما لا يفهمه دانييل (البوم) هو أنه ما من أحد يستفيد من هذا كله ، فأبوه يعاني ، وأمه تعاني ، وهو نفسه يعاني ولو انتهت معاناته فستنتهي معاناة الآخرين . ولكن ذلك سيعني التخلي عن الطريق والتسليم بأن دانييل ما عاد يريد التقدّم ، وهو ما لن يقبل به أبوه الجبّان ، فلا بدّ للولد أن يتقدّم وإن كان الثمن تضحية العائلة كلها بدءاً به . كلا . إن دانييل (البوم) لن يفهم هذه الأمور أبداً ، لن يفهم عناد الرجال الذين يبرّرون سلوكهم بأنه رغبة منطقية في التحرر . ولكن ، التحرر من ماذا ؟ وأين سيكون هو أكثر تحرراً : أفي المدرسة والجامعة أم في مروج الوادي وهو يتراشق بالروث مع (البعرور) ؟ . قد يكون على خطأ ولكنه لن يفهم هذه الأمور أبداً .

لم يدرك الأب كذلك ما أقدم عليه عندما سمّى ولده دانييل ، فجميع الآباء تقريباً يجهلون ما يقدمون عليه ساعة تعميد أبنائهم . فلا أبو المعلّم ولا أبو كينو (الأقطع) ولا أبو أنطونيو (الحوصلة) ، صاحب المتجر ، كانوا يدركون ما هم مقدمون عليه لحظة يصبّ دون خوسيه ، الماء المبارك على رأس الوليد ، ولو أنهم كانوا يدركون ذلك فلماذا أقدموا عليه مع علمهم بعدم جدواه ؟ وهكذا لم يدم لدانييل (البوم) اسمه إلا بمقدار ما دامت له طفولته الأولى ، حتى إذا دخل المدرسة عافه اسمه فما عاد يسمّى دانييل ، تماماً كما حدث لدون مويسيس المعلّم بعد وقت قصير من وصوله إلى البلدة .

كان دون مويسيس رجلا طويلاً هزيل الجسم متوتر الأعصاب ، كان هيكلاً من العظام المكسّوة بالجلد . وقد اعتاد فتح فمه فكأنه يحاول

عض شحمة أذنه ، وكانت حالة الانبساط تزيد من استدارة فمه ليصل فى انفراجه حتى سالفتيه . كان أمر ذلك الرجل غريباً ، حتى إنه أخاف دانييل (البوم) وأثار اهتمامه من أول يوم عرفه . وصار هذا يدعوه بـ (البيدق) كبقية الأولاد دون أن يعرف لتلك التسمية سبباً . وعندما قالوا له إن القاضى أطلق عليه هذه التسمية لأن دون مويسيس « يتقدّم إلى الأمام ويأكل من الجانب » بدا عليه أنه فهم ولكنه واصل جهله سبب التسمية وواصل اطلاق اسم (البيدق) عن غير فهم .

أما دانييل (البوم) فكان محبّاً للاستطلاع فعلاً . وكان يرى فى كل ما يحيط به جديداً ويعدّه حرياً بالتأمل . وقد أثارت المدرسة ، كما هو طبيعى ، فضوله أكثر من بقية الأشياء ، وأثار فضوله ، أكثر من المدرسة نفسها ، (البيدق) المعلّم وفمه المضطرب الذى لا يعرف الكلل وسالفتاه السوداوان الكثّتان اللتان تذكّران بسالفتى قاطع طريق .

وكان جيرمان ولد الاسكافى أول من لاحظ طريقة دانييل فى النظر إلى الاشياء ، إنها طريقة يقظة مدققّة متطلعة .

– ألا ترون أنه ينظر إلى الأشياء كالمفزوع ؟

ونظر إليه الجميع بإمعان قاتل . وأضاف أحد أبناء أخ (الماركيز) :

– وعيناه خضراوان ومستديرتان كعينى القط .

ثم حدّد آخر الوصف وقرّبه ليصيب فى الهدف :

– إنه ينظر كالبوم .

ولازمته التسمية رغما عن ابيه وعن النبى دانييل وعن الأسود العشرة المحبوسة معه فى القفص وعن قدرة عينيه التنويمية .

وما كانت نظرات دانييل (البوم) قادرة ، خلافا لرغبات أبيه الجبّان ، حتى على ترويض مجموعة من الصبيان . وبقى اسم « دانييل » مقصورا على بيته ، أما فى خارجه فما عادوا ينادونه بغير (البوم) . وكافح الأب زمناً للحفاظ على اسم ولده ، بل لقد تشاجر يوماً مع بائعة المرطبات العجوز فى القطار . ولكن جهوده ذهبت سدى ، لأن من يحاول منع ذلك كمن يحاول منع تدفق مياه النهر فى الربيع ، عبث فى عبث . ومنذ ذلك الحين صار هو (بوماً) كما صار دون موسيس من قبل (بيدقاً) وروكى (بحروراً) وأنطونيو (حوصلة) والسيدة لولا ، (فلفلة) كبرى وعاملات الهاتف (كاكات) و (أرنبات) .

إن البلدة تتعامل مع ركن التعميد المقدس باستهانة وإسراف مفرطين .

الفصل الخامس

الواقع هو أن (الفلفلة) الكبرى بوجهها الأحمر المستدير وبطبعها الحار النزق ، كانت جديرة بلقبها . وهي ، فوق ذلك ، نمّامة ، والنمامون لا يبتئسون لكل ما يقع على رؤوسهم . ثم إنها ، تحاول التحكّم بالبلدة من دون وجه حق بينما تريد البلدة أن تكون حرّة مستقلة : فما دخل (الفلفلة) في أن يكون پانچو مؤمناً أو كافراً أو أن يكون باكو الحداد منقطعاً إلى الخمر أو منقطعا عنها ، أو أن يصنع أبو دانييل الجبن وهو نظيف اليدين أو وهو متسخ الأظفار . وإن هي تقزّزت من ذلك فلتمتنع عن أكل الجبن والسلام . وما كان دانييل (البوم) يرى فيما تفعله (الفلفلة الكبرى دليلاً على طيبتها . الطيبون هم من يتقبّلون وقاحاتها وينتخبونها رئيسة لهذه الجمعية الخيرية أو تلك .

ويصيب انطونيو (الحوصلة) إذ يقول إنها أفعى دميمة ، وإن فكّر وهو يصدر حكمه هذا ، في منافسة (الفلفلة) له في تجارته أكثر من تفكيره في دمامة خلقتها وسوء أخلاقها .

و (الفلفلة) الكبرى ، مع حمرة بشرتها ، طويلة عجفاء كقصبة الكوكانيا وإن لم تحمل في نهايتها ، كما الكوكانيا ، جائزة . وماذا تحمل (الفلفلة) غير أنف عظيم وغير حرص شديد على التدخل في شئون الغير وغير سلسلة متنوعة ومتجددة من وساوس الضمير .

ولطالما شغلت دون خوسيه ، وهو القدّيس العظيم .

– هل تعلم ، دون خوسيه ، إنني لم أنم الليلة البارحة . كنت أتساءل : إن كان المسيح بقي وحيداً على جبل الزيتون بعد أن نام الحواريون

فمن رآه إذا وهو يتصبب بدل العرق دماً ؟ – قالت له يوماً قبل دقيقة من بدء القدّاس .

ويجيبها دون خوسيه وهو يطبق عينيه النافذتين كأطراف الدبابيس :

– على رسلك يا ابنتي فنحن نعرف هذه الأشياء عن طريق الوحي .

وتتأوه (الفلفلة) الكبرى مغمومة :

– وهل تعتقد ، دون خوسيه ، أن بإمكاني تناول القربان مطمئنة بعد ما فكّرت في هذه الأمور :

ويرد عليها دون خوسيه القس وقد تحلّى ، ليطيقها ، بصبر أيّوب :

– إن لم تذنبي في شيء آخر فبإمكانك تناول القربان .

وهكذا يوماً بعد يوم :

– دون خوسيه . . . البارحة لم يغمض لي جفن وأنا أفكّر في قضية بانچو . فكيف يمكن لهذا الرجل أن يتلقّى سر الزواج وهو الذي لا يؤمن بالله ؟

ثم تعود بعد ساعات :

– هل في مقدور حضرتك ، دون خوسيه ، أن تسامحني . فأمس الأحد قرأت كتاباً أثيماً يتحدث عن الأديان في انكلترة . البروتستانت هناك أغلبية ، فهل تعتقد ، دون خوسيه ، أنني لو كنت ولدت في انكلترة لكنت بروتستانتية ؟

ويبتلع دون خوسيه القس ريقه :

– ليس مستبعداً يا ابنتي .

– فأنا متهمة ، ابتاه ، بأنني لو كنت ولدت في انكلترة لكنت بروتستانتية .

عندما ولد دانييل (البوم) كانت السيدة لولا ، وهذا هو اسم

(الفلفلة) الكبرى ، تبلغ التاسعة والثلاثين . وبعد ثلاث سنوات من ذلك أنزل الله بها ما آلمها أشد الألم ، ولكنها ، والحق يقال ، تغلّبت على ألمها بالصلابة والفظاظة التي اعتادت بهما فرض نفسها على أهل بلدتها . إن تسمية السيدة لولا بـ (الفلفلة) الكبرى يوحي بوجود (فلفلات) أخريات صغريات . وهذا صحيح ، فـ (الفلفلات) كنّ ثلاثاً ولم تبق منهن غير اثنتين : الكبرى والصغرى . كان أبوهن حارساً مدنياً ظل لوقت طويل مأمور مركز البلدة . وتدعى الألسن النّمامة الموجودة على الدوام ، أنه مات كمداً لعدم إنجابه ولداً ذكراً ، وقد ترك لبناته بعض مدّخراته ففتحن بها دكانهن . بالطبع فإن المأمور مات في وقت كان فيه نائب الضابط في الحرس المدني قادرا براتبه على تأمين عيشة مقبولة وتوفير بعضه .

وهكذا تكفّلت لولا ، وبعد موت الحارس ، وزوجته قبله بسنوات ، بأمور البيت وفرضت نفسها على أختيها لأنها أكبرهن عمرا وأطولهن قامة .

أما دانييل (البوم) فلم ير الا اثنتين منهن ولكنه سمع من أهل البلدة أن الثالثة كانت كالأخريين ، عجفاء بادية العظام وإنه كان من الصعب ، في حياتها ، تمييزها عن أختيها من دون معاينة مسبقة ، مطوّلة ودقيقة . وليس في ذلك ما يدفع عن الأختين الصغيرتين أنهما عذّبتا أختهما الكبرى في حياتها الدنيا ، عذاباً أليماً . أما الوسطى فكانت كسولة متسكعة وكان طبعها وسلوكها يظهران على الملأ صراخاً وسباباً فاضحاً يصدر على مدار الساعة من دكان (الفلفلات) وبيتهن ليكشف عن استمرار الوضع السيئ وتدهور العلاقة بين الأخوات . مع ذلك ، فجميع الناس في البلدة متفقون على أن (الفلفلات) الثلاث لم يتخلّفن يوماً ، وهنّ مجتمعات ، عن

قداس الساعة الثامنة الذى كان دون خوسيه القس ، يعقده فى الأبرشية عند مذبح القديس روكى . كنّ يرحن إلى هناك بقامات منتصبة وهامات مرتفعة وإن كان البرد قارساً والسماء ممطرة مسرعدة . كنّ يمشين ثلاثتهن مشية نظامية موزونة الخطوات ، فقد ورثن عن أبيهن ، فضلا عن مدخراته ، حسًا دقيقا يقظا من الانضباط وغيره من فضائل العسكرية . واحد - اثنين ، واحد - اثنين ، واحد - اثنين ؛ كنّ يتقدّمن ثلاثتهن صوب الكنيسة بصدور عجاف وأعجاز ناشفة وقامات شامخة وقد عقدن مناديلهن عند الأحناك وتأبطن كتاب الصلوات .

وذات شتاء ، ماتت وسطاهن ، إيلينا . انطفأت روحها صباح يوم كانونى مكفهر ممطر . وعندما ذهب الناس لتعزية الأختين الباقيتين كانت (الفلفلة) الكبرى تصلّب مرددة :

- لنشكر الله الحكيم العادل ، فقد اختار أقلّنا نفعاً .

ولما بدأ الناس فى المقبرة الصغيرة المجاورة للكنيسة يهيلون التراب على جثمان إيلينا الهزيل ، راحت جوقة من الناعبات تولول فانبرت لهن (الفلفلة) الكبرى فظّة معتّدة لتقول :

لا تنحن عليها ، فقد ماتت من كسلها .

ومنذ ذلك الوقت أصبح الثلاثى ثنائيا ، وصار دون خوسيه القديس العظيم ، يفتقد ، وهو يقيم قدّاس الشامنة عند مذبح القديس روكى ، المرحومة بجسمها المذبب الصغير .

على أن ما جرى للأخت الصغرى كان أمّر وأدهى . ولئن كان ما حلّ بالوسطى من قضاء الله فإن ما حدث للصغرى كان زلّة شهوانية ، وهو بالتالى نتيجة لنزوة مقصودة ومستهترة راودتها .

كان قد فتح فى البلدة آنذاك فرع صغير للمصرف الذى يحتل الآن

أحد أركان الساحة العامة . وكان قد وصل مع المدير موظف شاب رشيق القوام أنيق المظهر شدّ انتباه ساكنات الشارع إليه فصرن يودعن مدّخراتهن وقصدهن التطلع إليه عن قرب من فتحة شباك المصرف . كان طعما جيدا استخدمه المصرف لاصطياد الزبائن . إن أي مصرفي مرموق كان سيرفض هذا الأسلوب ، ولكنه جاء في البلدة بنتائج باهرة حتى أن رامون ابن الصيدلي ، وكان وقتها قد بدأ دراسة القانون ، أسف لعدم تمكنه آنذاك من عمل اطروحة ، كان سيكتبها بعناية لنيل الدكتوراه حول موضوع مبتكر عنوانه « أثر حسن انتقاء الموظفين على اقتصاديات البلدة » . كان يقصد بكلمة « اقتصاديات » « مدّخرات » وبكلمة « البلدة » بلدته الصغيرة بالطبع ولكن عبارة « اقتصاديات البلدة » ، كما كان يقول مازحاً ، لها وقع أفضل وهي تعطي أطروحته الموهمومة ، مستوى أعلى وأهمية أكبر .

ومع وصول ديماس ، وهذا كان اسم موظف المصرف ، دخل الآباء والأزواج حالة من الترقب ، وتحدث دون خوسيه ، عدة مرات مع ديماس مذكّراً إياه بالعواقب الكبيرة التي بإمكان شاربيه أن تجلباها على البلدة : حميدة كانت تلك العواقب أم وخيمة . وقد خفّفت لقاءات القس المتكررة مع ديماس من ريبة الآباء والأزواج حتى أن (الفلفلة) الصغرى رأت أن الخروج برفقة ديماس من وقت لآخر لا يعدّ من جانبها طيشاً ولا خروجاً على تعاليم الدين وإن أدانت أختها الكبرى بالصراخ ، وبعد التزام أعلى درجات اللياقة ، « انحلالها وتهتكها الفاضح » .

وهكذا انفتحت أمام (الفلفلة) الصغرى فجأة جميع الآفاق وهي التي كانت ترى في الوادي حتى ذلك الوقت ونزانة خالية مظلمة ، وتوقفت لأول مرّة في حياتها لتتأمل روعة الجبال الوعرة وسمات الريف الأخضر الشاعرية والإحساس الذي يوحي به سماع صدر ليل الوادي يمزّقه

صفير القطار المدّوى . تفاهات ، نعم ، ولكنهـا تصبح مهمة عندما يكون القلب متوقّداً . وذات مـساء عادت (الفلفلة) الصغرى من نزهتـها المعتادة فرحة :

– لا أدرى ، أختاه ، من أين تأتيك هذه الـكراهية نحو ديماس . إنه أفضل من عرفت من الرجال . اليوم كلمـته عن نقودنا فعرض على أفكاره لاستثمـارها . أنا قلت له إننا أودعناها فى أحـد مصـارف المدينة وبأننا ، أقصد أنا وأنت ، سنتشاور قبل أن أقرّر .

وصرخت (الفلفلة) الكبرى :

– وهل أخبرته بأن المبلغ لا يزيد على الألف دورو ؟

وتبسمت (الفلفلة) الصغرى لاستهانة أختها بفطنتها :

– لا طبعاً ، لم أقل له شيئاً عن المبلغ .

ورفعت (الفلفلة) الكبـرى كتفيـها بعظامهـا الناتئة مستـسلمة ، ثم صاحت تاركة كلمـاتها تنزلق على امتداد أنفها الدقـيق فكأنها تنساب على زحلوفة :

– اسمعينى . هذا رجل مـحتال يضحك عليك . ألا ترين أن الناس جميعاً يتقوّلـون ويسخرون من بلاهتك ؟ وهل يعقل ، أختاه ، أن تكونى آخر من يعلم ؟ .

– وغيّرت فـجأة نبرة صوتها لتـصبح أكثر نعومـة – : عمرك الآن ، ايرينه ، ست وثلاثون سنة ، فأنت بعمر أم هذا الولد تقريباً .

فكّرى فى الأمر ملياً .

ولكن ايرينه تمردت وثارت مثل بحر هائج :

– اعلمى ، لولا ، أن شكوكك تؤلمنى وتلميحاتك الخبيثة تزعجنى . فما الغريب فى أن يتفاهم رجل وامـرأة ؟ وماذا يعنى فارق العمر ؟ المسألة

هى أن جميع نساء البلدة ، وأولاهن أنت ، يغرن منى . هذا هو كل مافى الأمر .

وافترقت (الفلفلتان) وهمـا ترفعان أنفيهما عالياً . وفى مساء اليوم التالى أبلـغ كـوكـو ، موظف المحطة ، أهـل الـبلدة بـأن الآنسة ايرنيه ، (الفلفلة) الصغرى ، قد استـقلّت القطار الصاعد إلى المدينة . برفقة دون ديماس ، موظف الصرف . ولمّـا علمت (الفلفلة) الـكبرى بما حصل فار الدم فى عروقها وسقطت مغشيا عليها . ولم تسترّد وعيها إلا بعد أكثر من خمس دقـائق ، ولما أفاقت استخـرجت من خزانة ملابسـها الموبوءة بالعث البدلة السـوداء التى تحتفظ بها مـنذ موت أبيها ؛ انحـشرت فيهـا ومضت بخطوات سريعة إلى مكتب القس .

قالت وهى تدخل :

– ياللمصيبة ، دون خوسيه ، يا إلهى .

– اهدئى يا ابنتى .

جلست (الفلفلة) على كرسى الخيـزران القريب من منضدة القس . واستنطقت دون خوسيه بعينها فأجاب :

– نعم ، لقد علمت بالأمر . كوكو حكى لى كل شىء .

وأطلقت زفرة قوّية تردد صداها بين الضلوع فكأنها اصطدمت ببعضها ثم مسحت دمعة مستديرة مكوّرة كقطرة المطر وقالت :

– استمع إلـىّ ، دون خوسيه ؛ فبـداخلى شك مروّع ..... شك ينهش أحشائى . فإيرينه أختى أصبحت موسماً ، أليس كذلك ؟

وأحس القس بشىء من الخجل :

– اسكتى يا ابنتى ولا تتفوّهى بحماقات .

وأغلق القس كتاب الصلوات الذى كان فى يده وتنحنح ولكّن صوته خرج ، مع ذلك ، مشوباً بغنّة صمّاء . قال :

– اسمعى . المرأة التى تسلّم نفسها لرجل عن محبة ليست مومساً . المومس هى التى تجعل من جسدها ومن النعمة التى منحها الله لها تجارة محرّمة . هى التى تسلّم نفسها لجميع الرجال لقاء أجر . هل تلاحظين الفرق ؟

ورفعت (الفلفلة) الكبرى هامتها بعناد :

– على أيّة حال ، ابتاه ، فإن ما فعلته ايرينه يمثل خطيئة عظيمة ، خطيئة قذرة ، أليس كذلك ؟

– هذا صحيح يا ابنتى ، ولكنها ليست مما لا يصلّح . أعتقد أننى أعرف دون ديماس . إنه لم يبد لى رجلاً سيئاً . سيتزوجان .

وغطّت (الفلفلة) الكبرى عينيها بأصابعها النحيلة وهى تجتهد ألاّ تغص بالبكاء :

– أبتاه . . . . أبتاه . . . . ، ولكن هناك شىء آخر . لقد افقدها غيرتها . ان ما أخطأ هو دمها ، ودمها هو دمى ، فربما كنت سأرتكب خطيئة مشابهة . أبتاه . . . . أبتاه إننى أقر بذنبى ، ومن صميم قلبى المحزون أعلن عن ندمى .

ونهض دون خوسيه القس ، وهو قديس عظيم ، ومسّ رأسها بأصابعه :

– اذهبى إلى بيتك يا ابنتى ، وهوّنى عليك فأنت لا تتحمّلين وزر أى شىء . أمّا قضية ايرينه فستتولّى حلّها .

وغادرت (الفلفلة) الكبرى مكتب القس وهى تحس بشىء من الراحة ؛ وفى الطريق راحت تحدّث نفسها بوجوب الإعلان عن ألمها

وشعورها بالخجل لأن إضاعة العفّة هي أعلى درجة من إضاعة الروح .
وما إن وصلت إلى البيت ، محكومة بتلك الفكرة ، حتى انتزعت ورقة مقوّاة من علبة أحذية ، وكتبت عليها بفرشاة مضطربة : « الدكان مغلق لدواعي العار » .

ثم نزلت إلى الشارع وعلّقتها على باب الدكان .

وظل الدكان مغلقاً ، على ما حكى لدانييل (البوم) ، عشرة أيام بلياليها .

الفصل السادس

ولكن دانييل (البوم) يعرف الآن معنى أن يكون البطن يابسا ويعرف المقصود بالإجهاض ، فعند بلوغ سّن معينة تصبح هذه الأمور بسيطة مفهومة . أما قبلها فتبدو للمرء ضرباً من ضروب السحر . وليس من سبيل إلى فهم ازدواجية المرأة قبل ظهور استدارة البطن الفاضحة جليّة واضحة ، ولا سبيل إلى فهم ذلك قبل سّن التناول الأول : وما العينان قبل هذه السن بكافيتين للتحقّق من الأشياء الواضحة التى تحيّرنا فيما بعد ببساطتها .

كان جيرمان (الأقرع) ، ابن الإسكافى ، يعرف هو الآخر معنى البطن اليابس والمقصود بالإجهاض . وجيرمان (الأقرع) هذا كان الصديق الطيب على الدوام ، حتى فى أصعب الظروف ، وإن لم يصل فى صداقته لدانييل (البوم) إلى درجة (البعرور) . وما كان الذنب فى ذلك ذنبه ولا ذنب دانيل ولا ذنب أى شئ أو ظرف متّصل بإرادتنا .

كان جيرمان (الأقرع) صبيا ضاويا شاحبا . ولو أن شعره كان أقل سوادا لما بدت قرعته على ذاك القدر من الوضوح . لقد أصيب بالقرع فى طفولته ، وهو ما أورده لقبه رغم أن ما به لم يكن قرعا حقيقياً بالطبع . وكان لابيه الإسكافى ، فضلا عن ورشته الصغيرة الكائنة على يسار الطريق العام بعد قصر (الماركيز) صعودا ، عشرة أولاد ؛ ولد ستة منهم كما يولد خلق الله : فرادى ؛ أما الأربعة الباقون فولدوا فى دفعتين من التوائم . زوجته هى الأخرى كانت إحدى توأمين ، وكذا أمّها . وكانت للإسكافى فى قطلونية أخت توأم أنجبت ثلاثة توائم فنشر الخبر فى الصحف وتبرع المحافظ بمبلغ لإعانتها . ولكّل ذلك بالطبع دلالته ، فما كان فى

مقدور أحد أن يزحزح الاسكافى عن ايمانه بأن هذه الظاهرة ناتجة عن عصبّية « شأن أى مرض آخر » .

كانت لأندريس الإسكافى ، إذا ما نظر إليه من أمام ، هيئة يمكن أن تدل على أنه أب لعائلة كبيرة ؛ فان نظر إليه من جانب ، فمستحيل أن تدل هيأته على ذلك . وعليه فقد كان أهل البلدة أكثر من محقّين إذ يقولون عنه : « أندريس ، الرجل الذى لا يرى من جانبيه » . ويكاد الوصف يكون حرفيا لفرط نحول الرجل وشدة هزاله . ثم إنه كانت فيه انحناءة واضحة نحو الأمام ، فمن قائل إنها سبب طبيعة عمله ، ومن قائل إنها بسبب حرصه الشديد على التطلع إلى سيقان الفتيات اللاتى يقعن ضمن مرمى بصره ومتابعته لهن لحين اختفائهن عن النظر . كانت رؤيته على تلك الحالة ، من الأمام أو من الجانب ، تبدو أدعى للفهم والتصور من رؤيته أبا لعشرة أولاد .

ولكن الإسكافى ماكان يبدو مكتفيا بما لديه من خلفة ، فترى ورشته الصغيرة وقد امتلأت على الدوام بأقفاص تعج بطيور الخضيرى والكنارى والحسون ، أما فى الربيع فكانت مجموعة من الجداجد تملأ المكان بزقزقاتها الحادة المتنافرة . كان هذا الرجل يبدو مسكونا بعفريت الإخصاب فهو يطّبق على تلك المخلوقات كل أنواع التجارب فيزاوج اناث الكنارى وذكور الخضيرى ويزاوج ذكور الكنارى واناث الحّسون وينتظر ما ينتج عن هذا المزيج ، وكان يؤكد أن للطيور الهجينة صفات أرقّ وأكثر تناسقا من تلك المعرقة .

وأندريس الإسكافى كان ، فوق ذلك كله ، فيلسوفا . فإن قيل له : « أليس لديك فى أولادك العشرة ما يغنيك عن الطيور ؟ أجاب قائلاً : « الطيور تنسينى الأولاد » .

ثم إن معظم أولاده بلغوا سنّا تمكنهم من الاعتماد على أنفسهم ، فلقد ولّت إلى غير رجعة سنوات الشّدة . يروى أنه عندما استدعى أول زوج من أولاده التوائم للخدمة العسكرية ، دخل فى جدل حام مع مسؤول التجنيد عندما أصر الإسكافى على أنهما من وجبتين مختلفتين .

– ولكن ، يا ابن الحلال – قال مسئول التجنيد – كيف يكونان من وجبتين مختلفتين وهما توأمان ؟

وزاغت عينا اندريس الإسكافى خلف ساقى فتاة حضرت لتبرير تخلّف أخيها ، ثم عدّل رقبته مثل حلزون منسحب إلى قوقعته وأجاب :

– ببساطة ، لأن اندريس الصغير ولد الساعة الثانية عشرة إلا عشر دقائق من يوم القّديس سلفسترس بينما ولد ماريانو بعد دقائق من بداية السنة الجديدة .

مع ذلك ، ولأن الولدين كانا مسجلين فى مواليد ٣١ ديسمبر فقد اضطر اندريس إلى التسليم باستدعاء الاثنين معا . أما ولده توماس ، فكان يعمل فى شركة للحافلات فى المدينة أما (الأحول) ، فكان يساعده فى ورشته . وأما البقية الباقية فهم جميعا من البنات ، طبعاً باستثناء جيرمان (الأقرع) الذى كان أصغر الجميع سنا .

وجيرمان (الأقرع) هذا هو من قال عن دانييل ، يوم دخوله المدرسة ، إنه ينظر إلى الأشياء كالمفزوع ، وهو ، بالتالى ، من عمّد دانييل بلقبه . مع ذلك لم يضمر له هذا أى حقد بل وجد فيه ، ومنذ اليوم الأول ، صديقا وفياً ولم تشكل قرعة جيرمان عقبة أمام التفاهم بل لقد مهّدت لتلك الصداقة لأن دانييل (البوم) أحّس منذ اللحظة الأولى بفضول شديد تجاه تلك الجزر البيض المفتوحة فى محيط مظلم من الشعر الأسود الذى يغطى رأس (الأقرع) .

مع ذلك ، ومع أن قرعة جيرمان لم تكن مدعاة للقلق لا فى بيت الإسكافى ولا بين حلقة أصدقائه الضيقة ، فإن (الفلفلة) الكبرى ، بدافع من شعور بأمومة قاصرة تشمل به البلدة جمعاء ، قررت التدخل فى الأمر رغم أنه لا يعنيها من قريب ولا من بعيد ، فهى مغرمة بالتدخل فيما لا يعنيها ، وهى تتصوّر أن اهتمامها الشديد بأمور الآخرين يأتى بوحى من حرصها المحموم على عمل الخير ومن إحساسها العالى بالاخوة المسيحية ، والواقع هو أنها تلجأ إلى هذا السلوك ليكون فى مقدورها تسقّط الأخبار تحت غطاء من الحكمة وعمل الخير .

وفوجئ اندريس ، الرجل الذى لا يرى من جانبيه ، ذات مساء ، وهو فى ورشته منكبا على عمله ، بالسيدة لولا تقف أمامه لتقول له :

– كيف تترك الصبى هكذا ؟

ولم يفقد الإسكافى هدوءه ، ولم يرفع عينيه عما فى يديه بل قال :

– ليكن كذلك ، ياسيدتى . فبعد مائة عام يبق من قرعته أثر .

ومع صخب الجداجد وطيور الخضيرى والحسون كان على (الفلفلة) والإسكافى أن يتحاورا صراخا . قالت هى آمرة :

– خذ . ضع له من هذا المرهم ليلا .

ورفع الإسكافى بصره نحوها . تناول المرهم وتأمله وقلّبه ثم أعاده إليها قائلا ، قبل أن يعاود الانكباب على عمله :

– احتفظى به لنفسك . إنه غير نافع . فقد أصيب الولد بالعدوى من أحد الطيور .

وقد يكون الإسكافى محقاً ، وقد لا يكون ، فقد كان جيرمان (الأقرع) شديد الولع بالطيور ، ولابد أن هذا الولع هو من بقايا طفولته المبكرة التى أمضاها بين طيور الخضيرى والكنارى والحسون وزقزقاتها

الصاخبة المدوية .

لم يكن فى الوادى من يفهم فى الطيور مثل جيرمان (الأقرع) الذى كان مستعداً أن يمضى من أجلها أسبوعاً كاملاً من دون أكل ولا شرب . ولا شك أن هذه الموهبة أثرت كثيرا فى قرار روكى (البعرور) بعقد صداقة مع ذلك الصبى ذى البنية الضعيفة الواهنة . وكثيرا ما كان جيرمان يقول لهم ساعة الانصراف من المدرسة عصرا :

– أعرف مكانا فيه عش لطائر الخورى . إنه على سياج الصيدلية وفيه اثنا عشر فرخا .

أو يقول :

– تعالوا معى إلى حقل (الأمريكى) ، فمع المطر الخفيف تخرج الزرازير لنقر الروث .

كان (الأقرع) خير من يفهم الطيور بملاحظة اضطراب طيرانها وتشنّجه أو طريقة زقزقتها ، كان يخمّن ردود فعلها ويعرف جيداً عاداتها وتأثير تقلبات الجو عليها ؛ بل يجوز القول إنه لو كان رغب في تعلم الطيران لكان له ما أراد .

وكل هذا فى عرف (البوم) و (البعرور) موهبة لاتقدر بثمن . فكان لابد لهما ، إذا خرجا للبحث عن الطيور ، من صحبته ، شأن الصيّاد المرموق لايخرج من دون صحبة كلبه .

لكن هزال ولد الإسكافى سبب له ، من ناحية أخرى ، حوادث خطرة مؤلمة . فبينما هو مرة يبحث فوق النفق عن عش الطائر السمّان بين الحراج ، فقد توازنه وسقط على السكة سقطة شديدة كسرت لها قدمه . وبعد شهر أخبره دون ريكاردو بتماثله للشفاء ، لكنه ظل يعرج فى قدمه اليمنى طوال حياته ، ولم يشغل ذلك باله كثيراً بالطبع بل واصل بحثه عن الأعشاش بحماسه واندفاعه المعهودين .

وسقط في مناسبة ثانية من شجرة كرز برّى ، حيث كان يتربّص بالزرازير ، على عوسجة متشابكة الاغصان . وشقّت شوكة شحمة أذنه اليمنى بالطول ، ولم يشأ أن يخاط له جرحة فبقيت الشحمة مشطورة مثل ذيل بذلة الفراك . كان ذلك عنده من متاعب المهنة ، فلم يخطر على باله يوما أن يأسف لعرج في قدمه أو لانشطار في شحمة أذنه أو لقرعة يقول أبوه إنها جاءته من أحد الطيور . فمرحبا بالمصائب أن جاءته من الطيور . كان تفكيره ذاك ضربا من القدرية الرواقية التي لايمكن التنبؤ بحدودها . وسأله (البعرور) يوما وهو يشير إلي ما بأذنه :

- ألا يؤلمك هذا ؟

وابتسم جيرمان (الأقرع) ابتسامته الشاحبة الحزينة :

- أحيانا تؤلمني قدمي عندما يكون المطر وشيكاً ، أما أذني فلا تؤلمني أبداً .

ولكن (الأقرع) كان يتمتّع بميزة هي في نظر روكي (البعرور) أهم من خبرته بالطيور ، وتكمن هذه الميزة في ضعف بنيته . فقد كان جيرمان (الأقرع) يمثل في هذا المعنى طعما ممتازا لافتعال العراك . وكان روكي (البعرور) يحتاج إلى العراك حاجته إلى خبز يومه ويجد في الاحتفالات الصيفية التي تقام في القرى المجاورة مناسبات جيدة لتمرين عضلاته ، ويخلق لذلك المناسبة والمبررات الكافية ، فثمة حرص يضمره بطل البلدة عماده القوة والهيمنة على أبطال البلدات والقرى والضياع المجاورة . وكان جيرمان (الاقرع) ، وهو السقيم الهزيل ، يشكّل نقطة تماس جيدة بين روكي وخصومه ؛ ومحكاً رائعا للكشف عن التفوّق .

كان المشهد حتى اندلاع المعركة واحدا لايتغيّر . فبعد أن يعاين روكي (البعرور) الموقع من بعيد ، يهمس في أذن (الأقرع) :

– اقترب منهم ولاتكفّ عن النظر إليهم فكأنّك تريد سرقة البندق الذى أمامهم .

ويقترب هذا خائفاً . ولكن لامفر من الصفعة الأولى ، فهو غير مستعد للتفريط بصداقته الحميمة مع (البعرور) بسبب صفعة عابرة . ويقف على مسافة مترين من المجموعة ويحدق فى أفرادها ، ثم تنطلق التهديدات :

– لاتنظر هكذا أيها الأبله . أم انك لم تجرّب الضرب من قبل ؟

ولكّن (الأقرع) يظل رابط الجاش لايرّف له جفن ولايتحّرك من موضعه وإن ارتعشت بعض الشيء قدماه : فقد كان يعرف أن دانييل (البوم) وروكى (البعرور) يكمنان خلف منصّة العازفين . ويعاود زعيم الخصوم الكلام :

– ألم تسمعنى أيها القذر ؟ انصرف وإلا شطرتك نصفين .

ولا يأبه جيرمان (الأقرع) لتهديده بل يركّز عينيه ، مثل مصباحين ، فى علبة البندق دون أن يبدى حركة ودون أن ينطق بكلمة ، وإن كان يخمّن فى داخله مكان الضربة ويفكر إن كانت كثافة العشب الذى يقف عليه كافية لتخفيف أثر الصدمة .

وينفذ صبر العدو الشقى :

– خذ أيها المتطفّل . . . ليكون لك درساً .

الغريب فى هذه المناسبات أن جيرمان (الأقرع) كان يحس بنجدة (البعرور) قبل إحساسه بحرارة الصفعة . كان يحس بنجدته وصوته القريب القوى الراعى :

– ضربت صديقى ، أليس كذلك ؟ – ثم يضيف وهو ينظر بتأثر إلى جيرمان – : هل قلت شيئاً يا أقرع ؟

– لم أفتح فمى . بل ضربنى لأنى كنت أنظر إليه وحسب .

وهكذا تتوفر لـلشجار عناصره ويكون (البـعرور) صاحب حق لأن الآخر ضرب صاحبه لمجرد أن هذا كان ينظر إليه ، أى من دون سبب كاف أو تبرير تجيزه قواعد الشرف الأساسية السائدة بين الصبيان .

ولما كان تفّوق روكى (البـعرور) فى هذا الميدان أمرا مـفروغاً منه ، فقد كان المشهد ينتهى دائما بجلوسهم فى « معسكر » الأعداء لأكل البندق الذى خلفّوه .

الفصل السابع

ما كان بين الثلاثة مجال للخلاف ، فالكل يعرف موقعه بين أقرانه : دانييل (البوم) يدرك أنه قادر على تجاوز (البعرور) رغم أنه يفوقه ذكاءً، وجيرمان (الأقرع) يُقر بأنه أدنى من الاثنين الآخرين مرتبة رغم أن خبرته في الطيور تفوق مالديهما منها سعة وتفصيلا . فالتفوق هنا ليس مرهوناً إذاً بالذكاء ولا بالقابليات ولا بالإرادة بل بالعضلات . وهو أمر معقول ومنطقي ومقبول . ولكن هذا لا يمنع أن يكون دانييل (البوم) الوحيد القادر على اللحاق بقطارات البضائع وهي تنوء بحملها صاعدة أو بقطارات البضائع والركاب شرط ألا تكون فرغت من حمولتها أو ركّبت لها مقطورات جديدة . وما كان (البعرور) و (الأقرع) يضارعانه في الجرى ، ولكن خفّة الرجلين ما كانت هي الأخرى الأساس في التفّوق ، أنها مجرد صفة جديرة بالتقدير ، لا غير .

كان الأصدقاء الثلاثة يتردّدون أيام الأحد والعطلة الصيفية ، على الحقول والتلال ، ويقصدون ملعب الصولجان والنهر . وكان لهوهم متنوعا وفيه شئ من البدائية والقسوة . وليس من العسير في مثل هذه السن العثور على اللهو في أي مكان . كانوا أحيانا يعملون بمصيداتهم تقتيلا في الزرازير والشحارير وطيور السمّان ، فقد كان جيرمان (الأقرع) يعرف أن الزرازير والشحارير والسمّان ، وهي من فصيلة واحدة ، تفضّل أن تعشّش بين شجيرات العوسج والعلّيق ساعات القيظ . وكان اصطيادها ، وهي بعد غافية على الأشجار أو في الطريق ، يستدعي الخروج باكراً ، لذلك كانوا يفضّلون البحث عنها وقت اشتداد الحر ، عندما تكون راقدة بين الأحراج ، فالرمية حينها تكون أقصر والهدف أثبت والصيد ، بالتالي ،

يكون أسلم وأضمن . ماكانت عند دانيل (البوم) أكلة ألذ من طبق الزرازير بالرز . وكان إن اصطاد أحدها تمتّع حتى بنتف ريشه ، إلى أن اكتشف يوما أن جميع الزرازير تقريباً تحمل قملاً تحت ريشها . وعندما أبلغ جيرمان (الأقرع) باكتشافه العجيب ، أصيب بخيبة أمل إذ ردّ عليه (الأقرع) قائلاً :

– أوّ لا تعرف ذلك ؟؟ كل الطيور تقريبا تحمل القمل تحت ريشها . ويقول أبي إن القرع جاءني من طائر الوقوق .

وقرر دانيل (البوم) ألاّ يحاول اكتشاف جديد في عالم الطيور ، فان هو أراد معرفة شيء عنها ، فعنده (الأقرع) ، فذلك أيسر وأسرع .

وكانوا أحيانا يذهبون إلى ملعب الصولجان ، وروكي (البعرور) هناك هو المتفوّق المطلق ، وما كان يجدي ان يهبهما عددا من النقاط قبل بداية اللعب ، لأنه عند النهاية يكون قد سجل أعلى النقاط ومن دون عناء بينما لم يضف أي منهما شيئاً على النقاط التي نالوها هبة ومنّة . كان (البعرور) يبدي في هذه اللعبة قوّة الرجال وثباتهم وبراعتهم . أما في مسابقات أعياد العذراء ، فلم يكن (البعرور) ، وهو ينافس جميع رجال البلدة تقريبا ، يرضى بأقلّ من المرتبة الرابعة .

وكان بلوغه المبكر هذا يغيظ سارة أخته :

– دابة . . . . لن تصبح إلاّ دابة كأبيك .

وينظر إليها ياكو الحداد بعينين مبتهلتين ليقول كمن يصلّي :

– اللهم آمين .

لكن الأصدقاء الثلاثة كانوا يجدون التسلية كاملة والمتعة كبيرة في النهر ، على الطرف الثاني المقابل لحانة كينو (الأقطع) ، حيث يمتد حقل فسيح تتوسطه بلّوطة عظيمة ويحدّه في نهايته سور حجري وعر يفصلهم

عن بقية الوادى . وفى مقابل السور « بركة الانكليزى » وبعد أمتار قليلة منها يبدأ النهر بالانسياب على عمق بسيط بين صخور وأحجار صغيرة . وهنا كان الثلاثة يصطادون السرطانات بأيديهم : يرفعون الأحجار بحذر ويمسكون بالحيوانات بقوة من طرف درعها العريض بينما تلوى هى فكوكها وتجاهد فى فتحها وغلقها فى محاولة أخيرة عقيمة للتملّص .

أما فى « بركة الانكليزى » فكانوا يصطادون الأسماك الصغيرة التى تندفع فى مجموعات ضخمة تجعل لون المياه داكناً . كان يكفى لاصطيادها بالعشرات أن يرمى فى الشبكة بأى طعم اصطناعى حاد اللون . ولكن وفرتها وسهولة اصطيادها جعلت الأولاد يستهينون بها وانتهى الأمر بهم أن عافوها . وحدث لهم مثل هذا مع الآس والزعرور الشوكى والتوت والبندق البرّى . ومما عمّق شعور الازدراء هذا فيهم أن دون مويسيس المعلّم كان يفضّل الطلاّب الذين ينفقون ساعات الفراغ البليدة فى جمع التوت والزعرور الشوكى لاهدائه إلى أمهاتهم أو فى صيد الأسماك الصغيرة ، كى ينالوا ، فوق هذا كله ، الشهادات التقديرية والدرجات العالية ومراتب الشرف فى نهاية السنة الدراسية . كان روكى (البعرور) ودانييل (البوم) وجيرمان (الأقرع) يشعرون تجاه هؤلاء بالازدراء ذاته الذى يشعرونه تجاه التوت والبندق البرى والأسماك الصغيرة . وفى ساعات القيظ الصيفية ، كان الأصدقاء الثلاثة يسبحون فى « بركة الانكليزى » ، فلا متعة لديهم تعادل متعة الإحساس بالماء وهو يلامس جلودهم فيبرّدها . كانوا يسبحون على شاكلة الكلاب فيشقّون الماء ويزيحونه من دون أن يحدثوا ، وهم مغمورون فيه ، أدنى ما يوحى بوجود حياة على امتداد مائة متر صعودا ونزولا .

وبينما كانوا مرة يفترشون حقل البلوطة يجففّون أجسادهم الصغيرة ، عرف دانييل (البـوم) وجيرمان (الأقرع) مـا يعنى أن يكون البطن يابسًا والمقصود بالاجهـاض . كان عمر دانييل حينها سبع سنوات ، أمـا جيرمان فكان فى الثـامنة . وكان روكى (البـعرور) عـاريا إلا من سروال مـرقوع ارتداه بالمقلوب . أمّا (البوم) و (الأقـرع) فكانا عاريين تماما إذ لم يكن الحياء قـد ولد فيهما بعـد ، وكان روكى (البعرور) هو من أيقظه فيـهما ذلك اليوم .

ويقرن دانييل (البوم) ذلك كلّه ، دون أن يعـرف له تفسيرا ، بحوار جرى له مع أمه قبل ذلك بأربع سنين عندما حمل إليها صورة بقرة هولندية عظيمة .

قالت هى :

– ما أجملها ، دانييل ، أليس ذلك ؟ . إنها بقرة حلوب .

نظر الطفل إليهـا مندهشا ، إذ لم يشاهد من قـبل لبناً إلا فى القدور والجرار :

– لا ، أماه ، إنها ليست حلوبا . انظرى ، إنها لا تحمل جرارا .

وضحكت الأم من سذاجته وأخذته فى حضنها وقالت :

– البقرة الحلوب لا تحمل جرارا ياولدى .

نظر إلى وجهها ليرى إن كانت تخدعه . رآها تضحك فخمّن أن شيئا خفيا يقف وراء ذلك كله . ما كـان يعرف وقتهـا ، بسنواته الثلاث ، أن « هذا » موجود ، ولكنه شعر فى تلك اللحظة بـوجوده . وأضاف متسائلا وقد تملكه حرص مفاجئ على معرفة كل شىء :

– فأين تحمل اللبن إذاً ، أماه ؟

وواصلت أمه الضحك ، وتلعثمت قليلا وهى ترّد عليه :

– فى البطن طبعاً . . .

ودوت حيرة الطفل فى ما يشبه الانفجار :

– ماذا ؟

فأضافت وهى تشير بظفرها الافطس إلى ضرع البقرة البنّى :

– البقرة الحلوب تحمل لبنها فى بطنها .

وتردد دانييل (البوم) برهة وهو ينظر إلى الضرع المنتفخ ؛ ثم أشار إلى الحلمة :

– واللبن يخرج من هذه النقطة ؟

– نعم ، ياصغيرى ، من هذه النقطة .

ولم يستطع دانييل تلك الليلة التفكير فى شىء آخر . كان يرى فى ذلك كلّه سراً خفيّا عليه ، غير خفّى على أمه . فهى تضحك على غير طريقتها عندما يسألها عن أمور أخرى . ثم بدأ ينسى الأمر تدريجيا . وبعد أشهر اشترى أبوه بقرة ، ثم رأى بقرات الصيدلى العشرين ، ،ورآها وهى تحلب ، وصار بعدها يضحك كثيرا لمجرد التفكير فى أنه تصوّر فى يوم من الأيام أن البقرات التى لا تحمل جرارا لا تعطى لبناً .

تذكّر دانييل صورة البقرة الهولندية ذلك العصر بينما هم فى حقل البلوطة جنب النهر وبينما كان (البحرور) مسترسلا فى الكلام .

كانوا قد خرجوا لتوهم من الماء ، وكانت سياط باردة من نسمات عليلة تجفّف أجسادهم ؛ مع ذلك ، فقد خيّمت على الجو حرارة شديدة دبقة . وشاهدوا ، وهم مستلقون على ظهورهم ، طائرا كبيرا محلّقا فوقهم . وصرخ (البوم) :

– انظروا . لاشك أنه اللقلق الذى تنتظره معلّمة « لاكويرا » فهو ذاهب فى هذا الاتجاه .

وقاطعه (الأقرع) :

– ليس هذا لقلقا بل كركى .

وجلس (البعرور) على العشب وهو يزمّ شفتيه متبرماً ساخطاً . وتأمّله (البوم) بإعجاب وهو يملأ صدره العظيم بالهواء ثم يفرغه منه .

قال (البعرور) :

– أى لقلق هذا الذى تنتظره المعلمة ؟ أما زلتم على هذا التفكير ؟

وعدّل (البوم) و (الأقرع) من وضعيهما وجلسا على العشب . كانا ينظران إلى (البعرور) بتطلع ويخمنان أنه سيقول شيئا عن « هذا » . ومهّد له (الأقرع) مستفهماً :

– من يأتى بالأطفال إذاً ؟

والتزم (البعرور) الجدّ وهو يعى تفوّقه فى تلك اللحظة .

– الولادة – قال بحزم ومن دون مقدّمات –

– الولادة ؟ – – تساءل الاثنان –

– نعم ، الولادة – قال مؤكّدا – . ألم تشاهدوا أرنبة تلد ؟

– بلى .

– وكذلك الإنسان .

وارتسمت على وجه (البوم) أمارات ذهول مضحكة :

– تقصد أننا أرانب ؟

كانت بلادة محاوريه تثير غضبه . قال :

– ليس كذلك ، بل هناك ، بدل الأرانب ، امرأة هى الأم .

ولمع فى عينى (الأقرع) بريق ذكاء غريب :

– فليس اللقلق إذاً من يأتى بالأطفال . لقد كان يبدو لى غريبا حتى

اننى كنت اقول لنفسى لماذا يزور القلق أمى عشر مرات وهى التى لا ترغب فى كثرة الأولاد ، بينما لا يزور جارتنا (الفطساء) ولا مرّة وهى التى تتمنّى أن يكون لها ولد ؟

وخفض (البعرور) صوته . كان يخيّم على المكان صمت لا يشوبه غير طرطشة بلورية تنبعث عن تيارات النهر وغير حفيف ناعم تحدثه ملامسة الهواء لأوراق الأشجار . كان (البوم) و (الأقرع) فاغرى الفم . قال (البعرور) :

– أتدرون ؟ الولادة مؤلمة .

وانفلت التردد المكبوت فى نفس (البوم) :

– من أين تعرف كل هذا ؟

– هذه أشياء يعرفها كل الناس الا انتما لانكما تعيشان غافلين . أمى ماتت من شدّة الآلام التى أحست بها وهى تلدنى . لم تمرض بل ماتت من شدّة الألم . يبدو أن الألم لا يطاق أحيانا فيؤدى إلى الموت ، من دون علّة ، فقط من شدة الألم .

– وأضاف وهو يشعر بالنشوة لانشداد مستمعيه إليه : – نسوة أخريات ينشطرن من النصف . سمعت ذلك من سارة .

وعلّق (الأقرع) :

– ثم بعد ذلك يمرضن ، أليس كذلك ؟

ويخفض (البعرور) صوته أكثر ليؤكد سرية مايقول :

– يمرضن عند رؤية الطفل . فالأطفال يولدون والشعر يغطى أجسامهم ، دون عينين أو أذنين أو أنف . يولدون وهم لايملكون غير فم كبير للرضاعة ، بعد ذلك تبدأ العيون والآذان والأنف بالظهور .

كان (البوم) يستمع إلى (البعرور) مختلجا متلهفا . كانت تتفتح أمام عينيه آفاق جديدة هى فى نهاية المطاف ، علّة الحياة والخليقة . وأحّس فجأة بالخجل وهو يرى نفسه عاريا فى الهواء الطلق . وأحّس فى الوقت ذاته بحب متجدّد متدفّق نحو أمه ، وشعر فى داخله وللمرة الأولى بعاطفة الدم ، وإن لم يدرك كنهها . فبينه وبين أمه رابطة ، شئ ما يجعل منها عنصراً حيوياً لا يمكنه الاستغناء عنه . والأمومة هكذا أجمل ، لأنها لا ترتبط بصدفة ولا بنزوة لقلق مزيفة . وشعر دانييل (البوم) أن أكثر ما أعجبه من كل ما صار يعرفه عن « هذا » هو إدراكه أنه ثمرة ألم عظيم ، وأن أمه ما كانت لتتجنّب ذلك الألم لأنها راغبة فى أن تلده هو بالذات .

ومنذ ذلك الحين صار ينظر إلى أمه بطريقة مختلفة ، ومن زاوية أبسط وأكثر إنسانية ، ولكنها أصدق وأكثر عاطفة . وصار يلفّه فى حضرتها إحساس غريب ، إحساس بالموازاة وبالحاجة المتبادلة . فكأن قلبيهما ينبضان فى وقت واحد ، معاً .

وما عاد يلهب للسباحة فى « بركة الانكليزى » إلا وهو يرتدى ، بالمقلوب (كالبعرور) ، سروالا قديما مرقوعا . ويفكّر فى بشاعة صورته ساعة ولادته وقد غطى جسمه الشعر دونما عينين ولا أذنين ولا منخرين . . . غير فم عظيم شره ، ويقول فى نفسه : « كنت مثل حيوان الخلد » . ثم لا يلبث اختلاجه الأولى أن ينقلب إلى ضحكة طويلة متشنجة .

الفصل الثامن

كانت (الفلفلة) الصغرى ، حسب قول روكى (البعرور) ، واحدة من ذوات البطون اليابسة فى البلدة . ومع صعوبة التحقق من ذلك ، فليس لقوله دلالة خاصة لأن كل ما فى (الفلفلات) يابس .

لقد عادت صغرى (الفلفلات) إلى البلدة فى قطار المحافظات بعد ثلاثة أشهر وأربعة أيام من هروبها . وكان حادث عودتها ، كحادث هروبها من قبل ، موضوع الوادى كله وإن مرّ بعد ذلك وطواه النسيان كغيره وحلّ محله حدث آخر أعقبه غيره غطّى عليه . وهكذا كان يسطّر تاريخ الوادى بسيطا موجزا . (الفلفلة) عادت بالطبع بمفردها ، أما ديماس ، موظف المصرف ، فلم يعادو الظهور رغم أن دون خوسيه القس لم يجد فيه امرء سوء . وسواء أكان ديماس طيبا أم سيئا فقد تبخر فى الهواء كالصدى بين الجبال . ومن دون أثر يذكر .

وكان كوكو ، مأمور المحطة ، هو من حمل الخبر إلى البلدة . فبعد « اذاعة » دون رامون الصيدلى ، كان مأمور المحطة يمثل وكالة الأنباء التى يفضلها أغلب سكان المنطقة فالأخبار التى يبثها غريبة دائما وطازجة رغم أنها ليست على الدوام بناءة . وكوكو هذا رجل ذو شخصية قوية طاغية . وكان دانييل (البوم) معجبا بطبعه ومعارفه والسهولة التى يصرّف بها دخول القطارات وخروجها وحركتها فى الوادى . فكل ذلك يستدعى مقدرة ، وما سماحة طبع المأمور وموهبة التنظيم عنده بالأمور المرتجلة أو الطارئة عليه . عندما نزلت ايرنيه ، صغرى (الفلفلات) ، من القطار كانت الدموع تملأ عينيها ، وبدت أشد نحولا وهزالا مما كانت عليه وقت هروبها قبل ذلك بثلاثة أشهر . وبدت وكأنها تسير مثقلة بحمل خفىّ

أحدودب له ظهرها . كان ، بلا شك ، من أثر تأنيب الضمير . أما ملبسها فكان مما ترتديه الأرامل ، الأرامل المفجوعات ، سواد في سواد ، مع منديل أسود صفيق يغطي وجهها .

كان المطر قد هطل طوال النهار ، ولم تكن (الفلفلة) ، وهي ترتقي العقبة في الطريق إلى البلدة ، تحرص على تجنب الحفر ، بل كانت تجد عزاء غريبا في غمس قدميها الصغيرتين المرة تلو المرة ، في البرك الموحلة المتناثرة على الطريق .

وبدت (الفلفلة) الكبرى منذهلة وهي ترى أختها تقف مترددة أمام باب الدكان . مرّرت يدها أمام عينيها وكأنها تحاول طرد شبح مخيف .

– نعم ، لولا ، أنا ايرنيه – همست الصغرى – لاتستغربي . لقد عدت ، عدت خاطئة نادمة . هل تسامحيني ؟

– بحق دهر الداهرين . تعالي هنا . . . ادخلي .

وتوارت الأختان في الحجرة الملحقة بالدكان ، وهناك تأملت كل واحد منهما الأخرى بصمت . أما الصغرى فظلت منكمشة مخذولة مطأطئة الرأس . أما الكبرى فبدت وكأنها سمنت مع رجوع الأخرى نادمة .

– هل تدركين – ، ايرنيه ، مافعلت ؟ – بادرتها القول .

– اسكتي ، أرجوك – تأوهت الأخت الصغرى وانخرطت على المائدة تبكي بمرارة .

واحترمت (الفلفلة) الكبرى بكاء أختها ، فالبكاء لازم لتطهير النفس . ولما استعادت ايرنيه هدوءها ، تبادلت النظرات مع أختها . ماكانت الأختان بحاجة للكلمات لتتفاهما ، فقد كان التفاهم ينبع مما لا يعبر عنه بكلام .

– ايرنيه ... هل ... ؟
– نعم .
– يا الهى .
– لقد خدعنى .
– خدعك أم خدعت نفسك ؟
– لا فرق ، أختاه .
– هل كان روجك عندما ... ؟
– لا ... ولا هو كذلك الآن .
– يا الهى وهل تنتظرين ... ؟
– لا . لقد قال لى ... قال لى ... – وقطع النحيب صوتها .
وساد الصمت من جديد . ثم سألت (الفلفلة) الكبرى :
– ماذا قال لك ؟
– قال إنه عقيم .
– النذل .
– وهكذا ترين أننى لن أحمل منه .
وهنا فقدت (الفلفلة) الكبرى آداب اللياقة ومعها زمام الأعصاب :
– فأنت إذاً تعرفين مافعلت ؟ لقد ضيّعت شرفنا . أهدرت شرفك وشرفى وشرف والدينا المرحومين .
– لا ، هذا لا ، لولا ، بحق السماء .
– ماذا تظنين إذاً ؟
– كفاك وهما أختاه ، نحن الدميمات لاشرف لنا .
وعلت وجهها ايماءة تسليم وهدّها يقين راسخ . ثم أضافت :
– هو قال لى ذلك .

– ولكن ألا تعلمين أن شرف المرأة أعز عليها من الحياة ؟
– أعلم ذلك ، لولا .
– إذاً ؟
– سأفعل ما تأمرين به أختاه .
– وهل أنت مستعدة ؟
خفضت (الفلفلة) الصغرى وقالت :
– نعم .
– تلبسين السواد بقية عمرك ، وتبقين حبيسة الدار خمس سنين . هذه هي شروطي .
– أقبل بها .
– اصعدي إلى البيت إذاً .
وأغلقت (الفلفلة) الكبرى الدكان بالمفتاح وصعدت وراء أختها . وفي الحجرة جلست ايرنيه على حافة السرير ، وجاءتها لولا بطست فيه ماء فاتر فغسلت لها قدميها . كانت الاثنتان في تلك الأثناء صامتتين . ولما انتهتا تنهدت (الفلفلة) الصغرى ثم قالت :
– ما أحقره !
ولم تعلق (الفلفلة) الكبرى بشيء . كان بؤس أختها يضفي عليها وقارا صارما .
وواصلت هذه الكلام :
– كان طامعا في مالي . كان ، ابن الحرام ، يظن أن لدينا مالا كثيرا

– ولماذا لم تقولي له منذ البداية إننا لا نملك غير ألف دورو ؟
– كان ذلك سيعني ضياعي ، أختاه . كان سيهجرني وأنا أحبه .

– ما أضاعك هو سكوتك يامجنونة .

– لقد صرف كل مامعى .

– ماذا ؟

– عاشرنى مادامت النقود معى ، ولما انتهت تركنى مرميّة تائهة . إنه نذل ، يا أختاه وفاسد وقاس .

واكتست وجنتا (الفلفلة) الكبرى الهزيلتان بمزيد من الحمرة وقالت:

– إنه لص . هذا هو وصفه . إنه مثل ديماس الآخر .

وسكتت بعد أن هدأت سورة غضبها ، ولكن الوساوس لم تلبث أن بدأت تنخر فى ضميرها . فما الذى تفوهت به عن اللص الطيب ديماس ؟ ألم يرض الرب عن هذا الصنف من التائبين ؟ وأحست بوخز شديد فى ضميرها « غفرانك اللهم وعفوك » وقررت أن تذهب من غدها إلى دون خوسيه للاعتراف ، فهو القادر على مواساتها والصفح عنها . وكان ذلك هو كل ماتحتاجه آنذاك : قليلا من المواساة . ومررّت من جديد يدها من أمام عينيها محاولة طرد الكابوس . وخطت بقوة وقالت :

– حسنا أختاه : غيّرى ملابسك . أنا نازلة إلى الدكان . وعندما تنتهين من تغيير ملابسك يمكنك الخروج إلى الشرفة لسقى الجيرانيو كما كنت تفعلين من قبل . وغداً ستذهبين لزيارة دون خوسيه ، فعليك أن تعجلى بتطهير روحك الشقية .

وقاطعتها (الفلفلة) الصغرى :

– لولا .

– ماذا ؟

– أشعر بخجل شديد .

– وهل بقيت لديك فضلة منه ؟

– من ماذا ؟

– من الخجل .

وأيدت ايرنيه ايماءة يأس :

– لا استطيع أخناه .

– لو أنك خجلت عندما هربت مع رجل غريب لما فعلت مافعلت .

– لا أستطيع . . . لأن دون خوسيه . . . قديس . لولا ، افهمي ذلك . إنه لايقدّر ضعفي .

– دون خوسيه يقدّر كل الضعف في البشر ، فالرب موجود فيه . ثم أن التوبة الخالصة هي إحدى شروطي أتفهمين ؟

وسمع صوت قطعة نقود تضرب بزجاج الدكان ، فقالت (الفلفلة) الكبرى وقد نفد صبرها :

– هيا ، عليك أن تقرري ، فهناك من ينادي في الأسفل .

وأجابت ايرنيه في نهاية الأمر موافقة :

– حسنا ، لولا ، سأذهب غدا للاعتراف .

ونزلت (الفلفلة) الكبرى إلى الدكان وفتحت الباب فدخلت كاتاليا (الأرنبة) . كانت هذه ، شأن أخواتها ، مقلوبة الشفة العليا ، وكان أنفها الصغير ينكمش وينبسط فكأنه لا يكف عن الشم . ومن هنا دعين بـ (الأرنبات) ؛ وكذلك لقبن بـ (الكاكات) لأن أسماءهن هي كاتاليا وكارمن وكاميلا وكاريداد وكاسيلدا ولأن اباهن كان لجلاجا يتلعثم بالكاف وهو يناديهن .

واقتربت كاتاليا من طاولة البيع :

– أريد ملحا ببيزته .

وبينما كانت (الفلفلة) الكبرى تلبّي طلبها ، رفعت وجهها الأرنبي

صوب السقف وارتعشت ارنبتا أنفها لثوان :

– لولا ، هل عندك غرباء ؟

وانغلقت (الفلفلة) باحكام على نفسها ، فالأرنبات يدرن بدالة البلدة والأخبار تصل اليهن بالسرعة نفسها تقريبا التى تصل إلى كوكو مأمور المحطة .

– لا . لماذا ؟ – ردّت بحذر –

– كأننى سمعت صوتا فى الأعلى .

– قد يكون القط .

– كلا ، كلا ؛ إنه وقع خطوات .

– القط أيضا له خطوات .

– افهمينى ، لولا ، أنها خطوات آدمى ، ولا أظنه لصاً .

– خذى الملح – قالت (الفلفلة) الكبرى مقاطعة .

وتطلعت (الأرنبة) من جديد إلى السقف وتشممت حولها مرارا وتكرارا ، وعندما وصلت إلى الباب التفتت لتقول :

– لولا ، مازلت أسمع وقع الخطوات فوق .

– حسنا ، اذهبى أنت فى أمان الله .

ولم يحدث أن تردد عدد من الناس على دكان (الفلفلات) كما حدث ذلك المساء . كما لم يحدث أن خرج من ذلك العدد الضخم من الزبائن مبلغ على ذلك القدر من الضآلة .

كانت ريتا (البلهاء) ، امرأة الإسكافى ثانية الزائرات :

– اعطينى برياليين من الملح .

– ألم تشترى ملحا أمس ؟

– بلى ولكنى أريد المزيد .

وبعد توقف خفضت (البلهاء) صوتها .

– النور مضـاء فى الطابق العلوى ، ولا بد أن عدّاد الكهـرباء يجرى بسرعة .

– وهل ستدفعينه عنى ؟ .

– كلا بالطبع .

– دعيه يجرى إذاً .

وتقاطرت من بعد باسى ، خادمة الصيدلى ، ونيوكا ، امرأة الجانو ، وماريا (القطساء) ، وكانت هى الأخرى يابسة البطن ، وسارة (البعرورة) و (الأرنبات) الأربـع الباقيات وخـوانـا ، القيمة على منزل دون انطونيو (الماركيز) وروفينا ، زوجة بانجو ، التى ما عادت منذ أن تزوجت ، تؤمن بالرب ولا بالقديسين ، وعشرون امرأة سواهن . جئن جميعهن ، باستثناء (الأرنبات) الأربع لشراء الملح ، وسـمعن كلهّن وقع خطوات فى الطابق العلوى وقلقن كـافتّـهن وهّن يرين النور مـضاء وعـــداد الكهربـاء يسـرع الجريان .

وفى السـاعـة العاشرة ، عندمـا كان الهدوء يخـيم على البلدة ، علا صوت پاكو الحداد القوى الصارم كان يسير مترنحا فى الشارع فتوقف أمام شرفة (الفلفلات) . كان يحمل فى يمناه زجـاجة ويهرش باليسرى قفاه . ولو لم تكن البلدة كلها قد علمت بالخبر لما كـان لعباراته التى تفوه بها من معنى ولا كان بينها من ترابط .

– عـاشت الأخت الضالة ، عـاشت صاحـبـة الفخـذين الناشفـتين والصدر المتخشب . . .

وقام بحركة هزلـية متصنعا الذهول وعاود هرش قفـاه وتجشأ ثم نظر من جديد إلى الشرفة وقال :

- من خطف قلبك ؟ ديماس ؟ اللص الطيب ؟

كان يضحك وقد التصقت ذقنه الجبارة بصدره العريض . أما (الفلفلات) فقد أطفأن النور ورحن يرقبن مثير الفضائح من إحدى فتحات النوافذ . « ومن عساه يكون غير هذا السافل الساقط » دمدمت (الفلفلة) عندما لمحت ضياء مصباح الشارع الخافت منعكسا على شعر الحداد الأحمر الكث . وأصيبت (الفلفلة) الصغرى بما يشبه النوبة العصيبة عندما نطق الحداد باسم ديماس . اطردى هذا الرجل من هنا . أتوسل إليك أختاه . اطرديه ، فصوته يفقدنى صوابى . وحملت (الفلفلة) الكبرى السطل الذى ينتهى إليه ماء المغسلة وفتحت الشباك قليلا لتسكب ما فى السطل على وجه پاكو الحداد الذى كان فى تلك اللحظة يبدأ هتافه من جديد :

- عاشت الأخ . . .

وقطعت رشقة الماء عليه العبارة فنظر إلى السماء ببلاهة وبسط ذراعيه العظيمتين ، اللتين شكلتا مع بدنه صليبا ، وقال مخاطبا نفسه وهو يتقدّم مترنحا صوب الطريق العام :

- عد إلى بيتك ياپاكو ، فالسماء تمطر من جديد .

الفصل التاسع

لقد أدرك دانييل (البوم) أن ليس من السهل عليه أن ينام ، فرأسه الجامح فى انفعال محموم نحو الذكريات كان يغلى باحتدام لا يعرف لحظة من الهدوء . المشكلة هى أن عليه أن يبكر فى غده ليأخذ القطار السريع الذى سيحمله إلى المدينة . ولكنه غير قادر على تجنب التفكير . لم يكن هو من يستحضر الأشياء والوادى بل كانت الأشياء والوادى هى التى تفرض نفسها عليه وتلفه بلغط الحياة فيها وبسعيها الدؤوب وبتفاصيل يومه الكثيرة التافهة .

من خلال النافذة المفتوحة المواجهة لسريرة الشكّاء كان يشاهد قمة جبل « راندو» مغروسة فى جوف السماء المليئة بالنجوم . وكان الليل يضفى على الجبل لونا مظلما كالحا . فذلك الليل ، كعهده منذ احدى عشرة سنة ، يتحكم فى الوادى كما يتّحكم روكى (البعرور) فى صاحبيه (البوم) و (الأقرع) . كانت حكاية الوادى القصيرة تمر فى مخيلته فتراها عينا روحه ، بينما تؤجج صافرات القطارات القاصية وخوار الأبقار الحالم ونقيق الضفادع الكئيب المنطلق من تحت الأحجار وروائح الأرض الندية حنينه وتضفى على ذكرياته لمسة من واقعه المحسوس .

مع ذلك فهذه الليلة لا تختلف عن كثيرات غيرها مررن على الوادى. إنها ، دون إمعان فى التذكر ، كتلك الليلة التى تسلقوا فيها سياج مزرعة (الامريكى) ليسرقوا التفاح .

ما كان التفاح فى الواقع يعنى شيئاً بالنسبة لـ (الأمريكى) الذى يمتلك فى المكسيك مطعمين فاخرين ومعرضا لاجهزة الراديو وثلاث بواخر ملاحية . كما لم تكن تفاحات (الامريكى) تعنى الكثير بالنسبة إليهم

وهم الذين يجدون فى حدائق بيوتهم من التفاح ما يعدل تفاح تلك المزرعة جودة . أمّـا لماذا يسرقـون التفـاح فتلك مسـألة بالغة التـعقـيد . ربمـا ، وببسـاطة ، لأن أياً منهم لم يكن تجاوز حينهـا التاسعة من العـمر ، ولأن الاحساس بالممنوع كـان يطبع أفعالهم الصبيانية بمتعة لا يمكـن وصـفها . انهم يسرقون (الامريكى) تفاحـاته للسبب ذاته الذى يجعلهم يتحدثون ، وهم فى الجبـال أو فى حقل البلـوطة بعد السباحة ، ويضـربون أخمـاسا لأسداس حول « هذا» الذى هو فى الواقع علّة الحياة وسرّها .

لم يكن خيراردو ، قبل أن يهاجر من البلدة ، يدعى بـ (الأمريكى) كان ، وحسب ، الابن الأصغر للسيدة ميكائيلا القصّابة ، والأشد خجلا بين أولادها على حدّ قولها . وإذا كانت أمـه تؤكد أنه « الأشد خجلا بين أخوته » فان أهل البلدة يجزمون أنه كان ، قبل رحيله ، نصف أبله وإنه لو قصد المكسيك حقا فلن ينفع إلا أجيراً أو حمالاً فى الميناء .

ولكن خيـراردو ذهب وعاد ، بعد عـشرين عامـا ، ثريا . لم يكتب لأحد طوال ذلك الوقت ، وعندما عـاد إلى الوادى كان الدود قد أتى على دفتى والدته القصابة وكبدها وكليتيها .

ويكى خيراردو ، الذى صار يدعى بـ (الأمريكى) . برهة فى المقبرة المجاورة لـلكنيسـة دون أن يتدلى المخـاط من منخريه كـما كـان حـاله فى الصغر ، ودون أن يسيل رواله كشأنه آنذاك .

بكى بصمت دون أن يذرف دمعة واحدة ، وكـما يبكى المتحضرون ، على حد تعبير القيّـمة على بيت دون انطونينو (الماركيز) . ومعنى هذا أن خيراردو تغيرّ كثيرا . أمـا أخوته فقد بقوا فى مكانهم لا يبرحونه رغم أنهم كانوا ، فى نظر أمهم ، أكـثر ذكاء منه . لقد حل الأخ الكبيـر - قيصر - فى دكان والدته ليبيع الأكبـاد ولحم الدفتين والكلى إلى أهل البلدة وليموت

To: www.al-mostafa.com

بعد سنوات كما ماتت السيدة ميكائيلا وليهب ، كما فعلت هى ، كبده ولحم دفتيه وكليتيه إلى دود الأرض . فما أعجبه من سلوك متناقض غريب ! أما الآخر ، داميان ، فكان يمتلك أرضا زراعية على الجانب الآخر من النهر . ما كانت تساوى شيئا بل كانت مساحات من المروج وحقول الذرة الذاوية يقتات منها أربعة كوارتوس . يكسبها من درينة الدجاج التى يملكها فى حظيرة داره .

عندما زار خيراردو (الامريكى) البلدة أول مرة . أحضر معه امرأة لا تحسن الكلام وابنة لا تتجاوز العاشرة وسيارة لا تصدر ضجيجا . كانوا جميعا ، والسيارة معهم ، فى أبهى حلّة . وعندما قال خيراردو إنه ترك فى المكسيك مطعمين فاخرين وباخرتين ملاحيتين ، تملق قيصر وداميان لشقيقهما كثيرا وأبديا رغبة فى العودة معه ليصّرفا له شؤون مطعميه وباخرتيه ولكنه لم يوافقهما على ذلك بل أقام لهما محلا للأجهزة الكهربائية فى المدينة . وهكذا رحل هذان عن الوادى وتنكرا له ولأسلافهم وصارا لا يزوران البلدة إلا من حين لآخر . فى أعياد العذراء عادة وهما يرتديان القبّعات المكوّية والياقات المنشأة وليجزلا فى العطاء لمن يخدمهما ولينظما مباريات الأكياس والأشرطة وليضعا على طرف عصا الكوكانيا جائزة الدوروات الخمسة .

سأل الأصدقاء خيراردو مّرة عن سبب زواجه من شقراء لاتحسن من الكلام إلا قليله وهو من هو شأنا ومكانه فابتسم (الامريكى) وردّ عليهم من دون انفعال قائلا لهم أن للشقراوات فى أمريكا قيمة عالية ، وأما عن لسانها فانها تتكلم ولكن بالانكليزية لأنها يانكى . ومنذ ذلك الوقت صار اندريس ، الرجل الذى لايرى من جانبيه ، يطلق اسم (يانكى) على كلبه لأنه ، كما يقول يتكّلم كما تتكلّم امرأة خيراردو (الامريكى) .

على أن (الامريكى) لم يتنكر لبلدته ، والناس عندما يصيرون أغنياء يتعلّقون بالمكان الذى كانوا فيه من قبل فقراء ، وهذه هى أفضل طريقة للبرهنة على الانقلاب الذى طرأ على حالهم وأوضح سبيل للشعور بالسعادة وهم يرون الآخرين ، وكانوا مثلهم فقراء ، وقد ظلوا على فقرهم رغم مرور الزمان . لقد اشترى بيت أحد المصطافين ، أمام الصيدلية ، وحوّره وملأ حدائقه بالنباتات الجميلة وبالأشجار المثمرة وصار يأتى من وقت لآخر لقضاء بعض الوقت فى البلدة . وقد اعترف مؤخرا أمام أصدقائه القدامى أن أحواله فى المكسيك تسير على ما يرام وأنه يملك هناك مطعمين فاخرين توكيلاً لأجهزة الراديو وثلاث بواخر ملاحية أى بزيادة واحدة عن المرة الأولى التى زار فيها البلدة . ولكن مالم يرتفع عدده هم أولاده ، فما كان عنده غير ميكا التى كانوا يدعونها هكذا ، رغم أن اسمها كاسم جدتها هو ميكائيلا ، لأن الأغنياء فى المدن ، حسبما تقول القيّمة على بيت دون انطونينو (الماركيز) ، لا يرغبون فى إضاعة وقتهم فى مناداة الاشخاص بأسمائهم كاملة . ثم أن نحافة الـ (يانكى) ، وهى التى ما كانت تهبط على الوادى إلا لماما ، ما كانت تسمح بإلحاب المزيد من هؤلاء الأولاد . ولو أن الأمر تعلّق بقيصر وداميان لفضّلا لو أن ميكا هى الأخرى لم تولد وان حملوا لها عند قدومها من أمريكا ، باقات الزهور وعلب الحلوى وحملوها إلى أفضل مسارح المدينة وأرقى مطاعمها .هذا،على الأقل ، ماكانت تقوله القيّمة على بيت (الماركيز) .

لقد أحبت ميكا بلدة أبيها ، ولطالما صرحت بأن المكسيك لا تعجبها، أما اندريس الإسكافى فكان يقول إنه عندما يمتلك المرء مطعمين فخمين وتوكيلاً لأجهزة الراديو وثلاث بواخر ملاحية فى بلد ما فليس من الصعب التحقق من إعجابه بذلك البلد أو نفوره منه . وما كان لميكا أى من تلك

الأشياء فـى الوادى ، مع ذلك فقد كانت تبـدو سعيدة فـيه ، تزور البلدة كلما سنحت الفـرصة وتقيم فـيها حـتى يأمرها أبوها بالعودة ، حـتى أنها أقامت مـؤخرا ، وقـد صارت آنسـة ، مدة طويلة فى البلدة بينمـا والداها يقيمان فى المكسيك ، وعمّاها اللذان يدعيان فى البلدة بـ (خيال الأمريكى) يرعيان شؤونها ويزورانها بين الحين والحين .

لقد ولد دانيـيل (البوم) وقت أن ارتفع عدد البـواخر من اثنتين إلى ثلاث، أى عندما كان (الامـريكى) يدّخر لشراء الثالثة . كان عـمر ميكا تجاوز آنذاك التاسعة وكانت قد عرفت البلدة لتوها .

ولكن عندمـا خطرت لروكى (البـعرور) فكرة سـرقة التـفاح كـان خيراردو يمتلك البواخر الثلاث وكان عمر ميكا سبعة عشر عاما . وكان فى مقدور (البـوم) آنذاك أن يستنتج أن (الأمريكى) تقدّم كـثيرا رغم أنه لم ينفق أربعة عشر عاما فى الدراسـة ورغم أن أمه القصّابة كـانت تصفه بأنـه « الأشد خجلا من الآخرين » ورغم أنه كان يمضى اليوم متجوّلا فى البلدة وقد تدلّى المخـاط من أنفه وسـال الروال على حنكه . وسواء أكـان الأمر حقيقة أم لم يكن فهو مـا يقال فى البلدة وليس هناك ما يدعو للظن بوجود اتفاق ليقصّ عليه الجميع كلاما ملفّقا .

عندما تسلقوا سياج مزرعـة (الأمريكى) أحّس دانييل (البوم) بقلبه يدق فى حنجرته . الواقع أنه ما كان راغبا فى تفاح بل فى إتيان شئ محرم . كان روكى (البـعرور) أول من هبط على الجانب الآخر من السـياج ، نزل بهدوء القطط ورشقـاتها فكأن نوابض شدّت إلى ركبتيـه وردفيه . ثم لوّح من مكمنه خلف الشجرة لرفيقيه كى يعجّلا بالنزول . ولكن ما عجّل فى دانييل كان قلبـه الذى راح ينّط مثل مجنون منفلت . كان يشـعر بخدر فى أطرافه ويحسّ برهبة غامضة تبدد جرأته .

قفز جيرمان (الأقرع) ثانيا ثم دانييل (البوم) آخرهم . كان (البوم) مطمئنا بعض الشئ بعد أن انتقلت إليه فى الأسابيع الأخيرة عدوى وساوس (الفلفلة) الكبرى . لقد سأل دون خوسيه صباح ذلك اليوم :

– سيدى القس ، أمن الخطيئة سرقة تفاح رجل غنى ؟

فكّر دون خوسيه ، وهو القديس العظيم ، قليلا قبل أن يسمّر فيه عينيه النافذتين مثل طرفى دبّوس :

– فى ذلك نظر ياولدى . فإذا كان غنيا جدا وكان السارق مضطرا للسرقة كيلا يموت جوعا فإن الرب يقّدر هذا فيرحم ويغفر له .

واطمأن (البوم) فى سريرته فخيراردو (الأمريكى) رجل غنى جدا . أما من ناحيته هو ، أفلا يمكن أن يصاب بما أصيب به بيبه (ذو الرأس الكبير) الذى صار كسيحا بسبب نقص الفيتامينات حتى أن دون ريكاردو الطبيب نصحه أن يكثر من أكل التفاح والبرتقال إن هو أراد الشفاء من مرضه ؟ ومن ذا الذى يضمن له أنه إن لم يأكل من تفاح (الأمريكى) فلن يصاب بمثل ما أصيب به (ذو الرأس الكبير) ؟

أحّس دانييل (البوم) بطمأنينة أكثر وهو يفكر فى ذلك ، وخفّفت عنه كذلك معرفته بأن (الأمريكى) وزوجته موجودان فى المكسيك ، وأن ميكا و (خيال الامريكى) موجودون فى المدينة وأن باسكوالون عامل الطاحونة والمسؤول عن البستان ، موجود فى حانة الجانو يلعب الموس . فإذا لم يكن ثمة ما يخشاه فلماذا يدق قلبه إذاً بتلك الصورة المضطربة ؟ ولماذا يحّس بفراغ هائل فى معدته ؟ ولماذا تنثنى رجلاه عند الركبتين ؟ . ثم : ليس هناك من كلاب ، ذلك الأسلوب الوقائى الذى لا يروق لـ (الأمريكى) ، ولا من نوابض صائدة ولا شراك مدفونة فعلام الخوف ؟

وراح الثلاثة يتقدّمون بحذر ويتحركون بين أنياء الحديقة الواسعة تحت سماء سامقة مزدانة بنجوم دقيقة ، ويتخاطبون بهمس خفيف بينما العشب يهمس بنعومة تحت أقدامهم ، كان يخيّم على المكان جو من الأصوات الخافتة والهمسات الغامضة تشدّ أعصاب دانييل (البوم) وتوترها .

– وإذا أحّس بنا الصيدلى ؟ – تمتم دانييل فجأة . لكن همسة زاجرة آمرة من روكى (البعرور) أسكتته . إنهم يتقدمون فى المزرعة ، فلا تخاطب بينهم بغير الاشارات . كانت ايماءات روكى العصبية ، وهو يراهم يتأخرون فى فهم إشاراته ، تكتسب فى الظلمة قوة وتأثيرا كبيرين .

ولما بلغوا شجرة التفاح المقصودة ، وكانت ترتفع لعدة أقدام خلف البناء ، قال لهم (البعرور) :

– ابقوا هنا وأنا سأهزها .

وتسلّق الشجرة ، وتسارعت دقات قلب (البوم) عندما بدأ (البعرور) يهزّ أغصانها بكل قوته وعندما بدأت التفاحات الناضجة تسقط على العشب وتنقر الأرض نقر البرد . ماكان هو وجيرمان (الأقرع) قادرين على جمع كل الثمار الساقطة ، بل كان (البوم) يفتح فمه مع كل انحناءة لشعوره بأن الهواء يعوزه وبأنه موشك على الاختناق . وفجأة توقف (البعرور) عن هز الشجرة :

– انظرا . . . السيارة قادمة ! – قال وهو بعد فى أعلى الشجرة بصوت منقبض غريب .

ونظر (البوم) و (الأقرع) ناحية البيت المظل . كان جناح سيارة (الأمريكى) السوداء ، وهى أقل ضجيجا من تلك التى جاء بها أول مرة إلى البلدة ، يتلألأ من خلف ركن البناية . كانت شفتا جيرمان (الأقرع) ترتجفان وهو ينادى :

– انزل . . . بسرعة . . . إنها هى .

كان دانييل (البوم) وجيرمان (الاقرع) يتحركان وقد ثنيا جسميهما من الوسط ليتمكنا من حمل كومة التفاح . وخشى (البوم) أن يفاجئه أحد وهو على هذه الهيأة فأيد بحرارة قول (الأقرع) :

– هيّا ، بعرور ، انزل . فلدينا منه الكثير .

لقد أفقدهم الخوف اتزانهم فبدا صوت دانييل مضطربا ونبراته عالية . ولما حاول (البعرور) الإسراع فى النزول داس على غصن فدوّى صوت انكساره فى ذلك الجو الخالى إلا من الحفيف والهمس مثل صيار نارى . كان اضطرابهم فى ازدياد :

– انتبه (بعرور) .

– سأخرج .

– اللعنة !

– جبان من يجتار السياج أولا !

ليس من اليسير تحديد المكان الذى خرج منه الشبح ، ولكن دانييل (البوم) صار من يومها يؤمن بالسحر والعفاريت والأشباح . إنها ميكا تقف أمامهم طويلة ممشوقة القوام وقد ارتدت بدلة بيضاء . كانت صورتها تكتسب فى الظلمة الدامسة حضورا علويا كحال جبل (راندو) .

– فأنتم إذاً من يسرق التفاح ؟ .

وترك دانييل (البوم) وجيرمان (الأقرع) التفاحات تسقط واحدة فواحدة . كان الذعر يقطع أنفاسهم . أما ميكا فكانت تتكلّم على سجيتها دونما اضطراب فى نبرة صوتها :

– هل يعجبكم التفاح ؟

وتلجلج دانييل (البوم) المفزوع للحظة :

– نـ . . . نعم . . .

وأطلقت ميكا ضحكة بدت انعكاسا لشعور خفي بالانبساط . ثم قالت :

– ليأخذ كل واحد تفاحتين ويتبعني .

وامتثلوا لأمرها . واتجه الأربعة صوب الرواق . ولما وصلوا هناك أنارت ميكا المكان بعد أن حرّكت عتلة مخفية وراء أحد الأعمدة . كان من حسن حظ (البوم) أن حال العمود بين النور وبين وجهه المكروب . وعاودت ميكا إطلاق ضحكتها الغريبة ، وخامر (البوم) خوف من أن تقدم الفتاة على تسليمهم إلى الحرس المدني .

لم يكن (البوم) شاهد ابنة (الأمريكي) عن قرب من قبل . لقد أنساه وجهها وقوامها لبرهة موقفه المحرج وذكّرته نعومة صوتها وموسيقاه بطائر الحسون . كانت بشرتها رقيقة محمّصة وعيناها غامقتين مظلّلتين برموش كالحة السواد . أما ذراعاها الطويلتان المطاطيتان وساقاها الطويلتان الرشيقتان فلها حمرة صدر ذكر الحجل . وكانت خفّة حركتها وهي تنتقل من مكان إلى آخر توحي بقدرتها على الطيران والانطلاق إلى الفضاء مثل فقاعة من الصابون .

– حسنا . فأنتم الثلاثة إذا لصوص صغار – قالت فجأة .

وأقر دانييل (البوم) في دخيلته أن في مقدوره إمضاء كل وقته وهو يسمعها تقول في حقّه إنه لص صغير دون أن يمل من ذلك أو يتعب . فوصفها له بـ « اللص الصغير » تعدل مداعبتها لخدوده بيديها ، يداها الصغيرتان الناعمتان الرقيقتان .

واستندت ميكا على أريكة فتحدّدت معالم جسمها . قالت :

– لن أعاقبكم هذه المرة – سأترككم شرط أن تعدوني أنكم إن أردتم التفاح ثانية فعليكم أن تطلبوه مني لا أن تتسلقوا السياج كاللصوص .

ونظرت إليهم الواحد بعد الآخر وهم يهزّون رؤوسهم موافقين .

– يمكنكم الذهاب الآن .

وخرج الأصدقاء الثلاثة من الباب الكبير في هدوء . ساروا دون أن يتبادلوا الكلام . كان الصمت ثقيلا مطبقا يفرضه عليهم إدراكهم أنهم ما كانوا أحرارا طلقاء إلا لعفو الآخرين وكرمهم وليس لمهارتهم هم وحسن تخلّصهم . وفي هذا ما يبعث على الخيبة وخصوصا لدى الأطفال .

نظر روكي (البعرور) عرضا إلى (البوم) الذي كان يسير بفم فاغر وعينين شاردتين . فجذبه من ذراعه قائلا :

– ما بك يا (بوم) ؟ أراك كالمشدوه .

ولم ينتظر الرّد بل رمى بتفاحتيه على جسمين داكنين كانا يرعيان بأمان في مزرعة الصيدلي .

الفصل العاشر

كانت صداقة (البعرور) تلزم دانييل (البوم) أحيانا بمضاعفة جرأته ووضع شجاعته موضع اختبار ، ذلك أن (البعرور) كان يرى أن شجاعة المرء قد تتغير بين ليلة وضحاها كالمطر أو كالريح فهو شجاع اليوم مسلوب الإرادة غدا وبالعكس ، أما تقرير ذلك فيعتمد على قبوله مجاراة (البعرور) في مآثره اليومية أو رفضه لذلك .

- جبان من لايفعل هذا - كان يستفزهم المرة تلو الأخرى ، ليجد دانييل (البوم) وجيرمان (الأقرع) نفسيهما مجبرين على اجتياز الجسر مشيا على حافته ذات السنتيمترات الخمسة عشر ، أو الانجراف مع تيار النهر والغوص ومن ثم معاودة الظهور ، مدفوعين بتيار الأعماق ، في « بركة الإنكليزي » أو ملاقاة القطار وهو داخل النفق . ولطالما أفاق دانييل من نومه مذعورا لاهثا وهويمسك متشنجا بمرتبة سريره إذ لم يفلح في مجاراة (البعرور) في مآثره . انه لايغرق في النهر كما رأى في منامه ولايتدلّى من حافة الجسر ويرتطم بالصخور بعد سقوطه ولاينجرف تحت حدائد القطار المزمجرة . إنه بخير ويرقد مرتاحا في سريره الحديدي ولاشيء يدعو البتة إلى الخوف .

ومن هنا كانت أيام المطر تعني هدوءا غير مألوف .

وأيام المطر في الوادي كثيرة رغم ما يقال من أن كل شيء قد تغير في السنوات الأخيرة حتى لقد عزّ الكلأ بسبب شحّة المياه ، وهو ما لم يحدث من قبل اطلاقا . ان دانييل يجهل مقدار ما كان يسقط من مطر في الوادي ، ولكنه يستطيع الجزم أنه الآن يسقط بغزارة ، ثلاثة أيام من كل خمسة وهو مقدار لايستهان به .

ومع سقوط المطر تتغيّر معالم الوادى ، فالجبال تكتسى لونا داكنا مكفهرا لايخفّف من حدّته إلا الضباب والحقول تتفجّر فى صخب أخضر متلألئ يوشك أن يكون أليما . أما لهاث القطارات فيسمع من مسافات أبعد ، وتتقاذف الجبال صفيرها حتى يختفى بعد أن يتحوّل إلى أصداء قاصية ثم إلى رنين خافت يكاد لايسمع . وقد تعلق الغيوم بالجبال فتبدو قممها مثل جزر معزولة فى لجة محيط رمادى مضطرب الموج . وما كانت عواصف الصيف تفلح فى التخلص من طوق الجبال ، فكانت تواصل الهبوب أحيانا لثلاثة أيام دونما انقطاع . على أن البلدة كانت مستعدة لمواجهة هذه الحالات الطارئة : فمع أولى القطرات تخرج الأحذية الخشبية فيضج الوادى على مدار الساعة بطقطقاتها الرتيبة الموزونة . ويرى دانييل (البوم) أن الوادى لايكتسب هيأته المناسبة إلا فى مثل تلك الأيام الممطرة أو فى أيام الميلاد حين ينهال الثلج بغزارة ، فما يناسبه هو المطر والرطوبة والحزن والكآبة ، حتى أن الكسل والخمول اللذين يميزانه يتلاشيان مع الشمس الساطعة ومع الآفاق الزرق الرحبة .

كان لأيام المطر عند الأصدقاء الثلاثة سحر خاص وفتنة لازمة . فهى عندهم مناسبات للتخطيط والتأمل والتذكر ، وهم أثناءها لايبدعون بل يجترون ، ولاينشطون كان الحديث الهامس فى متبن بيت (البوم) يمثل عنده مناسبة لاستحضار أيام الشتاء اللذيذة حين كان أبوه يجلسه أمام الموقد ليقص عليه حكاية النبى دانييل أو عندما كانت أمه تضحك لقوله بأن على البقرة الحلوب أن تحمل جراراً .

كان الثلاثة يفترشون التبن ويراقبون الطريق العام والسكة الحديدية من الكوّة الأمامية ويخططون لمشاريعهم .

وحدث فى واحد من تلك الأيام أن تكونت لدى (البوم) ، وهم فى متبن بيته ، فكرة واضحة عن قوة روكى (البعرور) وعن مقدار المرارة التى

يحسّها المرء عندما لايحمل ندبة في جسمه . حدث ذلك عصر يوم صائف ، بينما كان المطر يدق على سقف معمل الجبن القرميدي ، وبينما كان الوادي يقبع تحت وطأة سماء ثقيلة رمادية رتيبة .

ما كان (البعرور) يكتفي بمجرد النظر إلى عضلاته المفتولة :

– انظر . تحسّس ! تحسّس !

ثم ثنى ذراعه فبرزت كتلة غير متناسقة من العضلات والأوتار المتعرّجة . ومدّ (البوم) متردداً أصبعه وتحسسّها . .

– صلبة أليس كذلك ؟

– بلى .

– طيب فانظر هنا .

ورفع بنطاله المخملي وكشف عن ساقه ووتر عضلاته فصارت كالهراوة صلابة :

– عاين ! تحسّس ! تحسّس !

ومن جديد تحسّس أصبع دانييل كتلة العضلات الضخمة تلك ، متبوعا عن كثب باصبع (الاقرع) .

– إنها أشد صلابة من عضلات الذراع . أليس كذلك ؟

– بلى .

ثم كشف عن صدره وجعلهم يتحسّسونه أيضا ثم يعدّون حتى المائتين قبل أن يزفر ويعاود استنشاق الهواء . وطلب إليهما أن يجربا ذلك :

أما (الاقرع) فبلغ الأربعين ، وأما (البوم) فقد بلغ السبعين ولكن بعد جهد كبير امتقع له لون وجهه .

ثم انبطح (البعرور) ووضع راحتيه على الأرض ثم بدأ يرفع جسمه ويخفضه ، وعندما وصل إلى السبعين توقف ليقول لهما :

– لم أواصل العد يومـا لأعرف عـدد المرات التى أقدر . أمس الأول وصلت إلى الثلثمائة واثنتين وعشرين ثم توقف لأنى شعرت بالنعاس .

ونظر إليه صـاحباه قلقين مكسـوفين ، فذلك الاستعـراض يفوق كل تصوراتهم عن قوة (البعرور) ولياقته البدنية .

– لنر كم تستطيع أنت يا (بوم) – وجّه كلامه إلى دانييل فجأة .

– ولكنى لا أعرف . . . لم أجرب هذا من قبل .

– جرّبه الآن .

– ولكن . . .

وانبطح (البوم) أخيرا ليحاول الثنية الأولى ، ولكن ذراعيه الرقيقتين لم تعتـادا التمـرين فراح جسـمه كله يرتعش بـسبب الجهـد العضلى غـير المـألوف . رفع عجزه أولا ثم ظهره وعدّ بنشاط :

– واحد .

ولكنه ما لبث أن سقط يتثاقل على الأرض المرصوفة .

فقال (البعرور) :

– لا ، ليس هكذا . فلا فضل لك فى رفع عـجزك أولا ، فأنا هكذا أفعلها مليون مرة .

وتخلى (البوم) عن المحاولة مبتئسا بعدما رأى أنه بعد كل هذا الجهد لم يفعل شيئا سوى أنه خيّب ظن صديقه به .

وخيّم على المتبن بعـد المحـاولة الفاشلة صمت وسـكون . وعـاود (البعرور) فتـل ذراعه ومعاينة عـضلاتها ترقص مرنة منتفخة ، وخطر لـ (البوم) أن يسأله وهو ينظر إلى ذراعه :

– أنت تستطيع أن تتغـلب عـلى بعض الـرجال . أليـس كـذلك يا (بعرور) ؟ .

لم يكن روكى (البـعرور) حـينها قـد ضرب الطبـال فى المهـرجان الشعبى .

ابتسم (البعرور) برهة ثم قال :

– بالطبع إننى اقدر أن أتغلب على الكثير من الـرجال لأن كثيرا منهم لايمتلكون صلابة فى اجسادهم غير صلابة عظامهم وفروة رؤوسهم .

كان جيرمان (الأقرع) يدوّر عينيـه اعجابا بينما اتكأ (البوم) مطمئنا على كومة التبن وهو يحس إلى جانبه حماية روكى ورعايته .

كـانت تلك الصداقة ضمانة قـوية بالنسبـة إليـه وإن أصرت أمه و (الفلفلة) الكبـرى و (الأرنبـات) على اعتبار رفـقة (البـعرور) شـرا محتوما .

وكمـا هو شأن تلك المسـامرات فى متن مـعمل الجبن أيام المطر فـقد انتهت مسامرة ذلك العصر بمسابقة : رفع (البعرور) بنطاله الأيسر وعرض دائرة من الجلد المجّعد العطرى :

– انظرا صورة الندبة هذا اليوم . تبدو كالأرنب .

وانكفأ صاحباه على ساقه ليقولا موافقين :

– صحيح . تبدو اليوم كالأرنب .

واغتـم دانييل (البـوم) لمسار الحـديث . إنه يعلم أن تلك المقـدمات ستـقود إلى جـدال حول الندب والجـروح . وما كان يخـجله من شيء ، بأعوامه الثمـانية ، مثل خلو جسمه من ندبة يباهـى بها أقرانه ، إنه ليعطى عشر سنوات من عمره مقابل ندبة واحـدة لأن خلو جسمه منها يشعره بأنه أقل رجولة من أصحابه الذين يمتلكون العديد منـها فى أجسامهم . وكانت هذه الأفكار تبعث فيه شعورا كـئيبا بالنقص والصغار . الواقع أنه لاذنب له فى أن يمتلك استعدادا أفضل من (البعـرور) و (الأقرع) لالتئام الانسجة ولا فى أن تلتئم جـروحه العديدة دون أن تترك أثرا يذكـر ، ولكنه لايفهم الأمور هكذا ، وهو يرى أن نعـومة جسمـه وخلّوه من الندب مصيـبة وأن

رجلا من دون ندبة هو ، عنده . مثل فتـاة مطيعة مؤدبة . إنه لايطمع فى ندبة معركة ولا فـى تفـاهة بل فى ندبة ناتجة عن حادث أو عن أى شىء ، المهم أن تكون ندبة .

كان يحفظ عن ظهر قلب قصة ندبة (البعرور) . وقعت الحادثة قبل خمس سنوات أثناء الحرب يكاد دانيبل (البوم) لايذكـر شيئا عن الحرب ، ولايحتـفظ عنها إلا بفكرة غامضـة مشوشة : أربز طائرات مـرّت من فوق رأسه ودوّى قنابل تنفجـر فى الحقول . كان سكان البلدة يهـرعون ، كلما حلقت الطائرات فـوق الوادى ، إلى الغابة وقـد أمسكت الأمهـات بالأبناء وراح الآباء يسوقون الأغنام المتعثرة ويضربونها ضربا مبرّحا .

هربت سارة وقتها صوب الغابات وهى تمسك بيد شقيقها وتجره جراً . وما كان هو ، بأعـوامه الستة يخاف الطائرات أو يخـشى القنابل . إنما كان يعدو مجاراة للآخـرين ورغبة فى قضاء الوقت لاهيا عـابثا . وكان السكان يتجـمعون فى الـغابة ويعسكـرون مع أثـاثهم وأغنامهم فكأنهم قـبيلة من الغجر . فى البداية كانت أجراس نواقيس الكنيسة تعلن انتهاء الغارة بثلاث دقّات غليظة تتبعها اثنتان حادتان ، ولكن النواقيس رفعت من بعد لصهرها وبـقيت البلـدة من دون نواقيـس حـتى الحـرب وعنـدها تبرع دون انطـونينو (المـاركيز) بناقوس جديد .

وقد شهد الوادى يومها احتفالا كبيرا على شرف المتبرع لحدث فيه دون خوسيه القس وعـمدة البلدة آنذاك انطونيو (الحوصلة) واختتـمه (المـاركيز) شاكراً بصوت متهدج الجـميع . وهكذا أنفق القس والعمدة ساعة للإعراب عن الامـتنان لـ (المـاركيـز) على تبـرعه بالناقـوس ، وأنفق هذا نصف ساعـة أخرى للرد على امتنانهم ذاك . كـان احتفـالا سادته مشـاعر المودة والوقـار والمجـاملة ولكن جـرح روكى (البـعرور) نـتج عن شظيـة قنبلة انفجرت فى أحد الحقول بينما يـعدو هاربا ، صباح يوم صيفى ، مع سارة

باتجاه الغابة . يقول العارفون إن الحادث نتج عن قنبلة طائشة ألقت بها احدى الطائرات بغرض « تخفيف حملها » ، ولكن (البعرور) يقول إنه هو الحمل الذى حاولت الطائرة تخفيفه . وعلى أية حال فقد شكر للطيار ذلك الوسام الذى علّقه له فى لحم فخذه .

واصل الأولاد الثلاثة النظر إلى الندبة التى بدت فى شكلها كالأرنب . وانحنى روكى (البعرور) فجأة ولحسها بطرف لسانه وأردف قائلا :

– مايزال طعمها مالحا . يقول لوكاس (الأبتر) إن سبب ذلك هو الحديد فالجروح الناتجة عن الحديد لها دائما مذاق مالح . فعضلة ساقه مالحة وكذلك الحال مع فضلة ذراع كينو (الأقطع) ، ولكنها تفقد هذه الملوحة مع الوقت .

كان الآخران يستمعان إليه مرتابين . ولاحظ هو ارتيابهم فقرب ساقه منهما ودعاهما قائلا :

– تذوقا وسترياان أننى لا أخدعكما .

وتبادل (البوم) و (الأقرع) نظرات مترددة . وانحنى (البوم) أخيرا وذاق الندبة بطرف لسانه :

– نعم إنها مالحة .

وجرب (الأقرع) بعده وهزّ رأسه موافقا :

– صحيح أنها مالحة ، ولكن ليس هذا بسبب الحديد بل العرق . ذوقا شحمة أذنى وستجدان أنها مالحة كذلك .

واقترب دانييل (البوم) ، وقد أثارت القضية اهتمامه ، من (الأقرع) ولطع شحمة أذنه المشقوقة .

– هذا صحيح – قال – إن أذن (الأقرع) مالحة كذلك .

– دعنى أرى – قال (البعرور) متشككا .

ورغبة منه فى خلق القضية فقد مّص (البعرور) شحمة أذن (الأقرع) بشراهة من يرضع . ولما انتهى كان وجهه يعكس خيبة أمل كبيرة .

– صحيح . انها مالحة . ولكن سبب ذلك انك أصبت بسلك شائك وليس بشوكة العوسج كما تظن .

– لا – قفز (الاقرع) غاضبا – فقد شقت شحمة أذنى شوكة العوسج . أنا متأكد من ذلك .

– هذا ماتظنه أنت .

ولم يشأ جيرمان (الاقرع) أن يهزم فقدم رأسه من فمى صاحبيه :

– وقرصتى ؟ إنها مالحة كذلك . ولاعلاقة للحديد بها بل جاءتنى من أحد الطيور .

ونظر (البعرور) و(البوم) إلى بعضهما مذهولين ، ولكنهما انحنيا على قرصة جيرمان السمراء ولطعاها الواحد بعد الآخر .

أما دانييل (البوم) فاعترف فى الحال :

– حقا إنها مالحة .

أما روكى (البعرور) فلم يشأ أن تلوى ذراعه :

– نعم ، ولكنها ليست ندبة . القرصة ليست ندبة ، وأنت لم تصب بأى جرح فى رأسك فلا علاقة لذلك بملوحتها .

كان الضوء الداخل من كوّة المتبن فى تناقص ، وكان الوادى يكتسى كآبة وحزنا بينما يواصل الأولاد جدلهم دون أن يلحظوا أن الوقت صار ليلا وأن المطر يواصل نقره على السقف القرميدى وأن القطار كان لحظتها يصعد بجد ، مطلقا بين الحين والآخر حلقات من الدخان الأبيض المزبد . كان (البوم) يحّس بالابتئاس وهو يفكر فى حاجته إلى الندبة ، فلعله سيقدر ، إن هو امتلكها على حسم الجدل حول سبب ملوحتها : أهو العرق ، كما يؤكد جيرمان (الاقرع) ، أم هو الحديد كما يدّعى روكى (البعرور) ولوكاس (الأبتر) ؟ .

الفصل الحادي عشر

ولما علم روكى (البعرور) أن كينو (الأقطع) بكى يوم ماتت زوجته بكاء مراً ما عاد يكّن له إعجابا ولا تقديرا وكان (الأقطع) قد فقد امراته ماريوكا فضلاً عن يده ، وما كان ذلك لأن أحداً لم يحذره ، فخوسيفا المغرمة به كانت لاتكف عن تذكيره بالأمر .

– فكّر فى الأمر ، كينو . إنها مسلولة ولا شفاء لها .

ويردّ عليها (الأقطع) بغضب :

– وما دخلك أنت ؟ .

فتتركه حزينة مغتمة . وفى المساء تدخل حجرتها لتبكى حتى تبتل مخدتها بالدمع وتقسم ألا تعاود التدخل فى الأمر ، ولكنها تنسى فى صباح اليوم التالى ما أقسمت عليه . كانت شدة إعجابها به تمنعها من ترك الميدان قبل إفراغ آخر ما فى جعبتها من سهام . كان يعجبها فيه تكامله ، فهو قوى وجاد وكامل : قوى دون أن يكون حيواناً شأن باكو الحداد ، وجادّ دون أن يبلغ حد الارتياب مثل بالمجو (الملحد) ، وكامل دون أن يكون قديساً كدون خوسيه . إنه ، على وجه الإجمال ، رجل متوازن بكل معنى الكلمة ، لا أكثر من ذلك ولا أقل ، رجل يقف على لسان الميزان .

والواقع هو أن كينو لا يؤمن بوجود السل ، فالعالم عنده موزع بين نحيفين وبدينين . ماريوكا كانت نحيفة شأن (الفلفلتين) لولا وايرينه وشان اندريس الإسكافى ، أما هو فبدين كحال كوكو مأمور المحطة ، دون أن يعنى ذلك أن أولئك مرضى وهؤلاء أصحاء معافون . إنهم يقولون عن ماريوكا إنها مسلولة منذ أن ولدت ، ولكنها مازالت ، بسنواتها الثلاث والعشرين ، غضة نضرة كالزهرة .

لقد تقرب كينو منها منجذباً لا عاشقاً . وكان ميله الطبيعي سيفضي به إلى إمرأة من ذوات التقاطيع الضخمة المثيرة الظاهرة ، امرأة مثل خوسيفا صلبة جسيمة ثقيلة الوزن ، إلا أنه فكر بطريقة مختلفة فما دام السادة المتمدنون يتزوجون بالنحيفات ، فلابد أن فيهن خصوصية تجعل هؤلاء السادة المهذبين المتعلمين يطلبونهن هكذا .

وتقرب من ماريوكا لأنها نحيفة ، وبعد أيام أحبها . أحبها بلا تبصّر ولا تفكير بل لنظراتها الحزينة المنقادة كنظرات حمل صغير ولبشرتها المزرقة الشفافة كالخزف . وتفاهما ، وأعجبت ماريوكا بكينو (الأقطع) لأنه كان على العكس منها ضخم الجسم قويّه ، حاد العينين دقيقهما ، كانت عيناه كمبضع الجرّاح .

وقرر كينو (الأقطع) الزواج منها فانقضّ عليه الناس : « إنها هزيلة » « معلولة » ، « السل رفيق سوء » . . .

ولكنه قفز من فوقهم جميعاً وتقدم صباح يوم ربيعي رائع إلى بوابة الكنيسة وهو يرتدي بدلة مخملية زرقاء وقد عقد منديلاً أبيض حول عنقه . وباركهما دون خوسيه القس ، وهو القديس العظيم ووضعت ماريوكا الحلقة في أصبع يده اليسرى لأن يمناه مقطوعة .

ولم تفلح خوسيفا ، رغم ما فعلت ، في أن تفسد عليه شهر عسله . وخططت لأن تجعل ظلال نكبتها تخيم على حياته،ولكنها لم تبلغ مرادها . ففي الكنيسة ، وأثناء الإعلان الأول عن الزواج ، قفزت كالنمر صارخة وهي تركض صوب مذبح القديس روكي تشهّده على بطلان زواج كينو من ماريوكا لأن العروس مسلولة . حدث في البداية هرج ومرج ثم خيّم على المكان صمت مطبق .

كان دون خوسيه أدرى منها بالمحرّمات وقضايا الشرع :

– ولكن شريعة الرب يا ابنتي لاتمنع المرضى من الزواج . هل فهمت ؟ .

وألقت خوسيفا بنفسها مخذولة على بعض دكاك المقصورة تبكى كالمجنونة وتجز شعرها وتستجدى العطف وراح الجميع يواسونها ، فليس فى الإمكان الأتيان بكينو بآخر . أما (الأقطع) فقد راح من مكانه فى المقاعد الخلفية المخصصة للرجال يبتسم مشفقاً وهو يسدّد إلى حنكه ضربات خفيفة بفضلة طرفه المقطوع . أما (الفلفلة) الكبرى فقد دنت من خوسيفا وحملتها برفق من تحت إبطيها إلى خارج المعبد بعدما رأت دون خوسيه يقف متردداً لا يدرى ماذا يفعل . ثم طلبت بعد ذلك من دون خوسيه أن يقيم قداساً خاصاً بها تعويضاً عما فاتها بينما كانت تخرج خوسيفا من المعبد وتعتنى بها لبرهة فى الباحة ، وراحت تؤكد أنها ليست ممن يفوتون القداس من أجل عمل إنسانى ، فليس ذلك من العدل ولاهو معقول ولامنطقى ولا أخلاقى وأن ضميرها ليؤنبها وينهش سريرتها وأنها المرة الأولى التى يحدث لها ذلك فى حياتها . . .

ولم يتمكن دون خوسيه من تهدئتها وإعادة الطمأنينة المزعزعة إلى ضميرها إلا بعد جهد ومشقة . ثم استؤنف القربان المقدس وكأن شيئاً لم يحدث .

وفى الأحد اللاحق حضر الجميع إلى القداس ، حتى بانجو (الملحد) الذى وقف خلف الأرغن منحشراً بين فرقة المنشدين .

وقرأ دون خوسيه يومها اعلان الخطبة فلم تسمع غير زفرة عميقة علت لحظة نطق القس باسم العريس من الدكة التى كانت خوسيفا تجلس عليها ، ولاشئ آخر . أما بانجو (الملحد) فقد صرح عند خروجه من الكنيسة أن لا فائدة ترتجى من التقوى ولذا فإنه لن يطأ عتبة الكنيسة . ولكن الحادث الخطير وقع يوم الزفاف ، أثناء حفلة الشرب ، عندما كان الجميع فى شغل عن خوسيفا . ولابد أن انشغالهم عنها هو الذى حملها على التفكير فى شدّ انتباههم بتلك الطريقة البربرية . كانت على أية حال ، واقعة غامضة ومؤلمة .

انطلقت من ناحية الجسر صرخة وصلت بوضوح إلى مسامع المدعوين المجتمعين فى اسطبل (الأقطع) نظر الجميع صوب تلك الناحية . وكانت خوسيفا تقف عارية على الحاجز وقد يمّمت وجهها نحو النهر تنظر إلى تياره الجارف بعينين جاحظتين . أما النسوة فلم يفعلن لمنع وقوع الكارثة غير الصراخ وتقليب العيون والسقوط مغشياً عليهن . وركض رجلان صوبها قصد منعها ، كما ادّعيا ، ولكن زوجتيهما أمرتاهما زاجرتين أن يعودا خشية التطلع عن قرب إلى خوسيفا العارية .

وعاودت خوسيفا إطلاق صرخة فى جو الحيرة والارتباك ذاك ثم رفعت ذراعيها وبحلقت بعينيها وألقت بنفسها بين تيارات النهر المعتمة .

وهرع الجميع إلا العروسين . وبعد قليل عاد القاضى إلى الحانة وكان كينو لحظتها يقول لماريوكا :

- خوسيفا هذه دابّة

فعقب القاضى قائلاً :

- كانت . . .

وهكذا علمت ماريوكا وكينو أن خوسيفا قد انتحرت .

وحدث ما حدث لما أرادوا دفنها فى المقبرة المجاورة للكنيسة ، إذ لم يوافق دون خوسيه على دفن المنتحرة إلا بعد مشاورة الأسقف . وأخيراً جاءت الموافقة من المدينة وتم الأمر على خير فقد انتحرت خوسفيا ، فيما يبدو ، وهى فى حالة من الجنون العارض .

ولم يعكّر شبح خوسيفا صفو كينو فى رحلة زواجه ، فقد أمضى هو وعروسه أسبوعاً فى المدينة ، ولما عادا راحت ماريوكا تعلن على الملأ أنها حبلى .

– أبهذه السرعة ؟ ! سألتها (الفطساء) التى أثار استغرابها أن بعض النسوة يحملن من مضاجعة رجل لليلة واحدة بينما لا يقع هذا لغيرهن ولو ضاجعته العمر كلّه :

– وما الغرابة فى ذلك يا امرأة ؟ . قالت ماريوكا مضطربة وتمتمت (الفطساء) فى داخلها بكلمات نابية .

لم يكن حمل البنت طبيعياً . فمع تكوّر بطنها كان وجهها يهزل بصورة تبعث على القلق . وبدأت النسوة يتحدثن عن أنها تحتمل المخاض .

واحتملت ماريوكا المخاض لكنها لم تتخطّ عتبة النفاس ، فقد ماتت بعد أسبوع ونصف من الوضع ووضعت بعد خمسة أشهر من انتحار خوسيفا . وأدركت فضوليات البلدة حينها سبب اعلان ماريوكا خبر حملها وهى بعد على ظهر القطار الذى جاء بها من المدينة .

وامضى كينو (الأقطع) كما قيل الليلة وحيداً أمام الجثمان يبكيه حاملاً بين ذراعيه الوليد ومداعباً بفضلة يده خصلات الشعر الأشقر المسترسلة الهامدة .

وعلقت (الفلفلة) الكبرى حال سماعها بالخبر قائلة :

– إنه عقاب الرب لمن أكل الطبيخ قبل الثانية عشرة .

كانت تشير بذلك إلى الولادة المبكرة . ولكن القيّمة على منزل (الماركيز) كانت على حق إذ قالت بأن ذلك لم يكن عقاباً من الرب بدليل أن (الفلفلة) الصغرى لم تأكل الطبيخ وحسب بل والحساء ، مع ذلك لم يقع لها مكروه ! .

كان عمر دانييل (البوم) آنذاك سنتين ، وعمر روكى (البعرور) أربع سنوات . وبدأ هذان يعرجان على كينو بعد خمسة أعوام من ذلك وهما عائدان من « بركة الإنكليزى » أو من صيد السرطانات أو السمك . كان (الأقطع) كريماً جداً ، فكان يقدم لهما قدحاً كبيراً من عصير التفاح

مقابل خمسة سنتات متواضعة. ولكن حال الحانة كانت أيامها في تدهور ، فقد صار يعيد إيصالات الدين دون تسديدها ، وبدأ مجهزّوه يمتنعون عن مدّه بالبضاعة ، وكفله خيراردو (الأمريكي) مرات عديدة قبل أن يتوقف بعد أشهر عن ذلك لمّا لم يجد فيه أملاً يرتجى. وراح وضع كينو (الأقطع) يسير من سيئ إلى أسوأ ولكنه ، مع ذلك ، واصل ثرثرته مع زبائنه وواصل تقديم القليل الباقي لديه . كان روكي (البعرور) وجيرمان (الأقرع) ودانييل (البوم) يجالسونه عند الدكة الحجرية القريبة من الطريق العام . وكان (الأقطع) يفضل محادثة الأطفال على الحديث مع الكبار ، ربما لأنه لم يكن في حقيقته سوى طفل كبير . وقد يرد اسم ماريوكا في أثناء الكلام ، فتجدّد الذكرى وتندى عيناه ويبدأ بضرب ذقنه بفضلة يده تمويهاً ومداراة ، فينهض عندها (البعرور) الذي يكره الدموع والمواقف المؤثرة ، وينصرف دون أن يتفوه بشيء، وينصرف معه صاحباه فكأنهما خيطان ببنطاله . أما كينو (الأقطع) فينظر إليهم مستغرباً ، غير مدرك السبب الذي يحملهم على تركه فجاة ومن دون علر .

لم يحدث أن تبجّح (الأقطع) أمام الأولاد الثلاثة بأن امرأة انتحرت عارية بسببه ، بل لم يشر إلى الحادث إطلاقاً ، ولم يعرف دانييل وأصحابه بأن خوسيفا ألقت بنفسها عارية إلى النهر من على حاجز الجسر إلا عن طريق باكو الحداد الذي ما كان يخفى أن تلك المرأة كانت تروق له وأنها لو كانت طاوعته لأصبحت أما ثانية لروكي (البعرور) ، ولكنها فضلت الموت على صدره العريض وشعره الأحمر فكان لها ما أرادت .

كان أشدّ ما يثير فضول الأصدقاء الثلاثة أيام كانت حانة كينو تقدم عصير التفاح بخمسة سنتات هو سبب فقدان (الأقطع) يده . ويكمن السبب في حكاية بسيطة يرويها (الأقطع) نفسه :

– أخي كان هو السبب . لقد كان حطاباً ، وفي المسابقات كان الأول دائماً لأنه يقطع الجذع الغليظ قبل الآخرين في دقائق قليلة . وكان يريد أن يصبح ملاكماً .

ويثير كلام (الأقطع) عن هواية أخيه اهتمام الأولاد . ثم يواصل الحديث :

– بالطبع هذا لم يحدث هنا بل في بكايا قبل خمسة عشر عاماً . بكايا ليست بعيدة عنا ، انها خلف تلك الجبال – ويشير إلى قمة جبل راندو الداكنة المجللة بالضباب – كل الرجال في بكايا يريدون أن يصبحوا أقوياء ، والكثيرون منهم أقوياء فعلاً. أما أخي فكان أقوى من في البلدة . لذلك كان يريد أن يصبح ملاكماً لأنه كان يغلبهم جميعاً . قال لي ذات يوم : « أمسك لي بهذا الجذع ياكينو. سأشطره بأربع ضربات من فأسي » . كان مجرد كلام ، فلطالما طلب مني ذلك ولكنه لم يستطع أبداً شطر الجذع بأربع ضربات . وأمسكت بالجذع بقوة ، وحدث أنني ، وبينما كان يهوي بالفأس على الجذع ، حركت يدي للفت انتباهه . . طاخ ! – وارتسم على الوجوه الثلاثة الصغيرة تعبير واحد . أما كينو فراح ينظر بحنان إلى فضلة طرفه المقطوع مبتسماً : – لقد طارت يدي مثل فلقة خشب مسافة أربعة أمتار ، وعندما ذهبت بنفسي لحملها كانت ماتزال حارّة وكانت الأصابع تنثني من ذاتها وتتحرك مثل ذنب السحلية .

ويسأله (البعرور) بصوت مرتجف :

– وهل يمكنني أن . . أن أعاين يدك عن قرب ؟ .

ويقدّم كينو ذراعه وهو يبتسم :

– بالطبع .

وينتهز الأولاد الثلاثة هذا الترخيص السخي فيعاينون الطرف المقطوع مراراً ويتحسسونه ويغرسون أظفارهم القذرة في أخاديده ويتناوبون الإشارة

عليه بأصابعهم قبل أن يتركوه على الدكّة الحجرية كحاجة ماعادت ذات نفع ولافائدة .

رضعت ماريوكا الصغيرة لبن الماعز ، إذ كان كينو يحضّر لها زجاجة الرضاع حتى أتمت سنة واحدة من العمر . وعندما ألمحت له جدّتها لأمها مرة أن في مقدورها كفالة الطفلة والنهوض بأعباء تربيتها ، حمل كينو (الأقطع) هذا الكلام على غير محمله واستاء وغضب وما عاد أحدهما يكلم الآخر . ويؤكد الناس في البلدة أن كينو قطع على نفسه عهداً أمام المرحومة أنه لن يترك الصغيرة في أيد غريبة وإن اضطر إلى تربيتها على صدره .

وكان دانييل (البوم) يرى في ذلك مبالغة وتطرفاً واضحين .

كان جميع سكان البلدة باستثناء دانييل يحبون ماريوكا - أوكا ،كما كانوا يسمونها إشارة إلى أنها من خلفة الفقيدة . كانت طفلة زرقاء العينين ذهبية الشعر يغطي النمش أعلى وجهها . وقد تعرف دانييل على الطفلة مبكراً ، حتى إن أول ما يذكره عنها يبدو في ذاكرته مشوشاً مطموساً . ثم يذكرها بعد ذلك وهي طفلة في الرابعة تدرج في الأعياد على مقربة من معمل الجبن ، كانت الطفلة توقظ في أم دانييل غريزة الأمومة التي فقدتها باكراً . إنها تتمنى لو أن لها طفلة وإن ملأ النمش وجهها مثل ماريوكا - أوكا ، ولكن ذلك ما عاد ممكناً بعد أن أخبرها دون ريكاردو الطبيب بأن بطنها صار بعد الإسقاط يابساً . فقد شاخت أحشاؤها إذاً وما عاد هناك من أمل . ومن هنا يأتي احساس أم (البوم) نحو اليتيمة الصغيرة كإحساس الأم الوالدة ، تناديها عندما تراها تتسكع قريباً من معمل الجبن وتجلسها على المنضدة .

- ماريوكا - أوكا بنيّتي ، أتريدين شيئاً من الجبن المحلّى ؟

وترد الطفلة موافقة ، فتجلب لها أم (البوم) الجبن المحلّى .

- هل فيه كفاية من السكر ، صغيرتي ؟ هل أعجبك ؟

وتردّ الطفلة بالإيجاب دون أن تنطق بحرف . ثم تسألها أم دانييل ، بعد انتهائها من أكل الحلوى عن تفاصيل الأعمال المنزلية في بيت كينو :

– ماريوكا أوكا بنيتي ، من يغسل لك ملابسك ؟ وتبتسم الصغيرة :

– أبي .

– ومن يعدّ لك طعامك ؟

– أبي .

– ومن يمشط لك شعرك ؟

– أبي .

– ومن يغسل لك وجهك وينظف أذنيك ؟

– لا أحد .

وتشعر أم دانييل بالشفقة فتنهض وتصب الماء في الإناء وتغسل للطفلة أذنيها ثم تمشط لها بعناية شعرها . وكانت ، هي تقوم بذلك ، تتمتم ، وكأنها ترتل :

– يا للطفلة المسكينة ، يا للطفلة المسكينة ، ياللطفلة المسكينة . . .

وعندما تنتهي تقول لها وهي تضربها على عجزها مداعبة :

– هيا بنيتي ، فأنت أجمل هكذا .

وترسم الطفلة ابتسامة هادئة على وجهها فتأخذها أم دانييل (البوم) بين ذراعيها وتطبع على وجهها قبلات كثيرة . وربما أثر في دانييل (البوم) حنان أمه المفرط تجاه ماريوكا – أوكا بما لا يترك لها هوى في نفسه . ولكن لا . إن ما يغيظه هو أن الصغيرة كانت تحشر أنفها في كل مسألة وتحاول المشاركة في أمور لا تخص النساء ولاتعنيهن .

صحيح أن ماريوكا – أوكا كانت تتمتع بحرية تحسد عليها ، حرية متوحشة بعض الشيء ، ولكنها في نهاية المطاف امرأة ، ولايمكن لامرأة أن تأتي ما يأتونه هم ، كما ليس في مقدورهم هم أن يتحدثوا أمامها عن « هذا » فليس ذلك من الأدب ولا من اللياقة . أما مسألة حب أمه لها

ودعوتها لها أيام الآحاد والأعياد لتناول الجبن المحلّى فذلك أمر لا يشيرفيه حراً ولا برداً . كانت تغيظه من الصغيرة نظراتها المتواصلة إلى وجهه وحرصها على معرفة حركاته وسكناته .

– أين ستذهب اليوم ؟

– إلى الجحيم . هل تريدين أن تأتي معي ؟

– نعم – ترد عليه الطفلة دون تفكر .

أما روكي (البعرور) وجيرمان (الأقرع) فكانا يضحكان ويشيران قائلين له إن ماريوكا – أوكا مغرمة به .

وأراد دانييل (البوم) يوماً أن يتخلص منها فأعطاها قطعة من النقود وقال لها :

– خذي هذه واذهبي إلى الصيدلية لتقيسي وزني .

وذهب الأولاد إلى الجبل ، وعندما عادوا مساءً وجدوها قاعدة عند باب معمل الجبن تنتظر عودتهم .وما إن رأتهم حتى نهضت واقتربت من دانييل ، أعادت له قطعة النقود وقالت :

– بوم . يقول الصيدلي إن عليك إذا أردت قياس وزنك ، أن تذهب بنفسك .

وانفجر الأصدقاء الثلاثة ضاحكين بينما كانت هي تنظر إليهم بعينيها الزرقاوين الحادتين دون أن يبدو عليها أنها فهمت شيئاً .

وقد تلجأ ماريوكا – أوكا إلى كل حيلة لمصاحبة البوم . التقيا عصر يوم في الطريق العام فقالت له :

– بوم . أعرف مكاناً يعشش فيه (أبو زريق) مع أفراخه .

– أين هو ؟ قولي .

– تعال معي لأدلك عليه .

وذهب هذه المرة معها . لم تكف عن النظر إليه طول الطريق . كان عمرها آنذاك تسع سنوات وحسب ، ومع ذلك فقد أحس بأثر حدقتيها في

لحمه فكأنهما تحفرانه بمخرز .

– ماريوكا – اوكا . لماذا تنظر إلّى هكذا بحق الشيطان ؟

واحست هى بالخجل ولكنها لم تحرف نظرها عنه :

– يعجبنى النظر إليك .

– لاتنظرى إلّى . هل سمعت ؟

لكن الطفلة لم تسمعه أو لم تعره أذناً صاغية .

– قلت لك الا تنظرى إلّى ألم تسمعيَنى ؟

وعندها خفضت عينيها .

– بوم . هل صحيح انك معجب بميكا ؟

واحمر وجه (البوم) واضطرب لبرهة واحس وكأن شيئاً غريباً يفور فى راسه . كان لا يدرى إن كان من الانسب فى مثل هذه الحالات أن يغضب أو أن يبتسم ؟ واستمر الدم بالتجمع فى راسه . ولم يشأ أن يطول تردده فاصطنع الغضب ، مع ذلك حاول إخفاءه متعللاً باجتياز حاجز أحد الحقول .

– وما دخلك أنت إن كانت ميكا تعجبنى أم لا ؟

فردت ماريوكا – أوكا بصوت منخفض :

– إنها أكبر منك . إنها تكبرك بعشر سنين .

وتخاصما . تركها (البوم) فى الحقل وعاد إلى البلدة وقد نسى تماماً موضوع العش ، لكنه لم ينس كلمات ماريوكا – أوكا طيلة الليل . ولما آوى إلى فراشه أحس بقلق غريب ، لكنه تغلب عليه ، وتذكر ، وهو على الفراش ، أن الحداد ،وهو يقص عليه حكاية (الفلفلة) الصغرى ودون ديماس ، كان يستهلها دائما بقوله : « كان النصاب يصغر (الفلفلة) بخمسة عشر عاماً . . . »

وابتسم (البوم) فى الظلام ، وفكر فى أن الحكاية قد تتكرر ، ثم نام يهدهده إحساس بعبير سعادة غريبة هانئة تحفّ به .

الفصل الثانى عشر

كتب اليهم الخال اوريليو من استريمادورا . وكان الخال اوريليو رحل إلى استريمادورا لإصابته بالربو ولأن رطوبة الوادى ، القريب من البحر ، كانت تضايقه . أما المناخ فى استريمادورا فإنه أكثر جفافاً وملاءمة لصحته والخال اوريليو يعمل بغالاً فى إحدى المزارع الكبيرة ، ومع أن الأجر الذى يتقاضاه بسيط فإنه يسكن مجاناً ويحصل على ما تنتجه الأرض لقاء أسعار زهيدة « وليس لأحد أن يطلب أكثر من هذا فى الوقت الحاضر » – كتب لهم فى رسالته الأولى .

لم يبق لدانييل (البوم) من ذكرى خاله غير صور مطموسة للهاث مخنوق ، فكان قاطرة صاعدة بمشقة تلهث قريباً من أذنيه . كان الخال يضع الكمادات فى أعلى صدره ويستنشق أبخرة الكالبتوس فى حجرته ،ولكنه ، رغم هذه وتلك ، ما كان يتعافى من حشرجة النفس والصدر إلا خلال الأيام الخمسة عشر الأشد جفافاً من أيام الصيف . لقد أخبرهم الخال اوريليو فى رسالته الأخيرة أنه سيرسل للصغير دوقاً كبيراً أمسك به حياً فى حقل الزيتون . وأحس دانييل بقشعريرة وهو يقرأ الرسالة ، فقد ظن أن الخال سيرسل له شيئاً من قبيل دوق انطونينو (الماركيز) تملأ صدره النياشين والميداليات والأوسمة ، وما علم أن الدوق الكبير هو نوع من الطيور يجول طليقاً فى حقول الزيتون وإن بإمكان البغّالين الإمساك به كما يمسك بالأرنب من دون أن تطالهم أية عقوبة .

وضحك الأب عندما عرض عليه الولد مخاوفه ، وفرح دانييل فى قرارة نفسه لأنه أضحك والده الذى ما عاد فى السنوات الأخيرة إلا عابساً مكفهر الوجه لا يقوى على اضحاكه حتى الهنغاريين الذين يقدمون عروضهم الكوميدية ويحركون الأرجوزات فى الساحة .وعندما كفّ الأب عن الضحك قال موضحا :

– الذوق الكبير هـو يوم عظيم ، وهو طعم جيد لصيـد الحدّان عندما تتسلّمه سآخذك معي للصيد في جبل راندو .

كانت المرة الأولى التي يعده أبوه برحلة صيـد مع علمه بولوع الصغير بذلك .

كان الجبّان ، مع بداية كل موسم صـيد ، يركب القطار ويتـجه منذ اليوم الأول إلى قشتاله ليعـود منها بعد يومين وهو يحمل أرنباً وعنقوداً من طيور الحـجل متـدلياً من نافـذة القطار بادياً لكل ذي عين . ما كـان يطلق نيران بـندقيتـه على طيور السـمّان «فـإنها – كـما يقول – لاتسـاوي ثمن الإطلاقة . أما العصافير فإما أن تقتلها بالمصيادة وإما أن تتركها حيّة » . أما هو فكان يتركها حـيّة ، وأما دانييل (البوم) فكان يقتلهـا بالمصيادة . كان الولد يخـفّ إلى المحطة لاسـتقبـال أبيه العـائد من رحلات الصـيد أوائل الخريف . وكان كوكو ، مأمور المحطة ، هو من يبلّغه بموعد وصول القطار متأخـراً أم في وقته . وعلى أي من الحالين فقد كـان دانييل ينتظر ، بقلب فرح ونفس متشوقة ، طـلوع القاطرة من المنعطف ، وكان يحدد مكان أبيه دائماً من عنقود طيور الحجل . ثم يلتـقيان عند رصيف المحطة فيناوله أبوه البندقية بجدّية صياد رغم ثقلها ورغم ما يثيره زنادها في نفسه . ثم ما كان يفـارق أباه وهو ينظف البندقيـة ويزيّتـها بل كـان يطرح عليه السـؤال تلو السؤال ، وكان الأب يشبع فضول ولده أولا يشـبعه بحسب ما هو عليه من مزاج. وكان الأب ، كلّما يحاكي صوت طيران الحجل ، يقول : پرررر ، حتى أيقن دانييل أن الحجل لابد وأن تحدث هذا الصوت « بررررر » ، عند الطـيران وانهـا لاتحسن أن تصوت بـغـيره . وقـصّ ذلـك على صديقه (الأقرع) وتجـادلا لأن الصديق ذهب إلى أن طيـور الحجل تحـدث بالفعل صوتاً عند الطيران ، ولاسيما في الشتاء أيام هبوب الريح ، ولكن الصوت الذي تحـدثه هو « بررررر» وليس « پرررر » كمـا يدّعي دانييل (البوم)

وأبوه . ولم يستطع أى منهما أن يقنع صاحبه برأيه حول حقيقة الصوت الذى تصدره طيور الحجل عند الطيران ، وافترقا ذلك المساء متخاصمين .

كان شعوره حينئذ شبيهاً بشعوره وهو ينتظر لقاء أبيه العائد منتصراً وهو يحمل زوجاً من الأرانب ونصف دزينة من طيور الحجل متدلية من نافذة القطار ، شعوره عند لقاء تولا ، كلبة الكوكر الصغيرة ، بعد يومين أو ثلاثة أيام من الفراق . كانت تولا تنط من القطار ، وما إن تراه حتى تضع يديها على صدره وتلعق وجهه بلسانها وتملأه بمداعبات رطبة متواصلة . وكان هو الآخر يداعبها ويلاطفها بكلمات حانية وصوت مختلج حتى إذا عادا إلى البيت كان دانييل (البوم) يخرج علبة قديمة من الصفيح فيها فضلات من الطعام مع جردل من الماء ويحملهما إلى الزريبة ليشهد بحنو وليمة حيوانه الصغير . كان خلو الوادى من طيور الحجل يثير فضول دانييل (البوم) ، فلو أنه كان واحداً من هذه الطيور لما فكّر فى مغادرة الوادى . إنه يتشوق للتحليق عالياً فوق المروج والتمتع بالنظر إلى الجبال وغابات الكستناء والكالبيتوس الكثيفة والقرى الحجرية والضياع البيض المتناثرة ولكن يبدو أن هذا لايروق لطيور الحجل لأنها تفضل الأكل وفيراً يسيراً .

وقصّ عليه أبوه أنه قبل سنوات كثيرة فر من اندريس الإسكافى زوج من طيور الحجل واتخذا عشاً لهما فى الجبل ، وبعد أشهر اتفق صيادو الوادى على اصطيادهما . واجتمعت اثنتان وثلاثون بندقية وخمسة عشر كلباً وجهّزوا لكل شئ عدته وخرجوا من البلدة فجراً ولكنهم لم يعثروا على ضالتهم إلا عند الغروب ، وجدوا الأنثى مع ثلاثة أفراخ هزيلة جائعة تلقت الموت دون أية مقاومة ، لكن الصيادين الاثنين والثلاثين تنازعوا حيازة الحجلات الأربع وانتهى بهم الأمر أن تبادلوا النار بين الصخور ووقع فى ذلك اليوم من الضحايا بين الرجال ما زاد على عددهم بين الحجل ..

وعندما قصّ (البـوم) ذلك على جيرمان (الأقـرع) قال له هذا إن قصة فرار الطيور من أبيه ولجوئها إلى الجبل صحيحة وليس ما عداها سوى سلسلة طويلة من الأكاذيب .

عند وصـول رسالة الخـال أوريليو أحـس دانييل (البـوم) باضطراب وتوتر شديدين . إنه لايتصور لحظة وصول الدوق الكبير وذهابه هو مع أبيه لصـيد الخـدآن وإن كـان لديه شيء من القلق فسـببـه الخوف من أن يـبدأ أصدقاؤه ، مع مـا جدّ من الأمور ، بتلقيبه بالدوق الكبـير بدلاً من دعوته بـ (البوم) . فتـغيير اللقب يؤلمه ، بعد كل هذا الوقت ، قـدر ما قد يؤلمه تغـيـير اسم العـائلة . ولقـد وصل الدوق الكبـيـر ، ومع ذلك لم يجـد الأصدقاء ، وكان فيهم من الانفعال مـا في صاحبهم ، ما يكفيهم لملاحظة أن الطائر الذي خلب ألبابهم لم يكن إلا بوما كبيراً .

ربط الجبان الطائر من احدى رجليه في زاوية من زوايا الزريبة وكان إن دخل أحدهم للتفرج عليه نفخ وكأنه قط هائج .

كان يأكل أكثـر من كيلو غرامين من فتات اللحم يومـياً ، حتى أن أم دانييل أشارت ذات مـساء تعريضاً إلى أن الدوق الكبيـر يستهلك في الأكل أكثر مما تستهلكه البقـرة ، مع أنه خلافاً للبقرة التي تعطي اللبن ، لا يعطي شيـئاً البتة . ولمـا بقي الجـبّان صامتـا سألته امـرأته إن كان ينتظر من ذلك الطائر ربحاً ما أم مـجرد ضيف مدلّل ؟ واهتز دانيـيل (البوم) وهو يتوقع أن يحطّم أبوه ، كما هي عادته عند الغـضب ، صحناً أو آنية فخارية ، ولكن الجبّان كظم غيظه هذه المرة واكتفى أن قال متجهماً :

— بل أنتظر منه ربحاً .

وفاجأ الأب ولده (البوم) ذات ليلة وقد هدأت أحوال الجو ، قائلاً :

— جهّز نفسك فسنخرج غداً لصيد الخدآن . سأوقظك عند الفجر .

وأحس دانييل (البـوم) ببرودة تسري في ظهره ، وبدأ أنفـه فجأة ومن

دون سبب يتحسّس أريج الزعتر المنبعث من البنطال الذى كان الجبّان يرتديه عند ذهابه للصيد ورائحة البارود الحادة الصادرة من الخراطيش المستعملة التى كان أبوه يعبّئها بصبر واقتصاد المرة تلو الأخرى إلى أن تصبح غير ذات نفع . كان الصغير يعيش المعركة مع الحدآن الماكرة السريعة قبل وقوعها ويدوّر فى رأسه تفاصيل الرحلة المقررة .

وخرجا مع الفجر . أعشاب السرخس ، على حافة الجادة ، تتلألأ مكسوة بالندى . وعلى أطراف الحشائش تكونت قطرات دقيقة بدت وكأنها من زئبق . ومع بداية انحدار جبل واندو كانت الشمس تطل من ورائه بينما التصق ضباب أبيض كثيف بقاع الوادى فبدا هذا من شاهق مثل بحيرة مملوءة بسائل خفيف غريب .

كان دانييل (البوم) ينظر إلى جميع الجهات مبهوراً وهو يحمل على ظهره الدوق الكبير محبوساً فى قفصه الخشبى ينفخ هائجاً كلما مروا بكلب فى الطريق .

قال دانييل لأبيه عند خروجهما من البيت :

– ألا نأخذ تولا معنا ؟

– لا مكان لتولا اليوم .

وحزّ فى نفس الصبى أن يتركا الكلبة فى البيت بعد ما أبدته من لهفة وهى ترى البندقية وتشم رائحة حذاء الصياد وبنطاله . وتذكرها ثانية وهو يتسلق الجبل المغمور من ناحيته الجنوبية بضياء النهار وأريج الحقول . لكنه ما لبث ونسى كل شىء وما عاد يغير وجه أبيه الذى يقبع متربصاً بين الصخور الرمادية وغير الدوق الكبير وهو يخفق بجناحيه ويزفر مسافة خمسة أمتار مربوطاً من رجله اليمنى . أما هو فقد اختبأ بين الأحراج قبالة أبيه .

– لاتتحرّك ولاتحدث أى ضجيج ، فالحدآن يتقنّ اللاتينية – قال له أبوه محذّراً .

فاندسّ دانييل فى مكمنه وراح يسأل نفسه إن كان ثمّ علاقة بين أن تعرف الحدآن اللغة اللاتينية ، كما يقول أبوه ، ولون ريشها البنى الغامق ، ذلك اللون القاسى الخالص الذى يشبه لون قفاطين الرهبان ؟ أم تراه قال ما قال مازحاً ؟

وخيّل لدانييل (البوم) أنه لمح والده يسترعى انتباهه وهو يشير بأصبعه إلى السماء . ونظر بهدوء إلى أعلى فرأى ثلاث حدآن ببطء دوائر متحدة المركز فوق رأسه . وأحس بقلق غامض ، ونظر من جديد إلى أبيه فرآه شاحب الوجه وهو يهيىء البندقية بحذر . وانفعل الدوق الكبير وبدأ يزفر ، والتصق دانييل بالأرض وحبس أنفاسه وهو يرى الحدآن تنزل فوقهم ، بل كان فى مقدوره أن يراها بكل تفاصيلها . كانت إحداها عظيمة الحجم . وأحس (البوم) بحكة مفاجئة فى إحدى رجليه ولكنه بقى ساكناً لئلا يحدث حركة أوضجيجاً .

وتدلّت إحداها فجأة من السماء متعامدة وانقضت مسرعة لتمس رأس الدوق الكبير ، وانقضت الأخريان فى الأثر . كان قلب دانييل (البوم) يدق مسرعا . وانتظر ، مقطّب الوجه ، دويّ الإطلاقة ، لكنه لم يسمع أى دويّ فنظر إلى أبيه مندهلاً .

كان أبوه يتابع ببندقيته الحدأة الكبرى التى عاودت التحليق عالياً ، لكنه لم يطلق النار هذه المرة أيضاً . وظن دانييل (البوم) أن أمراً خطيراً ألم بأبيه ، فهو لم يشاهد من قبل حدأة تقترب كل تلك المسافة دون أن تطلق عليها النار .

وعاودت الحدآن الانقضاض ، وازداد دانييل اضطراباً وتوتراً ، ومرقت الحدأة الأولى قريبة حتى أن (البوم) شاهد عينها البراقة المدورة مصوبة نحو الدوق الكبير كما شاهد مخالبها الجارحة المقوسة ومرقت الثانية بعد الأولى فيما يشبه سرباً من الطائرات تنقض متتابعة . ثم برزت الكبرى لتنقض

وهى تبسط جناحيها فتخطى جزءاً واسعاً من زرقة السماء . لابد أنها اللحظة التى ينتظرها الجبّان . ونظر دانيل إلى أبيه الذى كان يلاحق الطائر مصوباً إليه بندقيته . وحلّقت الحداة فوق الدوق الكبير بجناحين ساكنين ، وهنا سمع دوىّ إطلاقة تردد صداها فى أرجاء الوادى وترك الطائر أخدوداً من الريش سابحاً فى الفضاء وخفقت جناحاه العظيمتان مهمومتين عاجزتين تحاولا عبثاً الابتعاد عن دائرة الخطر ، ولكن الجبّان عاجله بإطلاقة ثانية فخرّت الحداة وهى تطلق صيحة مأتمية فى بحر من الريش .

ولكن صرخة الفرح التى أطلقها الأب لم تجد صداها فى ولده ، فمع دوىّ الإطلاقة الثانية رفع هذا يده إلى خدّه عندما أحسّ وكأن سلكًا محمياً اخترق لحم وجهه ، أو لسعة سوط أصابته . وتأمل يده فوجدها ملطخة بالدم وأحس بشىء من الخوف ثم أدرك بعد ذلك بقليل أن أباه أصابه بعيار نارى .

– لقد أصبتنى ، أبتاه – قال باستحياء .

وتسمّر الجبّان فى مكانه وانحسر حماسه فجأة ، وعندما اقترب منه كان يوشك أن يبكى غيظًا :

– هل الأمر خطير يابنى ؟ هل الأمر خطير ؟ – سأله منفعلاً .

وأسودّ كل شىء فى عين الجبّان لثوان ، الأرض والسماء وكل شىء . وما عادت مدخراته التى جمعها بحرص ، لحظتها ، مهمة ولا حياته الشحيحة ذات معنى . وما عساه يفعل لو أنه قتل ولده ؟ لو أن ولده لن يقوى على التقدم ؟ لكن أفكاره السوداوية ما لبثت أن تبددت عندما اقترب من الصبى . فأطلق قهقهة حادة منفعلة وراح يؤدى حركات مضحكة :

– آه لا بأس عليك . لا بأس .لقد ظننت الأمر خطيرا ، إنها مجرد كرة رصاصية . هل تؤلمك ؟ هل يؤلمك هذا ؟ ها . . . ها . . . ها . إنها كرة رصاصية واحدة وحسب .

لم يرق لدانييل (البوم) ذلك الاستخفاف بجرحه ، فلقد كان عياراً نارياً صغر أم كبر . وتحسّس بلسانه وجود عقدة صغيرة فى باطن خدّه ، إنها الخردقة ، خردقة ربعية ، أى بمثابة طلقة ، طلقة صغيرة .

– الآن تؤلمنى أقل . إنها كالخدرانة ، لكنها كانت تؤلمنى من قبل .

كان الجرح ينزف لكن رأس أبيه اتجّه من جديد صوب الحداة المجندلة ، فما حدث للولد ليس ذا بال :

– هل رأيت كيف سقطت ، دانييل ؟ هل رأيت كيف أرادت الماكرة أن تلتقط أنفاسها بعد الإطلاقة الأولى ؟

ولحقت بدانييل (البوم) عدوى حماس الأب فقال :

– بالطبع أبتاه ، لقد سقطت هناك .

وخفّ الاثنان نحو المكان المحدد . كانت الحداة ، التى تبلغ المترين باعاً ، ماتزال تتلوى فى النزع الأخير .

وفى طريق العودة سأل دانييل (البوم) أباه :

– هل تظن والدى ، أن الجرح سيترك أثراً فى وجهى ؟

فرد عليه الجبّان دون أن يعيره اهتماماً يذكر :

– كلا ، بل سيندمل تماماً .

وأوشكت عينا دانييل أن تدمعا :

– لكن . . . لكن ألم يترك الجرح ندبة ؟

– كلا بالطبع فليس الأمر ذا بال – قال أبوه بفتور .

واضطر دانييل (البوم) أن يشغل فكره بشئ آخر كى لا يجهش بالبكاء ، ولكن الجبّان أوقفه فجأة ممسكاً برقبته :

– اسمع . لاتخبر أمك بأى شيء عما حدث ، مفهوم . لاتتكلم عن هذا أن كنت تريد أن تصحبنى ثانية إلى الصيد ، هل اتفقنا ؟

وطاب لدانييل أن يشعر بأنه مشترك مع أبيه فى الجرم فقال :

– اتفقنا .

وفى اليوم التالى ذهب الجبّان إلى المدينة حـاملاً الحداة القتيل ، وعاد فى العصر فحمل الدوق الكبير فى قفصه وذهب به من دون أن يغير ملابسه إلى كويّرا ، الضيعة المجاورة .

وفى المساء ، بعد العشـاء ، وضع على الطاولة ، وهو يتوجه بالكلام إلى زوجته ، خمس أوراق نقدية من فئة المـائة قائلاً :

– اسمـعى ، هذا هو ريع الدوق الكبير . وكـما ترين فـإنه لم يكن ضيفاً مدلّلاً ، لقد بعته إلى قس كويرا بأربعمائة ، وأعطتنى جمعية مكافحة الحيوانات الضارة مائة أخرى لقاء الحداة .

ولم تعلّق أم دانييل بشىء فقـد كان زوجها على الدوام عنيداً مـتصلباً فى الدفاع عـن رأيه ولم يكن يخفى طبـعه هذا بل كان يقـول : « منذ يوم عرسى أعجـبنى أن أكون دائماً فوق امرأتى » ، ثم كـان يضحك ويضحك مقهقهاً لسبب هو أدرى به .

الفصل الثالث عشر

ثمة أمور لاتحكمها إرادة الانسان . ذلك ما اكتشفه دانييل (البوم) مؤخرا وكان من قبل يظن أن الإنسان حر فى الاختيار بين ما يريد وما لا يريد . بل إن فى مقدوره ، هو نفسه ، أن يذهب ، إن هو أراد ذلك ، ليقلع ضرسه الذى يؤلمه عند طبيب الأسنان الذى يقعد صباح كل خميس ليمارس عمله فى شرفة محل كينو (الأقطع) لقاء إيجار بسيط . وقد يبلغ الأمر ببعض الرجال أنهم يقررون الاستغناء عن عضو من أعضائهم إن تحوّل هذا العضو إلى مشكلة بالنسبة إليهم ، وهو ما فعله لوكاس (الابتر) .

أى أن (البوم) كان يظن حتى ذلك المساء الذى تسلقوا فيه سور مزرعة (الأمريكى) لسرقة التفاح وحتى افتضاح أمرهم إذ فاجأتهم ميكا ، أن بإمكان الرجال أن يتصرفوا على هواهم تجاه كل ما يقف حجر عثرة فى طريقهم سواء أكان متصلا بالجسم أم بالروح . لكنه ، ما إن غادر عزبة (الأمريكى) بأذنين معقوصتين وتفاحة فى كل واحدة من يديه ، حتى أدرك أن إرادة الإنسان هى ليست كل شىء فى الحياة وأن ثمة أشياء تفرض عليه إرادتها ، تقهره وتخضعه لسلطانها الطاغى المستبد . إنه يعى الآن بعض الأمثلة كحسن ميكا الأخاذ وارتيابية بانجو (الملحد) وحميّة دون خوسيه المتوقدة ونفور سارة من أخيها (البعرور) .

لقد أدرك دانييل (البوم) ، منذ محاولة سرقة التفاح الفاشلة ، أن ميكا رائعة الجمال وأن جمالها أشعل فى صدره جذوة لا يعرف كنهها ، جذوة تشوى وجهه عندما يذكر اسمها أمامه . كان ذلك شيئا غريبا عليه غيّر مجرى حياته التى كانت حتى ذلك الوقت فاترة وبلا ارتباط . وتقبل دانييل (البوم) هذه الحالة بخضوع من يتقبل الأمور المقدرة . إنه لا يستطيع أن يتجنب التفكير فى ميكا كل ليلة عند النوم أو وهو يأكل اللبن

المحلى أيام الآحاد وأثناء الأعياد . وحمله هذا على الاعتقاد بأن ميكا ستكون للسعيد الذى يفوز بحبها واحة سلام عذبة هانئة .

وحاول (البوم) فى البداية التملص من هذا الضغط الداخلى الذى كان يهدّد استقلاليته التى ما كانت تقبل المساومة ، ولكنه تقبل فى النهاية حالة التفكير الدائم بميكا باعتبارها حالة مكملة له وباعتبارها شيئا يكّون جزءا حميميا من ذاته : تغيب عن البلدة فيسود الوادى فى عينيه وتبدو السماء والأرض جردابن مفزعتين رماديتين ، وتعود فيتغير الحال ويكتسب لونا آخر ، فخوار البقر يصير أحلى وخضرة الحقول تصبح أشّد إغراءً ، حتى غناء الشحارير يكتسب،بين العوسج ، نغمات أوضح وأكثر شفافية . كان يحدث وقتها ضرب من الانبعاث العجيب فى الوادى ، أو العرض المفعّل لإمكانياته ولعطوره ولأصواته ولهمساته التى تميزه . فكأن ليس للوادى من شمس غير عينى ميكا ، كأن ليس له من أنسام غير تلك التى تهّب مع كلماتها .

كان دانييل(البوم) يكتم اعجابه الشديد بميكا ويحافظ عليه فى سرّه ، لايشاركه فى معرفته أحد . مع ذلك فثمة شيء فى عينيه أو ربما فى صوته كان يفضح دواخله يصعب إسكاته .

كان أصدقاؤه معجبين كذلك بالفتاة : كان يعجبهم منها جمالها كما يعجبهم من الحداد قسوته ، ومن القس ، وهو القديس العظيم ، رقّة قلبه ومن كينو (الأقطع) ، قبل أن يعرف (البعرور) أنه بكى يوم ماتت زوجته ، فضلة يده . نعم كانوا هم أيضا معجبين بها .

ولكن إعجابهم كان من قبيل الإعجاب بالإشياء الجملية أو القوية التى لاتخلّف أثرا من بعدها . كانوا ، بلا شك ، يحسون فى حضرتها بما يشبه انفعالاجماليا جديدا لا يلبث أن يتبدد أمام زرزور صرعته مصيداتهم أو ضربة من مسطرة دون مويسيس المعلم .

وهكذا فان تولههم لم يكن دائما بل عابرا زائلا كالفرقعة .

لقد لاحظ دانييل (البوم) أن معنوياته وهى موجودة تختلف عن معنويات أصدقائه ، إنها حالة خاصة ، وإلا ، فلماذا لايفقد (البعرور) أو (الأقرع) ثلاثة كيلو غرامات من وزنهما عندما تسافر ميكا إلى أمريكا أو كيلو غرامين إن هى اكتفت بالسفر إلى المدينة ؟ ولماذا لايستعيدان ما فقداه من وزن ويزيدان عليه كيلو غراما واحدا إن هى عادت إلى الوادى لتقيم فيه لمدة طويلة ؟ هنا يقوم البرهان على أن مشاعره نحو ميكا متميزة ومختلفة جدا عن مشاعر زملائه . وهم إن رسموا الصلبان وهم يتحدثون عنها أو أغلق (البعرور) عينيه وأطلق صافرة حادة قصيرة كما يفعل أبوه عندما يشاهد فتاة جميلة ، فما ذاك إلا من قبيل التظاهر المجرد والإعجاب السطحى وليس هو بالحركة الجياشة المتواصلة الصادرة من الأعماق .

وتحدثوا عصر أحد الأيام فى حقل البلوطة عن ميكا . ذكروها بمناسبة الحديث عن القتيل الذى يقال إنه مدفون من زمن الحرب تحت الشجرة المعمّرة وسط الحقل . قال (الأقرع) :

– لابد أنه صار رمادا ولم تبق منه ولاحتى العظام . أتعتقدان أنه عندما تموت ميكا ستنبعث منها رائحة كريهة كالآخرين وستصبح ترابا ؟

وأحس (البوم) بدفقة دم تصعد إلى وجهه وهّب غاضبا فكأن أحدهم شتم أمه :

– لا . ذلك غيرممكن أن تصدر عن ميكا رائحة كريهة ، ولا حتى عندما تموت .

واطلق (البعرور) ضحكة خبيثة وقال :

– يا لك من غبى . فعندما تموت ميكا ستصدر رائحة نتنة مثل أى آدمى .

ولم يستسلم (البوم) :

– إنها طيبة . ويمكن أن تموت برائحة القداسة .

– وماذا يعنى هذا ؟ – دمدم (البعرور)

– أنها رائحة القديسين .

واحتّد (البعرور) :

– هذا كلام فارغ . أو تظن أن للقديسين رائحة الكولونيا ؟ نعم ، هذا عند الرب ولكن ليس عندنا نحن الذين نشم بأنوفنا . عندك دون خوسيه ، لا أظن أن هناك قديسا مثله ، ولكن ، ألا تنبعث من فمه رائحة كريهة ؟ إنه قديس قدر ما تريد ، ولكنه عندما يموت ستنبعث منه رائحة كريهة كما هو حال ميكا وحالك وحالي وحال جميع البشر .

وغيّر جيرمان (الأقرع) مجرى الحديث ، وكان قد مر أسبوعان على حادثة سطوهم على مزرعة (الأمريكى) . قلب (الأقرع) عينيه ليتكلّم فقد كان الكلام يكلفه جهدا كبيرا وكان أبوه الاسكافى يقول عنه إن الافكار تتسرب من قرعته . سأل فجأة :

– هل دققتم . . . هل دققتم فى جلد ميكا ؟ كأنه من حرير .

– هذا يسمى بشرة . . . يقال « عندها بشرة » – قال (البعرور) موضحا ثم أضاف – : ميكا هى الوحيدة التى لها بشرة ناعمة فى البلدة .

وأحس دانييل (البوم) بسعادة كبيرة وهو يسمع بأن ميكا هى الوحيدة التى لها بشرة ناعمة فى البلدة ، وقال باستحياء :

– إن جلدها يشبه تفاحة صقيلة .

وواصل (البعرور) كلامه :

– خوسيفا ، التى انتحرت بسبب (الأقطع) ، كانت سمينة ، مع ذلك فقد كانت لها ، حسبما يقول أبى وسارة ، بشرة ناعمة .

الكثيرات فى المدن يمتلكن بشرة ناعمة ، أما فى القرى فالأمر مختلف لأن الشمس تحرق الجلد والماء يجعّده .

كان جيرمان (الأقرع) يعرف شيئا من ذلك ، فقد كان لديه أخ فى المدينة ، وكان هذا الأخ يحكى له أشياء كثيرة عن المدينة عندما يزورهم فى بعض السنين أيام أعياد الميلاد :

– ليس هذا هو السبب – قال مقاطعا بنبرة من يمتلك معرفة مطلقة –

أنا أعرف لمـاذا . لأن الآنسات الصغيرات يضعن فى الليل الدهون ويتناولن العقاقير التى تزيل التجاعيد .

ونظر إليه الاثنان الآخران ببلادة :

– بل أعرف أكـثر من هذا . خفض صوته بينمـا اقترب منه صاحـباه مدفوعين بجو التكتم الغامض الذى أشاعه – .

هل تدريان لمـاذا لايتجعد جلد ميكا ولمـاذا تحافظ على بشرتها ناعمة طرية كالأطفال ؟

وامتزج استفهامهما فى صوت واحد :

– لمـاذا ؟

– لأنها تضع حقنـة شرجية كل ليلة قبل النوم ، وهـو ما يفعله أهل السينما . هذا ما يقوله أبى ، وقد قال دون ريكاردو إن هذا يمكن أن يكون صحيحا لأن الشيخوخة تخرج من البطن ، ولأن الوجه يتجعد عندما تمتلئ المصارين بالأوساخ .

وما كان أشد وقع هذا القول على دانييل (البوم) . لقد راحت ميكا والحقنة الشرجية ترسمان فى مخيلته صورة مهينة . « إنهما طرفا نقيض غير قابلين للالتقاء » . لكنه تذكر فجأة مـا كان دون مويسيس المعلم يقوله دائما من أن النقيضين قد يلتقيان ، فأحس بكآبة عمـيقة وكأن شيئا ما يغادر بدنه متدفـقا . فكلام (الأقرع) إذا صحيح ووارد تماماً . ولكنه ، عندما رأى ميكا بعـد يومين من ذلك ، شعر أن تلك الصـور الوضيعـة قد تلاشت ، وأدرك أن ريكاردو والإسكافى وجيرمان (الأقـرع) وجميع أهل البلدة إنما يقولون مـا يقولون عن الحقنـة الشرجيـة لأن أمهاتهم ونسـاءهم وأخواتهم وبناتهم لايمتلكن بشرة ناعمة كبشرة ميكا .

كانت صورة الفتاة ترافق (البوم) فـى جده ولهوه ، لقد استحكمت صورتها فى رأسـه حتى أصبحت هاجسـا ، وما كان يقدّر حـينها أن ميكا تكبره بعشرة أعوام ، وبـما كان يقلقه أنهما ينتميان إلى طبقتين اجتماعيتين مختـلفـتين . وإن أسف على أنه ولد فقـيرا وولدت هى غنيـة ، وعلى أن

والده الجبان لم يهاجر إلى الأمريكتين كأبيهما خيراردو ، الابن الأصغر للسيدة ميكائيلا ، ولو أنه فعل ذلك لامتلك مطعمين فاخرين ومحلا لأجهزة الراديو وثلاث بواخر ملاحية ، أو على الأقل معرضا تجاريا للاجهزة الكهربائية المنزلية كذلك الذى يديره « خيال الأمريكى » فى المدينة . فلو أنه امتلك مثل ذلك المعرض لما فصله عن ميكا غير المطعمين والبواخر الثلاث ، وفضلا عن هذا وذاك ، محل أجهزة الراديو ، وما هو بالشيء التافه القليل .

ومع إعجاب (البوم) بميكا وحبّه لها ، فقد مرّت سنوات قبل أن يتمكن من الكلام معها ، إذا استثنينا بالطبع التوبيخ الرقيق يوم حادثة التفاحات . كان يكتفى بوداعها والترحيب بها بنظرة حزينة أو مشرقة تبعا للظروف ، حتى حدث صباح يوم صيفى أن حملته إلى الكنيسة فى سيارتها ، تلك السيارة الطويلة السوداء اللامعة التى ما كانت تصدر صوتا أثناء سيرها . لم يكن هو قد أكمل العاشرة ، ولم يكن أمامه سوى عام واحد للدخول إلى المدرسة وبدء مسيرة التقدم . أما هى فكانت قد أكملت التاسعة عشرة دون أن تؤثر السنوات الثلاث التى مرّت منذ ليلة التفاحات على بشرتها الناعمة ولا على وجهها ولا على جسمها ، بل لقد جعلت بشرتها ووجهها وجسمها أكثر تناسقا واكتمالا .

كان يرتقى العقبة وقد أتعبته شمس أغسطس بينما كانت تتلاحق فى أرجاء الوادى أجراس الإعلان الأخير عن القداس . كان ما يزال أمامه نحو من كيلو متر واحد ، فراح يحث الخطى للوصول قبل أن يبدأ دون خوسيه بقراءة الإنجيل . وفجأة سمع بوق سيارة ميكا السوداء قريبا منه . والتفت مفزوعا فتلقته من لدن الفتاة ابتسامة صادقة غير متوقعة . وشعر دانييل (البوم) بخدر وتساءل إن كانت ميكا ما تزال تذكر المحاولة الفاشلة لسرقة التفاح . لكنها لم تشر إلى ذلك الفصل المؤلم .

– هل أنت ذاهب إلى القدّاس ، أيها الصغير ؟

وفقد (اليوم) لسانه فلم يردّ بغير حركة من رأسه . فتحت بنفسها باب السيارة ودعته :

– اصعد فالوقت متأخر والجو حار .

وعندما ثاب دانييل (اليوم) إلى وعيه وجد نفسه جالسا إلى جنب ميكا يستعرض الأشجار وهي تمر مسرعة من خلف زجاج السيارة .

وأحس قرب الفتاة في عروقه وفي ضغط أعصابه المضطرب . كان ذلك يبدو كالحلم الذي يؤلم ويوجع وهو في قمته . « ربّاه – فكّر – هذا يفوق ما كنت أتصوّره ، وتسمّر وتيبّس لما داعبت بيدها الناعمة قفاه ، وسألته برقة :

– ابن من أنت ؟ .

وتلعثم (اليوم) وهو يجاهد أعصابه :

– ابن . . . بائع الجبن .

– ابن سلفادور ؟

وخفض رأسه موافقا ، وقدّر أنها كانت تبتسم . وفكر ، لما لامس جلدها الناعم قفاه ، أن الفتاة تمتلك بشرة حتى في راحة يدها .

وبدأ برج الكنيسة يلوح من بين الأشجار .

– هل يمكنك أن تأتيني بقطعتين من جبن القشدة هذا العصر – قالت .

وعاود دانييل (اليوم) اجابته الآلية برأسه بعد أن أعياه الكلام . ولم يحدد وهو يصلي ، مكان رأسه من مكان قدميه ، فأدى علامة التصليب مرتين في غير وقتها بينما راح أنخل ، عريف الحرس المدني ، يضحك بانفعال مغطيا وجهه بقبعته المثلثة وهو يرى سوء أداء الصغير .

وفي العصر ارتدى ثيابه الجديدة وصفّف شعره وغسل ركبتيه وانطلق إلى بيت (الأمريكي) حاملا الجبن . وذهل وهو يتأمل فخامة بيت ميكا :

أثاث لامع وأرضية صقيلة ناعمة فكأن لها ، هي الأخرى ، بشرة ناعمة .

ومع ظهور ميكا أضاع (البوم) ما جمع من شجاعة أثناء الطريق ، وبينما تتفحص الجبن وتدفع له ثمنه راحت تطرح عليه السؤال تلو السؤال . إنها فتاة بسيطة لطيفة ولاتتذكر إطلاقا حادثة التفاحات المزعجة . سألته :

– ما اسمك ؟

– دا . . . دانييل

– هل أنت تلميذ في المدرسة ؟

– نعم .

– هل عندك أصدقاء ؟

– نعم .

– ما أسماؤهم ؟

– الـ . . . (بعرور) والـ . . . (اقرع)

وأبدت الفتاة إيماءة امتعاض وقالت :

– ما هذا ؟ لماذا تدعو أصدقاءك بهذه الأسماء القبيحة ؟

وارتبك دانييل (البوم) وأدرك أنه ردّ بغباء ومن دون تفكير . كان عليه أن يقول إن أسماءهم هي روكيتو وجيرمانين . فميكا فتاة رقيقة مهذبة وقد جرح بألفاظه تلك أحاسيسها . وندم في أعماق نفسه على تسرعه ، وشعر في تلك اللحظة ، أمام وجه ميكا الباسم الجذاب . بأن فكرة الذهاب إلى المدرسة للتقدم تروق له . سيجتهد في دراسته ، وقد يكسب بعد ذلك أموالا طائلة ، وعندها سيكون وميكا على قدم المساواة وسيمكنه الزواج منها وربما ستلقى ماريوكا – أوكا بنفسها ، بعد سماعها بزواجه ، إلى النهر عارية كما فعلت خوسيفا يوم زفاف كينو . ولازمه شعور بالارتياح والحماس وهو يفكر في المدينة وفي أنه قد يصبح في يوم من الأيام رجلا ذا شأن وخطر وفي أن ميكا ، هكذا ، ستفقد مسافتها وستكون

على مسقربة من امكانياته . سيترك ، عندها ، عادة النطق بالالقاب والكلمات البذيئة ، ولن يتبادل الضرب مع أصدقائه بالشروث اليابس بل سيفوح منه أريج العطور الثمينة بدلا من رائحة القريش . ولن تعامله ميكا ، حينها ، معاملة الصبي القروى غير المهذب .

عندما غادر دانييل (البوم) بيت (الأمريكى) كان الوقت ليلا ووجد الفتى أن التفكير فى الظلمة يبعث فى نفسه المتعة . ولكنه فزع عندما شعر بأصابع تضغط على لحم يده . كانت أصابع اوكا – اوكا :

– لماذا تأخرت كل هذا الوقت فى ايصال الجبن إلى ميكا ؟

وساءه أن تفسد اوكا – اوكا عليه وحدته بهذه السهولة ، وألا تدعه وشأنه وهو ينضج أو وهو يفكر فى مستقبله .

وانتصب ، بظرف ، متعاليا :

– هلا تركتنى وشأنى وإلى الأبد أيتها التافهة ؟

كان يسير مسرعا وكانت ماريوكا–أوكا تجاريه عدوا وهو ينزل العقبة :

– لماذا ارتديت بدلتك الجديدة وأنت توصل الجبن ؟ أجبنى .

وتوقف هو فى وسط الطريق مغتاظا ، وفكّر للحظة فى صفع الطفلة قبل أن يقول لها :

– لا دخل لك أنت فى شؤونى . هل فهمت ؟

وردّت ماريوكا – أوكا بصوت مرتعش :

– الآن ميكا تعجبك أكثر منى ؟

فأطلق (البوم) قهقهة واقترب من الطفلة صارخا فيها :

– اسمعى . ميكا هى أجمل فتاة فى الوادى . إنها ذات بشرة ناعمة ، أما أنت فقبيحة كجوزة الهند ووجهك مليء بالنمش ، ألا ترين الفرق ؟

وواصل طريقه إلى البيت ، أما ماريوكا – اوكا فتوقفت عن متابعته وجلست على جانب الطريق الأيمن ثم أخفت وجهها الصغير المنمش بين يديها وراحت تبكى بكاءً مرّا .

الفصل الرابع عشر

ليقل الآخرون مايحلو لهم ، فليس أحد بقادر على منعهم من ذلك ، ولكن ليس كل ما يقول هؤلاء عنهم هو الحقيقة . فلا الذنب كله يقع على روكى (البعرور) ، ولاهم يريدون أكثر من قضاء الوقت على أفضل وجه ممكن . أما الا تروق طريقتهم فى قضاء الوقت لـ (الفلفلة) الكبرى وللجبّان ولدون مويسيس المعلم فذلك شئ آخر . ولكن من يستطيع أن يقرر أن السبب فى ذلك لا يكمن فى سلوكهم الشيطانى بل فى غرابة طبع الفلفلة والجبّان والبيدق ؟ فالناس تنحى باللائمة مباشرة على الصغار وإن صدر غضب الكبار فى أحيان كثيرة عن طبيعتهم النزقة المرتابة لا عن أفعال الصغار الخبيثة . خذ باكو الحداد مثلا . أنه يفهمهم لأنه يتمتع بصحة جيدة ومعدة صحيحة ، بينما لايفهمهم (البيدق) بسبب أحماضه ووجهه الملتوى وكبده المعلولة . أما أبوه الجبّان فإن حرصه الشديد على الإدخار يمنعه من رؤية الأشياء بمنظار متفائل منشرح وبالوضع الذى هى عليه عادة . أما (الفلفلة) الكبرى فلأنها فى نهاية المطاف صاحبة القط الذى تحبه وكأنه ثمرة غير منطقية لبطنها اليابس . كما لا ذنب لهم فى أن تحمل (الفلفلة) ذلك الشعور الودود وغير المنتظم تجاه الحيوان ، ولافى أن يدخل القط الواجهة الزجاجية عندما تطل الشمس بوجهها المحتقن الأشقر على الوادى فى غفلة من الغيوم . لا ذنب لأحد فى ذلك حقا . ولكن دانييل (البوم) يستنتج أن الأطفال يحمّلون وزر كل ما لا يقع وزره على أحد ، وأنهم لايستطيعون من ذلك خلاصا .

أما ماجرى للقط فلم يكن خارجا على المألوف . ولو أن القط كان لانطونيو (الحوصلة) أو حتى للأرنبات لما حدث شئ ، أما الفلفلة فإنها ميّالة لإثارة الفضائح ، وهى بحبها للقط تبدى نزعة مريضة وغير طبيعية فيها ، فلو كانت الفعلة خطرة أو كان فيها مقدار ذرة من الخطيئة لما ضحك دون خوسيه القس كل ذلك الضحك عندما حكيت له . لقد كان الحيوان بخروجه إلى الواجهة الزجاجية للتشمس يبحث عن المشاكل ، وإن كانت هذه العادة ، من ناحية أخرى ، تمثل مكسبا اقتصاديا جيدا لـ (البوم) وأصدقائه . فقد كانت (الفلفلة) تسألهم حين يذهبون إلى محلها لشراء ريال من الكعك المحمّص :

- أتريدون من كعك العلبة أم من الكعك الذى داسه القط ؟

فيردّون عليها دائما :

- من الكعك الذى داسه القط .

فالكعك الذى داسه القط كان للعرض ، ومنه كانت (الفلفلة) الكبرى تبيع كل أربع بريال ، بينما تبيع كل اثنتين بريال إذا كانتا من العلبة . وماكان يهم الأولاد كثيرا أن يكون القط قد داس الكعكات ، بل لم يكن القط أحيانا يكتفى بأن يدوس الكعك ، وماكان ذلك يقلقهم كثيرا ، فأربع خير من اثنتين دائما ومهما كانت الأحوال .

أما العدسة المكبرة فقد كان جيرمان (الأقرع) هو من حملها إلى المدرسة صباح ذلك اليوم الربيعى . كان أبوه يحتفظ بها فى دكانه لفحص الأحذية . ولما كان نظر اندريس قويا فما كان يستخدمها إلا نادرا . كان سيستعملها لو أنها قدرت على رفع ثياب النسوة قليلا ولكنه كان يقول : «لاداعى لاستخدام آلات لرؤية السيقان أغلظ مما هى عليه» .

وقام الأولاد صباح ذلك اليوم بكل أنواع التجارب مستخدمين عدسة جيرمان (الأقرع) المكبرة . فأحرق روكى (البعرور) ودانييل (البوم) سيجارتين رديئتين مصنوعتين من ورق البطاطا بعد أن ركزا أشعة الشمس عليهما ، ثم تفحصا الندب ، التى بدت من خلال الزجاج الغليظ تضاريس مرعبة غير منتظمة . ثم عاين كل منهما عين الآخر ولسانه وأذنيه حتى تعبا منها ومن الصور الغريبة التى كانت تحدثها .

وبينما كان الأولاد يقطعون البلدة فى طريق العودة إلى بيوتهم من المدرسة شاهدوا قط الفلفلات متكورا على صحن الكعك فى أقصى الواجهة الزجاجية من الدكان . كان يغط فى نوم هانئ وهو يعرض كرشه الأسود المشعر للشمس وينعم بالدفء . واقتربوا ففتح مرتابا عينا خضراء مدورة مرعبة . ولكنه عاود إغماضها مطمئنا إلى الحماية التى يكفلها له زجاج الواجهة وبقى ساكنا مستلقيا . ليس فى مقدور أحد أن يعين على الدماغ المكان الذى تولد فيه الأفكار العظيمة . ولا حتى دانييل (البوم) يقدر أن يقول صادقا فى أية ثنية أو فى أى ركن من دماغه ولدت فكرة توسيط العدسة المكبرة بين الشمس وكرش القط الأسود . لقد ولدت الفكرة فى رأسه ولادة عفوية ، بل تكاد تكون طبيعية ، شئ من قبيل تدفق المياه من النبع . لقد تركزت أشعة الشمس على شعر القط الأسود مؤلفة لثوان خالا بُراقا . وراح الأصدقاء الثلاثة ينتظرون حدوث العملية الفيزياوية ، ولاحظوا كيف أن طبقة الشعر العلوية بدأت تطلق شررا بينما الحيوان ملتزم بوضعه الحالم الهانئ . وفجأة ارتفع من الخال النارى المثبت على الكرش الداكن خيط من الدخان فانتفض قط الفلفلات فى قفزة بهلوانية مصحوبة بمواء وحشى :

- مارراميارو . . . مياوورو . . .

ثم راح المواء المتألم يخفت شيئا فشيئا في داخل المحل .

ومن دون سابق اتفاق ، انطلق الأصدقاء الثلاثة يعدون ، ولكن (الفلفلة) الكبرى كانت أسرع منهم . وأطلت بوجهها المعكر من الباب قبل أن يفلح الصبيان في الاختفاء نزولا من العقبة . كانت ترفع قبضتها عاليا باكية وهي تحس بالغضب والعجز :

- يا أنذال ، ياسفلة ، ومن سواكم يفعل هذا ؟ لقد أحرقتم القط ولكني سأنتقم منكم وستذكرون ذلك .

وتذكرونه فعلا . فقد فاقت فعلة دون مويسيس المعلم بهم فعلتهم بالقط ، وأنزل بهم عقوبة الاعتبار ، فكان (البوم) يسأل نفسه : «لماذا نعاقب بدرينة من ضربات المساطر في كل يد وبالبقاء طول النهار حاملين مجلد «التاريخ المقدس» الضخم بلوحاته الملونة التي تزيد على المائة لمجرد أننا أحرقنا القط ؟ ولماذا لايفرض أحد على من يخضعنا إلى هذا العقاب المتعسف عقوبة أشد لنصل هكذا ، من عقوبة لأخرى ، إلى عقوبة الإعدام؟» ولكن لا . فمع أنه مصيب في حجته فلابد أن يحل العقاب به دائما . فهذا هو حال النظام التربوي القائم وهكذا تجب طاعته بإذعان . إنها عدالة الرجال المبنية على المزاج وغياب المنطق وانعدام المساواة .

وتمر الدقائق بطيئة ، إن ركبتاه تؤلمانه وساعده يرتجف ، إنه يحس بوخز الأعصاب فيه وهو يرفع «التاريخ المقدس» عاليا ، وراح (البوم) يفكر في أن التجارة الوحيدة الرابحة في الحياة هي أن يعجل في ترك مرحلة الطفولة والانتقال إلى مرحلة الرجولة . في هذه الحالة فقط سيكون في إمكانه

مطمئنا حرق قط بعدسة مكبرة دون أن تهتز قواعد البلدة الاجتماعية ودون أن يتعسف المعلم مويسيس فى استخدام صلاحياته دون أن يتعرض بدوره للعقاب .

وماذا عن حادثة النفق ؟ لقد نتج عن حادثة العدسة المكبرة سقوط ضحية بريئة هو القط ، أما فى حادثة النفق فلم تسقط أية ضحية . ولو قدر لضحية أن تسقط لكانوا هم الضحية . مع ذلك فقد انهال الضرب على راحتهم وأمضوا الساعات راكعين على ركبهم وحاملين «التاريخ المقدس» بأيديهم المرفوعة دائما فوق رؤوسهم . ياله من عمل غير إنسانى ، إنه بالمختصر المفيد استغلال واضح للسلطة . أما كان دون مويسيس (البيدق) سيرتاح لو أن القطار السريع جرفهم ثلاثتهم ذلك المساء ؟ فلماذا عوقبا إذا ، هل لأن القطار لم يجرفهم أمامه ؟ لقد كانوا فى الواقع فى ورطة ، وكان الموقف صعبا : فإما الموت تقطيعا بين عجلات القطار وإما قضاء ثلاثة أيام ركوعا على الركبتين ، و«التاريخ المقدس» بلوحاته الملونة التى تزيد على المائة مرفوعا فوق مستوى رؤوسهم .

روكى (البعرور) هو الآخر لايحسن تحديد المكان الذى انبثقت منه تلك الفكرة الغريبة :

فكرة نزع السراويل الداخلية داخل النفق وانتظار القطار السريع هناك . كانوا من قبل ينتظرون القطار المختلط أو قطارا المحافظات داخل النفق ، ولكن هذين القطارين بطيئان ولايحدث مرورهما فى النفق المظلم إلا تأثيرا طفيفا فى نفوسهم . فكان لابد إذا من الإبداع . واقترح روكى عليهم هذه التجربة الجديدة : أن ينتظروا القطار السريع داخل النفق ويتغوطوا ثلاثتهم مع مروره .

وأبدى دانييل (البوم) اعتراضا حكيما قبل أن يوافق ، قال :

– ومن لاتحدث عنده رغبة ؟

فرد عليه (البعرور) بحزم :

– ستحدث بمجرد أن يحس باقتراب القطار .

وناقشوا مسألة وضع السراويل . ولو أنهم أحسنوا التصرف فى هذه النقطة لما افتضح أمرهم ، ولو أن الشمس قبلها لم تشرق يوم حمل (الأقرع) العدسة إلى المدرسة لما حدث ماحدث . ولكن ثمة كيانات شيطانية تطير فى الهواء دائما وتتلذذ بتعقيد أفعال الأطفال البريئة وتعقيد كل ماهو بسيط وطبيعى .

فمن ذا الذى كان يفكر فى مصير سرواله وهو الذى يغامر بمصيره ذاته ؟ وهل يلتفت مصارع الثيران إلى قطعة القماش عندما يكون القرنان على بعد شبرين من ردفيه ؟ وحتى لو مزق الثور تلك القطعة فلن يسمع المصارع توبيخا من أمه ولن ينتظره معلمه الغاضب ليعاقبه بدزينتين من المساطر وبالركوع على ركبتيه رافعا «التاريخ المقدس» فوق مستوى رأسه . ثم إن المصارع يكسب فوق هذا نقودا كثيرة ، أما هم فإنهم يغامرون دون أن ينتظروا مكافأة أو تصفيقا ، ودون أن يأملوا الحصول على مدخنة أو عجلة من عجلات القطار . إنهم يحاولون وحسب إثبات جدارتهم أمام أنفسهم ، فهل يستحق ذلك كل هذا العقاب الصارم ؟

ودخل القطار السريع النفق مصفّرا نافخا يطلق الشرر فتهتز لحركته الجبال والصخور . أما الأولاد الثلاثة فقد قعدوا القرفصاء ، شاحبى الوجوه مكشّفين عن أعجازهم على مقربة نصف متر من السكة . وأحس

دانييل (البوم) أن الأرض تميد من تحت قدميه ورسم علامة الصليب فى ذهنه . مر القطار يزأر من جنبه فلسع سوط من البخار الساخن مؤخرته ، وارتجت جدران النفق الذى عج بصخب حديد مدو . ومن بين قصف الحديد وهدير السرعة المحصورة بلغ سمعه صوت (البعرور) الجالس إلى جواره محذرا :

- امسكوا بركبتيكم .

وأمسك قويا بركبتيه تنفيذا لأمر الزعيم ولأن جذب القطار كان شديدا لايقاوم ، امسك بركبتيه واغمض عينيه وقلّص احشاءه . وأحس بسعادة وهو يرى أنه أنجز تماما ما طلبه روكى منه .

وبعد مرور القطار أطلق الأصدقاء الثلاثة ضحكات مكتومة . ونهض (الأقرع) وهو يسعل بعد أن امتلأ جوفه بالدخان ، ثم سعل (البوم) ، وأخيرا سعل (البعرور) . لم يكن (البعرور) فى يوم من الأيام البادئ بالسعال وإن شعر بالحاجة إلى ذلك . كانت ثمة منافسة غير معلنة بينهم حول هذه المسألة .

كانوا لايزالون يضحكون عندما صاح روكى (البعرور) منبها :

- السراويل غير موجودة .

وتوقفوا عن الضحك فى الحال . وقال (البوم) وهو يتحسس فى الظلام :

- لابد أنها هناك .

وقال الأقرع :

– احذرا لا تدوسا . . .

ونسى (البعرور) للحظة موضوع السراويل وسألهما :

– هل تغوطتما ؟

وامتزجت فى ظلمة النفق الداكنة ردود (البوم) و (الأقرع) المرضية :

– نعم .

– وأنا كذلك – أقر (البعرور) وضحك عندما تأكد من إجماع أحشائهم الغريب . ولم تظهر السراويل . وواصلوا التفتيش حتى بلغوا فتحة النفق . كانت أعجازهم ملطخة برذاذ السخام ، وكانت خشيتهم من فقدان سراويليهم تطبع على وجوههم علامة ذهول مضحكة . مع ذلك لم يجرؤ أحد على الضحك . ماكانت معرفتهم بأبوين ساخطين ومعلم قاس تترك لهم مجالا كبيرا للشعور بالابتهاج . ولاحظوا فجأة على مسافة أربعة أمتار إلى الأمام وفى وسط السكة ، خرقة مشوهة المعالم مسوّدة . تناولها (البعرور) وعاينها الثلاثة وأخيرا تجرأ (البوم) ليقول متمتما وبصوت خافت :

– إنها قطعة من سروالى .

أما بقية الملابس فراحت تظهر على طول الطريق قطعا صغيرة ممزقة . كانت قوة العصف قد انتزعت الملابس من مكانها ليتلقفها القطار بين حديده وليمزقها مثل وحش ضار . ولولا ذلك العارض ماعلم أحد بالمغامرة ، ولكنها الكيانات المنحوسة الطائرة على الدوام فى الفضاء تظهر من جديد لتعقد عليهم الأمور . بالطبع فإن عقوبة دون مويسيس مبررة حتى قبل

معاينة تصرفهم الشيطانى من كل جوانبه ، فهو متطرف فى العقاب دائما . ويبدو أن معاقبة التلاميذ كانت تمنحه متعة كبيرة ، فقد كان شدقه الأيمن ينفرج فى مثل هذه الحالات حتى يوشك على بلوغ سالفه قاطع الطريق السوداء .

ورّب سائل يسأل إن كانوا أثاروا فضيحة وهم يدخلون البلدة من دون سراويل؟ هذا ماحدث بالطبع . وماذا عساهم فاعلين فى مثل هذا الموقف ؟ هل كان يتوجب عليهم ، لمجرد أنهم أضاعوا سراويلهم ، عدم العودة إلى البلدة ؟ ما أفضح ماكان يعنيه عندهم ثلاثتهم وقوفهم دائما فى موقف القرار والاختيار بين مفترقات صعبة جدا . وكم كانت صعبة عليهم ماكانت تحدثه أشياؤهم من حدة فى دون مويسيس المعلم ، أشياؤهم التى ماكانت تعنيه من قريب ولا من بعيد .

الفصل الخامس عشر

طالما صرخ المعلم دون مويسيس أن حاجته إلى المرأة تفوق حاجته إلى الطعام . إنه يردد ذلك في البلدة منذ عشر سنوات ، مع ذلك فمازال محروماً من المرأة المنشودة (الفلفلات) ، و(الأرنبات) ودون خوسيه القس ، وهو القديس الكبير ، يقرّون بحاجته تلك وخاصة لدواعي مكانته الوظيفية . إذ لايمكن لمعلم الذهاب إلى المدرسة كيفما اتفق ، فليس المعلم جبّاناً ولا حدادا بل هو موظف ، وللوظيفة متطلباتها ، وأولى متطلبات الوظيفة أن يحصل الموظف على أتعاب كافية ، ولكن دون مويسيس لايتقاضى أية أتعاب ، فليس غريباً إذا أن يرتدى كل يوم بدلته البالية المرقعة التى جاء بها إلى البلدة من عشر سنوات خلت . وليس غريبا ألا يرتدى ملابس داخلية ، لأنها تكلف ماتكلفه إحدى العينين ، وهو بحاجة إلى كلتا عينيه لمواصلة عمله . ولاشك أن (الأرنبة) كاميلا أخطأت في حقه ، فقد شغف المعلم بها حبا في وقت من الأوقات ولكنها صدته بدعوى أن وجهه ملتو وأن فمه منحرف ، وبالها من حماقة . وقد أصاب باكو الحداد إذ قال إن ذلك ليس عيباً كبيرا لأن (الأرنبة) قادرة ، إن هي تزوجت منه ، على إعادة فمه إلى مركزه وتعديل وجهه بالإكثار من تقبيله . ولكن كاميلا لم تكن مستحسة للفكرة وكانت تكرر أنها لكي تقبل المعلم في فمه فإن عليها إن تقبله في أذنه وهي غير راغبة في ذلك . ولم يرد عليها باكو الحدّاد سلباً ولا إيجاباً ولكنه فكر في أن تقبيل رجل في أذنه ليس أسوأ من تقبيل أرنبة في مشفرها . وهكذا انتهى المسعى دون نتيجة ، وواصلت هي عملها في البذالة وواصل هو الذهاب إلى المدرسة يوميا دونما ملابس داخلية وبسترة تمزقت أطراف

أكمامها وامتلأت منطقة الكوع فيها بالثقوب . كان اليوم الذى عرض فيه روكى (البعرور) أفكاره على صاحبيه يوماً مشمساً من أيام العطلة بينما كان باسكوال ، عامل الطاحونة ، وأنطونيو (الحوصلة) يلعبان فى ملعب البولو .

– اسمع (بوم) ، لماذا لاتتزوج سارة من (البيدق) ؟ – قال (البعرور) فجأة .

ومرّت لحظة أحسّ دانييل فيها وكأن أبواب السماء انفرجت . فكيف لم تخطر هذه الفكرة البسيطة المناسبة على باله من قبل ؟ فأجاب :

– حقا لماذا لا يتزوجان ؟

وأضاف (البعرور) فى صوت منخفض :

– فلكى يتزوج اثنان يكفى أن يتفقا على أمر من الأمور ، وسارة و (البيدق) يتفقان على أن أيا منهما لايطيق النظر الىّ ولو فى الصورة .

وبدأ (البعرور) لدانييل (البوم) مخلوقاً ذكياً . لم يكن قادراً على تغيير نبرة التعجب فقد بدا له كل ذلك صحيحا تماما وباعثا على التأمل :

– حقاً .

وواصل (البعرور) كلامه قائلاً :

– تصور وضعى وأنا مع أبى فى البيت وحيدين بلا سارة ، وفى المدرسة حيث سيرعاتى دون مويسيس دائما لكونى شقيق زوجته ، بل سيرعاكما لكونكما خير أصدقاء شقيق زوجته . أظن أن الصورة واضحة ؟ كان إصرار (البوم) يعكس حماسه الطاغى :

– بالطبع .

وكرر (الأقرع) وقد أصابته عدوى التعجب :

– بالطبع .

وهزّ (البعرور) متشككاً رأسه :

– ولكن المهم أن يكونا راغبين فى الزواج .

– ولماذا يمانعان ؟ – قال (البوم) . فمنذ عشر سنوات و (البيدق) يبحث عن امرأة . أما سارة فلن تمانع أن يغازلها رجل فأختك ليست جميلة .

– إنها قبيحة كالشيطان . أعرف ذلك . ولكن (الأرنبة) قبيحة هى الأخرى ؟

وسأل (الأقرع) :

– هل تؤمن سارة بالوساوس ؟

قال (البعرور) :

– على الإطلاق . فلو أن ذبابة سقطت فى اللبن لضحكت وقالت لها : «استعدى للرحلة» ثم تشربها مع اللبن وتعاود الضحك كأن شيئا لم يكن .

– وإذا ؟ – سأل (الأقرع) :

– الذبابة لن تضايقها من جديد لأنها شىء عابر ، ولكن الزواج مختلف – قال (البعرور) .

وظل الثلاثة صامتين هنيهة وبعدها قال دانييل (البوم) :

– لماذا لاترتب موعدا بينهما ؟

– كيف ؟ سأله (البعرور) .

ونط (البوم) نافضًا التراب عن ردفيه :

– تعالا معى وستريان .

خرج الأولاد من الملعب إلى الطريق العام . كان جواب صاحبهم يوحى بإثارة محمومة – سنكتب رسالة لـ (البيدق) عن لسان سارة ، أتفهمانى ؟ . أختك تخرج عصر كل يوم إلى الباب للتطلع إلى المارة . سنقول له إنها تنتظره . وعندما يذهب هو ويراها سيظن أنها تنتظره حقا .

وبدت على وجه روكى (البعرور) علامات التجهم والغضب ، وهو مايبدو عليه عادة عندما لايكون مقتنعا تماما :

– وأن تعرف (البيدق) على الخط ؟

– سنغيّره – تدخّل (الأقرع) مندفعاً .

وأضاف (البعرور) :

– وإن أطلع سارة على الرسالة ؟

وتروّى دانييل (البوم) قليلا :

– سنقول له أن يحرقها قبل أن يذهب للقاء سارة وألا يذكر لها شيئاً عنها إن هو أراد ألا تموت الفتاة حياء وشاء أن تعاود النظر إليه .

– فإن لم يحرقها ؟ – عاود (البعرور) السؤال .

– سيحرقها – قال (البـوم) . لأن (البيدق) المقرف يخشى ، وقد صار كهـلا ، أن يبقى دون زواج ، فضـلا عن أنه يعلم أن فمـه أعوج وأن هذا عيب فيه وأن النساء لايرغبن فى تقبيل رجل فى أذنيه كما قالت (الأرنبة) .

وأضاف (البعرور) وكأنه يكلم نفسه :

– إنه لن يرفض بسـبب ماجرى له من قـبل . فمازالت فـيه بقـية من الخوف منذ أن خيبت كاميلا أمله . معك حق .

كانت الثقة تنبعث فـى صدره العريض شيئا فشيئـا . فها هو يرى نفسه من دون سارة فى البـيت ومن دون تهديد مـسطرة (البيـدق) فى المدرسة ، متمتعا بالاستقلال الذى لم يعرفه من قبل ، قال :

– متى نكتب الرسالة إذا ؟

– الآن .

ودخلوا معمل الجبن ، وكانوا يقفون قبالته . وتناول (البوم) قلما وورقة وكتب بحروف كبيرة : «دون يسـيس . إن كنت فى حاجة إلى امرأة ، فأنا فى حاجـة إلى رجل . سأنتظرك الساعـة السـابعة عند باب بيـتى . لاتذكر شيئا عن هذه الرسالة . أحرقها وإلا مُت من شدة الحياء وامتنعت من النظر إلى وجهك ثانية . تصنّع أنك التقيت بى صدفة . سارة» .

وحشـر جيـرمان (الأقـرع) الرسـالة سـاعة الغـداء مـن تحت باب بيت المعلم .

وفى السـاعـة السـابعـة إلا ربعـا دخل (الأقـرع) و (البـوم) إلى بيت (البعرور) لمراقبة الأحداث من كوة المتبن .

ومع أن الخطة كانت محكمة الإعداد فقد حدث ماهدد بإفشالها . كان (البعرور) عند وصولهما محبوساً كالعادة فى المتبن . وقدر دانييل أن (البيدق) الذى يبحث منذ عشر سنوات عن زوجة لن يتأخر دقيقة واحدة عن السابعة .

كان صوت سارة ينساب من فتحة السلم . ومع أن دانييل (البوم) كان سمع تلك الاسطوانة آلاف المرات ، فإنه لم يستطع تجنّب الإحساس بالرعشة :

– عندما تسمّر عيناى الزجاجيتان الجاحظتان نظراتهما الواهنة المحتضرة فيك فرقا من الموت الوشيك . . .

ولابد أن (البعرور) كان يعرف أن الساعة تقترب من السابعة لأنه كان يرد بسرعة دون أن ينتظر انتهاء سارة من جملتها :

– رحماك يايسوع !

وتوقفت سارة عندما سمعت وقع خطوات (البوم) و (الأقرع) وهما يصعدان السلم .

– مرحبا سارة . – قال (البوم) مستلهفا – اصفحى عن (البعرور) . إنه لن يعود إلى فعل ذلك .

– وما أدراك أيها الفضولى بما فعل ؟ – قالت .

– لابد أنه قام بفعل سئ . فأنت لا تعاقبينه أبداً دون سبب لأنك عادلة .

وتبسمت سارة راضية .

– انتظر لحظة – ثم استمرت على عجل متلهفة لبلوغ قمة عقابها .

– عندما أفقد حواسي ويختفي العالم من ناظري وأئن تحت وطأة النزع الأخير ومغالبة الموت . . .

– رحماك يايسوع . سارة هل انتهيت ؟

وأغلقت هي كتاب الصلوات :

– نعم .

– هيا افتحي .

– هل اعتبرت ؟

– نعم سارة . لقد اخفتيني اليوم .

ونهضت سارة وفتحت باب المتبن وقد بدت عليها علامات الرضى . وبدأت بنزول السلم ببطء ، والتفتت عند الدرجة الأولى وقالت ، وقد اهتزت لهاجس غامض يلفها :

– حذار أن تخبثوا .

وخف (البعرور) و (البوم) و (الأقرع) صوب الكوة دون أن يتفوّهوا بشيء . وأزاح (البعرور) بيده نسيج عنكبوت ليطل على الشارع . وسأل (البوم) متلهفاً :

– هل خرجت ؟

– إنها تخرج الكرسي ولوازم الخياطة . . . إنها تجلس – واختنق صوته فجأة :

– (البيدق) قادم من ناحية الشارع . . .

وراح قلب (البوم) يرقص كالمجنون . إنه ليسرع أكثر مما كان عليه لحظة سماع صفارة القطار وهو يدخل النفق بينما هو بالانتظار من دون سروال . كما أنه ليسرع أكثر مما كان عليه عندما سألت أمه أباه مستغربة إن كان الدوق الكبير قد حلّ عليهم ضيفاً كريماً . أما حادثة اليوم فإنها أكثر تأثيراً وأهم من كل ذلك . ووضع (البوم) وجهه بين وجهي صاحبيه ورأى دون مويسيس يتوقف قبالة سارة وقد أمال جسمه قليلا ووضع يديه خلف ظهره . كان يغمز لها بإحدى عينيه ويبتسم لها فارجا فمه من ناحيته اليسرى حتى أذنه ، أما سارة فكانت تنظر إليه مستغربة ثم مضطربة لكثرة غمزاته وابتساماته الجانبية . وتمتمت :

– مساء الخير ، دون مويسيس . ماذا جرى ؟

وعندها جلس على الدكة الحجرية إلى جانبها وعاود سلسلة الإيماءات السريعة بفمه للتعبير عن سعادته .

كانت سارة تراقبه مستغربة . قال :

– ها أنا ذا أيتها الصغيرة . لم أتخلف عن الموعد ، أليس كذلك ؟ أما عن بقية الأمور فلن أنطق بكلمة . لا تقلقي .

كان المعلم يجيد الكلام . وإذا لم يوجد في البلدة اتفاق على أفضل المتكلمين فقد كان هناك اتفاق على أن المرشحين هم دون خوسيه القس ودون مويسيس ودون رامون العمدة . وأربك صوت (البيدق) العذب الغريب ولغته الغامضة التي كان تستعملها الفتاة . فسألته :

– هل . . . جرى لك اليوم شيء دون مويسيس ؟

ولم يرد عليها ، بل عاود الغمز ليوحي لها بالتفاهم والمواطأة .

وهناك فى كوة المتبن همس (البعرور) فى أذن (البوم) :

– ياله من خنزير مهذار . إنه يتكلم عما لايجب الحديث عنه .

– اسكت .

وانحنى (البيدق) فى هذه اللحظة نحو سارة وأخذ يدها بجرأة :

– إن أشد ما يعجبنى فى النساء هى الصراحة ياسارة ، فشكرا لك . أنا وأنت لسنا بحاجة إلى لف ولا إلى دوران .

واحمرّ وجه الفتاة بما فاق حمرة شعرها . وسحبت يدها من يده لما رأت (الفطساء) تقترب وهى تحمل جرة الماء على كتفها . مع ذلك فقد قالت وهى فى نشوة لذيذة مكتومة :

– دون مويسيس ، سألتك الله ، فقد يرانا أحد .

أما الأولاد الثلاثة فكانوا فى كوة المتبن يبتسمون ببلادة دون أن يتبادلوا النظرات . وعندما طوت (الفطساء) عطفة الشارع عاود (البيدق) نشاطه :

– هل تريدين أن أساعدك فى خياطة هذا ؟ – قال .

وأمسك بيديها كلتيهما هذه المرة . وتنازعا . وأخفت سارة القطعة التى كانت تخيطها دونما إرادة بعد أن ضايقها فرط الخجل . ودمدمت :

– أبعد يديك ، دون مويسيس .

وضحك (البعرور) من مكمنه بصوت خافت :

– خى ... خى ... خى ... إنه سروال داخلى .

وضحك صاحباه كذلك . ولم يفلح اضطراب سارة وغيظها الظاهر فى إخفاء تلذذها الجارف . وعندها بدأ (البيدق) يسمعها كلاما جميلا عن عينيها وعن فمها وعن شعرها دون توقف ودون أن يمنحها فرصة لالتقاط أنفاسها . ومن بعد فرسخ كان يلاحظ أن قلب سارة البكر ، المحروم من تذوق طعم الغزل ، كان يذوب كما الثلج تحت حرارة الشمس . وبعد انتهائه من ترتيل سلسلة كلمات الغزل راح المعلم ينظر عن كثب ويحدق فى سارة . ثم قال :

– هل تعلمين الآن كيف هى عيناك أيتها الصغيرة ؟

وضحكت هى ببلادة :

– ما أظرف كلامك دون مويسيس .

وعاود هو الكرّة . كان يلاحظ أن سارة كانت تتجنب الكلام لكى لاتخيب بعباراتها السوقية ظن (البيدق) فيها ، وهو الذى يعد بين أفضل المتكلمين فى البلدة . ولابد أنها كانت تحاول أن تتذكر شيئاً من الكلام الجميل الذى كانت قرأته . كلاماً رفيعاً وشاعرياً ، ولكن ما خطر على بالها كان هو ذاته الذى طالما رددته :

– عيونى . . . عيونى . . . زجاجية جاحظة ، دون مويسيس – قالت وهى تطلق ضحكات قصيرة ومنفعلة .

وبدت الفتاة على أفضل حال . لم تكن سارة ذكية . كانت تظن أن تلك النعوت ، لمجرد ورودها فى الكتب ، هى مما يناسب الملائكة أكثر من مناسبتها لبنى البشر ، لذلك فقد بدت مرتاحة . وفسرت علامة الاستغراب التى ارتسمت موجزة على وجه المعلم بأنها دليل على أنه فوجئ عندما تبين

له أنها ليست جاهلة فظة كما تصورها . أما (البعرور) فتساءل من مكانه المرتفع :

– لابد أن سارة تفوهت بحماقة . أليس كذلك ؟

وشرح (البوم) قائلا :

– العيون الزجاجية الجاحظة هى عيون الموتى .

وشعر (البعرور) رغبة فى إلقاء حجر على رأس أخته . مع ذلك فقد ابتسم (البيدق) من جانب أذنه اليمنى بعد صحوته من ذهوله العابر . لاشك أنه فى حاجة شديدة إلى امرأة ، وإلا لما أجار دونما اعتراض ودونما تعليق ماتفوهت به الفتاة . وعاد إلى المغازلة بحماس أشد ، وبعد ربع ساعة كانت سارة كالبلهاء وقد توردت وجنتاها وضاعت نظراتها فى الفضاء فكأنها تمشى فى نومها . وأراد (البيدق) أن يضمن المرأة التى يحتاجها :

– أحبك سارة . أتعلمين ذلك ؟ وسأبقى أحبك حتى نهاية العالم . سآتى لرؤيتك كل يوم فى هذه الساعة . قولى أنت – وضغط على يدها بعاطفة جياشة – هل ستحبيننى دائماً ؟

ونظرت إليه سارة مذهولة . وراحت الكلمات تجرى على لسانها بطلاقة غريبة ، فكأنها ليست هى ، وكأن غيرها كان يتكلم بلساتها من داخلها .

– سأحبك ، دون مويسيس ، – قالت – حتى أفقد حواسى ويختفى العالم فى ناظرى وأئن تحت وطأة النزع الأخير ومغالبة الموت .

– هكذا قال المعلم منشرحاً . وضغط على يديها وغمز لها مرتين وانفرج فمه أربع مرات حتى أذنه ثم انصرف ، وقبل أن يصل إلى الناحية التفت إليها عدة مرات مبتسماً بانفعال .

وهكذا أصبح (البيدق) وسارة خطيبين ، ولكنهما لم يراعيا دانييل (البوم) ، إذا أخذنا بالحسبان الدور الذى لعبه فى أن يبلغا التفاهم . لقد دامت الخطوبة عاماً ونصف العام ، وهاهما يحددان موعد الزواج فى الثانى من نوفمبر وهو «يوم الأرواح المباركة» بينما يستعد (البوم) للرحيل إلى المدينة لكى يبدأ التقدم . اندريس ، الرجل الذى لايرى من جانبيه ، لم يوافق هو الآخر على موعد الزواج وقال :

– الرجال الذين يبحثون عن زوجة يتزوجون فى الربيع ، أما الذين يبحثون عن خادمة فإنهم يتزوجون فى الشتاء قاعدة لاتقبل الخطأ .

وفى ليلة الميلاد التالى كانت سارة منشرحة جداً . لقد تحسّن طبعها كثيراً منذ أن خطبها (البيدق) ، فلم تحبس (البعرور) فى المتبن لتتلو عليه نصائح الروح سوى مرتين ، وفى ذلك شىء من الربح ، فضلا عن أنه صار ينال درجات أعلى فى المدرسة ولم يضطر من ساعتها إلى رفع «التأريخ المقدس» بلوحاته الملونة التى تزيد على المائة فوق مستوى الرأس . أما دانييل (البوم) فلم يخرج من ذلك كله إلا بالقليل .

كان أحيانا يلوم نفسه على ضلوعه بالعملية ، أفليس من الأفضل له أن يرفع «التأريخ المقدس» و (البعرور) إلى جانبه يرفع آخر مثله من أن يضطر إلى حمله من دون صحبة ؟

وفى يوم الميلاد سألت سارة أخاها (البعرور) بينما كانت تقلب الدجاجة فى الفرن ، وكانت سعيدة منشرحة :

– قل لى روكى ، هل قمت أنت بكتابة رسالة إلى المعلم تخبره فيها أننى أحبه ؟

To: www.al-mostafa.com

- كلا سارة ، كلا .

- هل أنت متأكد ؟

- أقسم لك سارة .

ورفعت أصبعها الذى لفحته النار إلى فمها ، وعندما أخرجته قالت :

- كنت أحسب ذلك . ولو أنك قمت بتلك الفعلة لكانت خير ما فعلت فى حياتك . هيا انصرف من هنا أيها الماكر .

الفصل السادس عشر

كان دون خوسيه القس ، وهو قديس كبير ، يستخدم من على المنبر كل ضروب الإقناع ، فيعصر قبضتيه ويرفع عقيرته ويعنف فتتصبب جبهته وعنقه عرقا ويتنف شعراته البيض القليلة ويتجوّل بين المقاعد رافعا أصبع الاتهام ، بل لقد شق فى إحدى المرات عباءته طولا فى واحد من أكثر المشاهد إثارة وعنفا فى تاريخ الوادى . مع ذلك فما كان الناس ، والرجال منهم خصوصا ، يعيرونه اهتماما كبيرا . كانوا يستحسنون الصلاة ، لكنهم ، حين يبدأ الموعظة ، يقلبون الوجوه ويقطبون الجباه . إن تعاليم الرب لاتأمر بالاستماع كل أحد وكل عيد إلى موعظة مطولة . فالقس كان يبالغ إذاً فى تطبيق شريعة الرب . يقولون إنه يحاول أن يكون بابوياً أكثر من البابا ، وليس هذا بالتصرف المطلوب من راهب ، ولاسيما إذا كان من قدر دون خوسيه المفرط فى ورعه والعالم بنقاط الضعف لدى الرجال . كان فى رجال الوادى شىء من التجهم والبؤس ، غير أن روحاً رياضية صادقة فيهم كانت تضفى عليهم مسحة إنسانية واضحة . كان متنقدو خطابة دون خوسيه يقولون إنه لايمكن وصف رجل لايكف عن ترديد عبارة «فى الواقع» بأنه فصيح . ولكن لماذا لايمكن أن يكون فصيحاً من لايكف عن ترديد عبارة «فى الواقع» ؟ الأمران ، فى رأى (البوم) ، غير متنافرين ، ولكن بعض الناس لايفهمون الأمر هكذا ، وهم إذا حضروا خطبة دون خوسيه ، فلكى يتراهنوا على عدد المرات التى ينطق فيها بعبارة «فى الواقع» من على المنبر : أهو عدد زوجى أم فردى ؟ كانت (الفلفلة) الكبرى تؤكد أن القس يردد هذه العبارة متعمدا ، وأنه يعلم أن الرجال اعتادوا المراهنة أثناء خطبه على العدد الزوجى أو الفردى ، مع ذلك فإنه يفضل الاستمرار

فى ذلك لأنهم ، وإن لم يستمعوا إليه ، فلابـد أن شيئا ما سيعلق بأذهانهم بين «فى الواقع» و «فى الواقع» ، وبخلافـه فإنه يغامر بتـركهم يفكرون فى أثناء الخطبة فى العشب والمطر والذرة والبـقر ، وسيكون ذلك شرا لايرتجى له صلاح .

كان سكان الوادى أناسا ذوى نزعة فردانية متأصلة ، وماكان دون رامون العمدة يبالغ عندما يقول إن كل فـرد فى البلدة ليموت قبل أن يحرك ساكناً خدمة للآخرين . الناس يعيشون فى عزلة ولاتهمهم إلا أنفسهم . والحقيقة إن هذه النزعة القـوية لاتنحسر إلا عـصر أيام الأحد عند الغـروب ، حين يلتقى الفتـيان والفتيات ويذهـبون إلى الحقول أو الغابات ، وحـين ينحشر الشـيوخ فى الحـانات للتدخـين أو للشرب . وهذه هى المصـيبـة ، لأنهم لايتخلون عن تلك النزعة الفردانية إلا إرضاءً لملذاتهم الدنيوية .

وحمل دون خـوسيـه ذات صباح على أولئـك الفتيـة والفتـيات الذين ينسلون إلى الحـقول والغـابات أيام الأحد سـاعة الغـروب ، وعلى اللائى يتزاحمن فى حلقات الرقص وعلى الذين يسكرون ويقامرون حتى بشعورهم فى حانة الجـانو وعلى كل من يحصـد القت أو يحفر البـطاطس أو يمشط حقول الذرة أيام الأعياد . إنه اليوم الذى احتد فيه دون خوسيه وشق عباءته طولا . إنه اليوم الذى كشف فـيه الجميع ، فالذين لايمـضون عطلتهم أو احتفالاتهم فى الحقول والغـابات ، والذين لايتزاحمون فى حلقات الرقص أو السكر أو اللعب فى الحانة ، والذين لاينفقون أعـيادهم فى حصاد القت أو حفر البطاطس قليلون ويعدون على أصابع اليد الواحدة . لقد أكد القس قائلا : «إن أناسا قليلين ، فى الـواقع ، سيقفون يوم الحسـاب على يمنة الرب إذا لم تصلح التقاليد السائدة جذرياً .

وزار وفد تراسه (الفلفلة) الكبرى القس فى مقر إقامته فى الكنيسة عقب انتهاء الصلاة :

- أخبرنا ، حضرة القس ، إن كان فى أيدينا تبديل هذه العادات الفاسدة ؟ - قالت (الفلفلة) .

وتنحنح الراهب العجوز وقد بدا عليه أنه فوجئ ، فما كان ينتظر أن يكون رد الفعل سريعا إلى هذا الحد . وتفحص تباعا تلك الوجوه القريبة من الرب وتنحنح من جديد كسباً للوقت ثم قال :

- فى أيديكن ، بناتى ، إن أردتن ذلك .

وفى فناء الكنيسة كان أنطونيو (الخوصلة) يسدد لأندريس الاسكافى بيزتتين لأن دون خوسيه نطق بعبارة «فى الواقع» أربعا وأربعين مرة بينما راهن هو على عدد فردى .

وأضاف دون خوسيه فى مكتبه :

- فى إمكاننا أن نقيم مركزا يلهو فيه الشباب دون أن يغضبوا الرب . فإن توفرت الإرادة الخيرة فلن يكون ذلك صعبا : قاعة كبيرة تحتوى على كل أنواع التسلية . وفى الساعة السادسة من أمسيات الأحد والأعياد نستطيع عرض فيلم سينمائى . سنقتصر بالطبع على عرض الأفلام الأخلاقية والدينية الصرف .

وصفقت (الفلفلة) الكبرى وقالت متحمسة :

- المكان يمكن أن يكون اسطبل بالجو فما عادت لديه أغنام ، وهو يريد بيع الاسطبل . فى إمكاننا أن نستأجر المكان ، دون خوسيه .

وتدخلت كاتالينا (الأرنبة) :

- لكن هذا الكافر لن يترك لنا الاسطبل ، ياحضرة القس . إنه مكار ملحد ، وأنه ليفضل الموت على أن يتركنا نستخدم الاسطبل لأغراضنا المقدسة .

وكان دانييل (البوم) ، الذى شارك فى إقامة القداس ، يستمع وقد فغر فاه لحديث دون خوسيه مع النسوة . وعزم على الانصراف ، ولكن فكرة إقامة دار للسينما فى البلدة أوقفته . وقال دون خوسيه محاولا تهدئة (الأرنبة) :

- لاتصدرى أحكاما متهورة يا بنية . فليس بالمجو فى داخله رجلا سيئا .

وانتفضت (الفلفلة) الكبرى كالملدوغة :

- أبتاه . وهل يمكن أن يكون الإنسان طيبا وهو غير مؤمن ؟

أما (الأرنبة) كاميلا فقد نفخت صدرها العظيم وقالت مقاطعة :

- إن بالمجو على استعداد لبيع نفسه للشيطان مقابل بيزيتة واحدة . إننى واثقة من ذلك .

وتدخلت ريتا (البلهاء) زوجة الاسكافى منفعلة :

- بل لقد وهبه إياها هذا المكار ، فليس الشيطان مضطرا إلى أن يعطيه ولا حتى ريالين ثمنا لها . كلنا نعرف ذلك .

وأخيرا قال دون خوسيه كلمته ، فألف لجنة تراسها (الفلفلة) الكبرى للسعى لدى بالمجو (الملحد) وللذهاب إلى المدينة لشراء جهاز عرض

سينمائى . وبدا القرار رائعا للجميع ، وأعلن ، بعد انتهائه من كلمته ، أن صدقات الشهـرين القادمين ستخصص لشـراء عباءة جديدة للراهب . وأيد الجميع الفكرة ، وبادرت (الفلفلة) فبدأت حـملة التبرعات بمبلغ قدره دورو واحد .

بعد ثلاثة أشهر تحول اسطبل بالمجـو (الملحد) ، وقد صبغ وطهر ، إلى دار للسينمـا . ولاقى العرض الأول نجـاحا كبـيرا فلم يبق فى الجـبال وفى الغـابات غيـر متمـردين اثنين . ولكن المشكلة ظـهرت بعـد أسبوعـين ، فالأفلام الكاثوليكية الخالصة قليلة . فـخففت القيود بعض الشيء وظهرت الحاجـة إلى السماح بعرض بعض السـفاهات . وصار دون خوسـيه القس يعلل نفسه بمبـدأ أهون الشـرين ، كالغريق الذى يتشبث بلوحـة النجاة . كان يقول :

– إن يكونوا مجموعين هنا أفضل من أن يتغازلوا فى الحقول .

ومرّ شـهر آخـر ازدادت فيـه الأفلام المرسلة من المدينة تفـاهة . ثم إن الفتيان والفتيات الذين كانوا من قبل يذهبون إلى الغابات عند حلول الظلام صاروا يستغلون ظلمة الصالة ليـتغازلوا بوقاحة وقلة أدب . وأنيرت الصالة ذات مساء أثناء العرض فشوهد باسكوالون ، عامل الطاحونة ، وقد أجلس صديقته على ركـبتيه . وراحت الأمور تتدهور فـاستدعى القس اللجنة إلى بيته فى نهاية شهر نوفمبر :

– يجب اتخـاذ إجراءات سريعـة . فلا الأفلام عـادت ، فى الواقع ، أخلاقية ، ولا المتفرجون ملتزمـين بالرصانة واللياقة . لقـــد وقعنا أسرى ما كافحناه .

– لنضع أضواء فى الصالة ولنمارس رقابة صارمة على الأفلام – قالت (الفلفلة) الكبرى .

وبعد مناقشات طويلة أجيزت مقترحات (الفلفلة) . وشكلت لجنة رقابة مؤلفة من دون خوسيه القس و(الفلفلة) الكبرى وترينو السادن . كان الثلاثة يجتمعون أيام السبت فى الاسطبل لمشاهدة الفيلم المقرر عرضه فى اليوم التالى .

وأوقفوا الفيلم ذات مساء فى لقطة مشكوك فيها :

– ألا ترى ، دون خوسيه ، أن هذه السافلة تبالغ فى الكشف عن ساقيها ؟ – قالت (الفلفلة) .

– هذا ما بدا لى – قال القس .

ولما التفت إلى ترينو السادن وجده يتطلع إلى صورة الممثلة بعينين مفتوحتين وفم فاغر فحذره قائلا :

– ترينو . إما أن تترك التطلع هكذا أو أن أعزلك من اللجنة .

كان ترينو رجلا مسكينا بلا رأى ولا إرادة ، وكان ذا نظرة رقيقة ندية ومن دون ذقن مما يضفى على وجهه تعبيرا ينم عن بلادة وغفلة . وكانت تلك البلادة تزداد وضوحا عندما يمشى ، إذ يبدو وكأن كل خطوة يخطوها تكلفه كمية الهواء التى يحتاجها جسمه .

بالطبع فإن كل إنسان ينفع فى شىء ، حتى أكثر الناس سذاجة . أما ترينو السادن فكان عارفا بارعا على الأرغن .

وإزاء توبيخ الراهب خفض ترينو عينيه وابتسم ببلاهة مغتماً . إن القس على حق ولكن ، مـاأروع ساقى المرأة التى تظهـر فى الفيلم ، سـاقان من تلك التى لاتشاهد عادة بين الناس .

وبدا لدون خـوسيـه أن الصعـوبات تزداد يومـا بعد يوم . وصـار من الصعب الوقـوف فى وجه الرغبات الغـريزية للوادى كله . فترينو نفسـه ، وهو الرقيب والسادن ، اقترف خطيئة الرغبة والتفكير فى تلك النسوة اللاتى يكشفن بمجون فاضح عن سيقانهن فى الشاشة . إنها لمهمة شاقة عليه وهو الرجل المسن المتعب .

وقابل أهل البلدة الإنارة الموزعة فى أرجاء الصالة أثناء العرض محتجين بالصفـير ، فى اليـوم الأول ، وبالكسر ، فى اليـوم الثانى ، بأن قـذفوها بالبطاطس . واجتمعت اللجنة من جديد : يجب أن تكون الأضواء حمراء اللون كى لاتؤذى النظر . ولكن الناس تجادلوا حينها حول المشاهد المقطوعة ، وكان باسكوالون ، عامل الطاحونة ، أول من بدأ التمرد :

– ياسيـدة لولا إن منع ظهور السـيقان والقـبل فليـس للسيـنما عندى معنى .

وأيده آخرون :

– إما أن تعرضوا الأفلام دون قطع أو نعود إلى الغابات .

وعاودت اللجنة الاجتماع ، وكان دون خوسيه منفعلاً جداً :

– انتهى أمر السـينما وانتهى كل شىء . أقتـرح على اللجنة أن تعرض الجهار للبيع على بلديات المناطق المجاورة .

وصاحت (الفلفلة) :

– ولكننا سنبيع ماكاد أن يكون خطيئة ، دون خوسيه .

وطأطأ الراهب رأسه مغموما . فـ (الفلفلة) محقة فى كلامها . بل إنها أكثر من محقة هذه المرة ، لأن بيع الآلة السينمائية يعنى المتاجرة بالخطيئة .

– سنحرقها إذا – قال متجهما .

وأحرق جهاز العرض فى اليوم التالى بحضور أعضاء اللجنة الذين اجتمعوا فى زريبة بيت الراهب . وقريبا من رماده أعلنت (الفلفلة) الكبرى ، فى ذروة حماستها التفتيشية ، عن ولائها للأخلاق وعزمها الأكيد على عدم الرضوخ حتى تسود الأخلاق فى الوادى . قالت وهى تودع القس :

– دون خوسيه ، سأواصل كفاحى ضد الفساد . صدّقنى . أنا أعرف كيف أحاربه .

وفى الأحد اللاحق حملت عند الغروب مصباحاً يدوياً وخرجت بمفردها تطوف فى الحقول والجبال . ووجدت خلف أكوام العوسج المعزولة الكثيفة عاشقين يتغازلان . وسلطت حزمة الضوء على الوجهين المرتبكين :

– باسكوالون وألينا . إنكما ترتكبان خطيئة كبيرة .

ماكانت تقول أكثر من ذلك ثم تنسحب . وهكذا طافت دون كلل وهى تردد تحذيرها المروع :

– فلان وفلانة . إنكما ترتكبان خطيئة كبيرة .

وكانت تقول فى نفسها : «مادامت ضمائرهم غائبة ، فسأحل أنا مكانها» .

وهكذا حملت على عاتقها تلك المهمة الشاقة التى لم تكن تخلو ، مع ذلك ، من متعة . واحتمل شباب البلدة الثلاثة آحاد متتالية تدخل (الفلفلة) فى شئونهم ، ولكنهم تحركوا فى الأسبوع الرابع : أحاطوا بها فى أحد الحقول ورأى فريق أن تضرب ، ورأى فريق آخر أن تجرد من ملابسها وأن تترك فى رطوبة الليل مربوطة إلى جذع شجرة . ولكن فريقا ثالثا فرض رأيه بالإلقاء بها فى النهر على رأسها . وسقط المصباح من يد (الفلفلة) المرتاعة التى استعدت للدخول فى قوائم شهداء المسيحية الطويلة ، وإن بكت بين حين وحين وطلبت بين شهقة وأخرى قليلا من الرحمة .

وقادوها وهى تصرخ وتشتم إلى الجسر حيث يصب النهر بشدة فى بركة الانكليزى .

كان يخيم على ليل الوادى جو كئيب قاتم . وبدا الحشد وكأن به مسا ، وبدا كل شئ معدا لقدره المحتوم ، وصارت (الفلفلة) تصلى فى ذهنها صلاة التوبة .

ولكن (الفلفلة) لم تبت ليلتها تلك فى قاع النهر بفضل كينو (الأقطع) على الرغم من أنها قالت فى حقه وحق المرحومة ماريوكا إنهما أكلا الطبيخ قبل الثانية عشرة ، إذ يبدو أن (الأقطع) كان لايزال فى صدره بقية من حمية وجذوة من مروءة متوهجة . فلقد حال بين الشبان و (الفلفلة) ودافع عنها دفاع الرجال حتى بلغ به الغضب مبلغه فلوح بفضلة يده المقطوعة فى الهواء فبدت مثل سارية علم منكس . أما الفتيان فقد بدا لهم ، وقد هدأت سورة غضبهم أثناء الطريق ، أن يكتفوا بما بثوه فى قلبها من رعب ، وانسحبوا .

وبقيت (الفلفلة) وحيدة ، وجهاً لوجه مع (الأقطع) . ماكانت تدرى ماتفعل . كان الوضع صعبا بالنسبة إليها . وأطلقت ضحكة واعدة ثم بدأت تنظر إلى أطراف قدميها . وعاودت الضحك ثم قالت :

- حسنا .

وأخيرا ، ودون أن تعى جيداً ماتفعل ، انحنت وقبّلت بقوة فضلة طرف كيتو . ثم انطلقت راكضة خائفة نحو أعلى الطريق العام كالمجنونة .

وفى اليوم التالى اتجهت (الفلفلة) الكبرى إلى كرسى الاعتراف قبل الصلاة :

- السلام عليك يا مريم الطاهرة . أبتاه .

- يامن ولدت دون خطيئة . بنيتى .

- أبتاه إننى أتهم نفسى . . . أتهم نفسى بأننى قبلت رجلا فى ظلمة الليل .

ورسم دون خوسيه علامة الصليب على صدره وريع عينيه إلى سقف كرسى الاعتراف مستسلما :

- تعاليت أيها الرب . - غمغم وأحس بألم شديد لحال تلك البلدة .

الفصل السابع عشر

إن غفر دانييل (البوم) للفلفلة كل شئ فإنه لن يغفر لها حادثة فرقة الإنشاد ، لن يغفر لها تلك الطريقة القاسية التى فضح بها أمام أنظار جميع أهل البلدة بعد أن اقتنعت بافتقاره للوضوح فى جنسه . إنه لن يغفر لها ذلك وإن عاش ألف سنة .

كانت تلك الحادثة وصمة عار ، بل كانت أكبر إهانة يمكن أن تلحق برجل . وكان لابد له ، بإزاء تلك التهمة المعيبة ، من إجراءات مضادة للبرهنة على رجولته التى لاجدال حولها .

كان مع أولاد المدرسة وبناتها فى الكنيسة ينتظرون ، وكان ترينو السادن ساعة وصولهم ينتزع من الأرغن نوتاته الحادة المتأوهة . ووقفت كذلك (الفلفلة) المقرفة وهى تحمل عصا ، ثم مالبثت أن اتخذت هيئة المديرة المشرفة . فصفت التلامذة لدى دخولهم حسب الطول ثم رفعت العصا فوق رأسها وقالت :

– هيا . أريد أن أقرن معكم على نشيد «الراعية الإلهية» كى ننشده فى يوم العذراء . فلتتدرب .

وأشارت إلى ترينو ثم خفضت العصا ، وغنى الأولاد والبنات كل على هواه :

أيتها الراعية الإلهية

أريد أن أتبعك

وعندما بدأت الأصوات الاثنان والأربعون بالإنشاد أبدت (الفلفلة) الكبرى إيماءة يأس مضحكة وقالت :

– كفى ... كفى . ليس هكذا . ليس «را» بل «رااا» وأنشدت :

أيتها الرااااعية الإلهية

أريد أن أتبعك

عبر الوديان

ورااااء آثارك .

هيّا .

وضربت على غطاء الأرغن بالعصا لينتبه إليها الجميع ثانية . واهتزت جدران المعبد للنبرات الطفولية الحادة . ولكن (الفلفلة) أبدت من جديد استياءها وخاطبت (البعرور) مشيرة إليه بالعصا :

– روكى . بإمكانك الانصراف . لا أحتاجك . ولكن ، متى تغير صوتك ؟

وخفض (البعرور) رأسه :

– وماأدراني أنا . يقول أبي إنني كنت أناغي بصوت رجل منذ ولادتي .

ومع أن (البعرور) قال ذلك وهو مطأطئ الرأس ، إلا أنه قال ماقال متبجحا ، فالرجل الحقيقي عنده هو من تحددت رجولته منذ ولادته .

وقابل المتفوقون فى الدراسة رده بضحكات متعالية ، بينما نظرت البنات إليه بإعجاب كبير . واستغنت السيدة لولا ، بعد تمرين آخر ، عن ولدين آخرين كانا ينشزان ، وبعد ساعة من الوقت أبعد من الفرقة جيرمان (الأقرع) لأنه صوته كان يمر فى مرحلة تحول وانتقال ، ولأن (الفلفلة) كانت «تريد تشكيل فرقة من أصوات حادة وحسب» . وفكر دانييل (البوم) فى مكانه بين أعضاء الفرقة وتمنى مخلصا أن يبعد هو الآخر عنها . إنه لايريد أن يكون له صوت حاد رفيع كصوت النساء أو كصوت الأطفال . ولكن تمارين اليوم الأول انتهت دون أن تقرر (الفلفلة) الاستغناء عنه . وعادوا فى اليوم الثانى ولكنها لم تستغن عنه كذلك . كان الوضع يزداد سوءا لأن البقاء فى الفرقة كل هذا الوقت يشكل وصمة عار ، إنه ضرب من التشكيك برجولة المرء ، ولأن دانييل (البوم) يحسب للرجولة حسابها ، فإنه لايستطيع تجاهل ذلك الانتقاء . ولكنه بقى عضوا فى الفرقة على الرغم من أمنياته وعلى الرغم من أن الفرقة خلت إلا منه ومن خمسة ذكور سواه . وتلك كانت الكارثة . وقالت (الفلفلة) الكبرى فى اليوم الرابع وعلامات الرضى بادية عليها :

– لقد تمت عملية الاختيار . وبقيتم أنتم أصحاب الأصوات الصافية : خمس عشرة بنتا وستة أولاد . وأرجو – وتوجهت بالكلام للذكور الستة – ألا يغير أى منكم صوته من الآن حتى يوم العذراء .

وابتسم الأولاد والبنات فخورين بامتلاك «أصوات صافية» ، إلا دانييل (البوم) الذى لم يفلح فى إخفاء خيبة أمله ، ولكن (الفلفلة) ضربت فى تلك اللحظة على غطاء الأرغن لتنبيه ترينو السادن بينما راحت الأصوات الصافية الإحدى والعشرون تشيع فى المكان صلوات العذراء :

أيتها الرااااعية الإلهية

أريد أن أتبعك

عبر الوديان

ورااااء آثارك .

كان دانييل يعرف ماذا سيقع ذلك المساء عند الخروج من الكنيسة . كان الأولاد المبعدون من الفرقة ، يرأسهم روكي (البعرور) ، ينتظرون في الباحة ، وما إن شاهدوا الأصوات الصافية الستة يخرجون حتى تحلقوا حولهم وراحوا يصرخون مرددين بساخطين :

– يابنات ، يامخنثون . يابنات ، يامخنثون . . .

ولم يجد نفعا تدخل (الفلفلة) ولا جهود ترينو المتواضعة وهو السادن العجوز ، كما لم تنفع في شيء نظرات دانييل المتوسلة إلى صديقه (البعرور) لقد نسي هذا حتى أبسط قواعد الصداقة ، فقد كان يفور في أعماقه وأعماق مجموعته الباغية غيظ متفجر سببه إبعادهم من الفرقة التي ستنشد في يوم العذراء . ولكن لا أهمية لذلك في الوقت الحاضر ، مايهم إنقاذه الآن هي رجولة دانييل (البوم) التي بدت موضع شك . وخطرت له ، وهو يهم بالنوم فكرة : لماذا لايغير صوته وهو ينشد «الراعية الإلهية» وهكذا ستبعده (الفلفلة) كما فعلت مع (البعرور) و (الأقرع) ؟ . والحق أن أكثر ماكان يؤلمه هو استبعاد هذا الأخير . فـ (البعرور) متقدم عليه دائما . أما (الأقرع) فالأمر مختلف . وكيف له أن يحافظ على مرتبته ومقامه إزاء فتى يمتلك صوتا أقوى من صوته ؟ لابد من تغيير صوته للخروج من الفرقة قبل حلول عيد العذراء .

مع بداية التمـارين فى اليوم التالى ، تـنحنح دانييل (البوم) باحـثا عن نغمة مـفتعلة فى صوته وضربت (الفلفلة) عـلى الأرغن بطرف العصا وبدأ النشيد :

أيتها الرااااعية الإلهية

أريد أن أتبعك

ورا . . .

ولكنها توقفت فجأة . قطبت أنفها الطويل فكان رائحة كريهة ضايقته . ثم قطبت جبينها فكأنهـا اكتشفت شيئا ما لايتفق مع مـاكانت تأمله ، شيئا تعجـز عن تحديد مصـدره . ولكنهـا عند التمرين الثـانـى صـوبت العصـا نحو (البوم) وقالت محتدة :

– عجبا لك دانييل . لاتفخم صوتك وإلا لطمتك .

لقد افتضح أمـره . واحمر وجهه لمجرد التفكـير أن الآخرين قد يظنون أنه يحـاول أن يكون رجلا بالغش والخـداع . إنه غيـر محتـاج أن يتظاهر بذلك لإثبات رجولته ، وهو ماسيبرهن عليه فى أقرب مناسبة .

وأحاط بهـم فريق الأصوات غـير الصـافيـة من جديد عند خـروجهم ورددوا مع روكى (البعرور) :

– يابنات ، يامختثون . . . يابنات ، يامختثون .

كان دانيـيل (البوم) يحس برغبـة فى البكاء ، ولكنه كظم رغبـته تلك مقدرا أن رجولته المترنحة ستنهار إذا مابكى أمام فريق الناقمين من أصحاب «الأصوات غير الصافية» .

وجـاء يوم العذراء . وفكر (البـوم) لدى استـيقـاظه ذلك الصبـاح أن امتلاك صوت رفيع في سن العـاشرة ليس بالأمر الباعث على اليأس . وأن أمامه وقـتا طويلا لتغييره ، وعليـه فلا حق له في أن يشعر بالحزن وخـيبة الأمل .

كانت الشمس تتـسلل إلى غرفته عـبر النافذة ، بينما بدت قـمة الجبل (راندو) أكثر ارتفاعا وأشد جلالا ومهابة . وكانت تصل إلى مسامعه فرقعة الألعاب النارية وأنغـام الموسيقى الصاخبـة المنشزة نزولا من العقبـة . بينما كانت تسـمع من بعيد دقـات الناقوس يضربه دون انطونينو (الماركـيز) وهو يدعو للصلاة الكبـرى . لقد وضع (البوم) عند نهاية الـسرير بدلته الجديدة مكوية وقميصا أبيض غسل بعناية مازالت رائحة النيل والصابون تنبعث منه . كلا ، فليـست الحياة حـزينة . إنه يستطيع الآن ، وقـد أسند مرفقـيه إلى النافذة ، أن يلمس ذلك . إنه لايشـعر بالحزن وأن توجب عليه بعـد ساعة أن ينشد «الراعـية الآلهية» مع مـجموعة «الأصـوات الصافية» إنه لايشـعر بالحزن وإن دعاهم أصـحاب «الأصوات غير الصافـية» عند الخروج بالبنات والمخنثين .

ثمة غـبار مذهب نبـاتي غزير يلف أرجاء الوادي العـريضة المترامـية ، ويشيع في أجـوائه رائحة الحقـول الندية وإن أنذر سكون الهواء بيـوم قائظ شديد الحـرارة . كان هناك شـحرور يقف على شـجرة التـفاح القـريبة من النافذة ، يزقزق ويطير من غـصن إلى آخر . الفرقة الموسيقيـة الصاخبة تمر الآن في الطريق العـام متجـهة صوب النهـر وحانة كينو (الأقـطع) تتبعـها مجموعـة من الصبية وهـم يصرخون ويؤدون حركـات بهلوانية في الهواء . واستتر دانييل (البوم) مصطنعا الانشغال لأن جميع أولئك الصبيان تقريبا هم من مجموعة «الأصوات غير الصافية» .

واستعد (البوم) فى الحال للذهاب إلى القداس . كانت الشموع تتلألأ من على المذبح . وكانت النسوة يرتدين الملابس الملونة المزركشة . وصعد دانييل (البوم) إلى حيث كانت الفرقة . ونظر من مكانه متفحصا إلى عينى العذراء . كان دون خوسيه يقول إن العذراء تنظر أحيانا إلى الأطفال الطيبين . وبدا لدانييل ، ربما بسبب اهتزاز الضوء المنبعث من الشموع ، أن عينى العذراء تتجهان فى ذلك الصباح نحوه وتنظران إليه وأن فمها يبتسم . وأحس برجفة تسرى فى بدنه فخاطب العذراء دون أن يحرك شفتيه قائلا إنه يهديها نشيد «الراعية الإلهية» لتحفظه من استهزاء ذوى الأصوات غير الصافية» به وتندرهم عليه .

وصعد دون خوسيه ، وهو القديس الكبير ، إلى المنبر بعد الانتهاء من تلاوة الإنجيل وبدأ موعظته . وسمعت نحنحة مطولة من بين مقاعد الرجال وراح دانييل (البوم) ، دون إرادة منه ، يعد المرات التى ينطق فيها القس بعبارة «فى الواقع» وإن لم يكن هو ممن يراهنون على عددها . ولكن الراهب راح يتحدث فى ذلك الصباح عن أشياء جميلة جدا حتى أن (البوم) غفل عن الحساب وأضاع العد :

– أبنائى . لكل منا ، فى الواقع ، طريق محدد فى الحياة ، فعلينا أن نواصل هذا الطريق دائما وألانحيد عنه . وقد يظن بعضكم أن ذلك يسير ، وماهو فى الواقع بيسير . فقد يكون الطريق الذى رسمه لنا الرب وعرا وصعبا ، وهذا فى الواقع لايعنى أنه ليس طريقنا . قال الرب : «خذوا الصليب واتبعونى» . «انى استطيع أن أؤكد لكم شيئا – وأضاف – . إن طريق الرب لايتمثل فى اختباء الفتية والفتيات تحت جنح الظلام ، ولاهو فى الواقع موجود فى الحانة حيث يذهب البعض أيام السبت والأحد

للبحث عنه ، ولاهو في حفر البطاطس أو حصاد الذرة أيام الأعياد ؛ لأن الله ذاته خلق العالم في ستة أيام ثم استراح ، وهو الله ، في اليوم السابع . ولأنه الله فإنه ، في الواقع ، لم يتعب ، ولكنه استراح ، استراح ليعلمنا ، نحن بني البشر ، أن يوم الأحد هو يوم الراحة» .

لاشك أن دون خوسيه كان يتكلم ذلك اليوم بإلهام من العذراء ، فهو يتحدث برقة ونعومة ودونما توتر . وواصل كلامه متحدثا عن طريق كل إنسان ، ثم تطرق إلى الشقاء الذي يورده أحيانا الابتعاد عن الطريق الذي حدده الرب لطموح أو لشهوة أو لغيرها من الأسباب . وقال أشياء وأشياء عويصة وغامضة لم يفهمها دانييل ، أشياء من قبيل أن المتسول ، وهو الذي لايضمن قوت يومه ، قد يكون أسعد من الغني الذي يسكن قصرا منيفا يملأه المرمر والخدم : «قد يفقد البعض – قال – نصيبهم من السعادة الذي خصصه لهم الله . قد يفقدونه وهم يبحثون ، لطمع في نفوسهم ، عن طريق أسهل . والسعادة لاتوجد ، في الواقع ، في الأعلى ولا في الأكبر ولا في الأرفع ولا في الأشهر ، بل في اتفاق خطواتنا مع الطريق الذي حدده الرب لنا على الأرض ، وإن كان ذلك الطريق متواضعا .

وأتم دون خوسيه كلامه وواصل دانييل (البوم) متابعة قوامه الصغير بعينيه حتى المذبح . كان يريد أن يملأ عينيه منه ومن حضوره المادي ، فقد كان متأكدا من أن الراهب سيحتل في مستقبل غير بعيد محرابا في الأبرشية ، ولكنه لن يكون وقتها هو نفسه بلحمه ودمه ، بل صورة محفورة في الخشب أو تمثالا معمولا من الجبس سيء الطلاء .

وفوجئ (البوم) تقريبا بضجيج أرغن ترينو السادن . كانت (الفلفلة) أمامهم تحمل العصا . وتنحنحت «الأصوات الصافية» للحظة . وضربت

(الفلفلة) على الأرغن بالعصا . وبدأ ترينو يعزف مقدمة «الراعية الإلهية» . ثم ارتفعت الأصوات الصافية منغمة دقيقة موجهة بعصا (الفلفلة) :

أيتها الرااااعية الإلهية

أريد أن أتبعك

عبر الوديان

ورااااء آثارك .

* * *

قطيعك الباتس

يناشدك متوجعا

استمعي ، أيتها السيدة

الى نداته الدافئ

* * *

أيتها الراعية الإلهية

أريد أن أتبعك

عبر الوديان

ورااااك آثارك

* * *

وبعد انتهاء القداس هنأتهم (الفلفلة) وأهدت كل واحد منهم مصاصة من الحلوى . أما دانييل (البوم) فقد أخفاها فى جيبه وكأنه يخفى مايخجل ويعيب .

وفى الباحة صاح به اثنان من جماعة الخصوم «يابنت ، يامخنث» لكنه لم يلتفت إليهما ، فقد كان ، من دون (البعرور) يحمى له ظهره ، يشعر ، كالأعزل ، بالضعف . وعند البوابة كان الناس يتحدثون عن خطبة دون خوسيه . ولاحظ دانييل (البوم) ميكا تقف جنبا على جهة اليسار . ابتسمت له وقالت :

– لقد أحسنتم الإنشاد . ثم قبلته فى جبهته .

ووقفت سنوات عمر (البوم) العشر متلهفة . ولكن ذلك لم يدم طويلا . صحيح إنها قبلته ولكنها الآن تعاود الابتسام ، الابتسام لغيره . فقد اقترب منها شاب نحيف يرتدى ثياب الحداد ، وأمسك كل منهما بيد الآخر وتبادلا نظرات لم ترق للبوم .

سألته هى :

– مارأيك ؟

فأجاب هو :

– جميل جدا . كان كل شىء رائعا .

وابتعد (البوم) عنهما وقد لازمته غصّة لشعور غريب لايدرك كنهه ، ورأى أن كل واحد من الحضور راح ينبه صاحبه بضربة من كوعه أو بحركة خفيفة ثم ينظر من طرف لآخر خلسة قائلا بصوت واطئ : «انظر .

إنه خطيب ميكا» ، «هاهو خطيب ميكا» ، «أنه شاب وسيم» ، «ليس خطيب ميكا سئ المظهر» . ولم يرفع أحد بصره عن الشاب النحيف الذى يرتدى ثياب الحداد والذى يأخذ بيدى ميكا بين يديه .

وعندها أدرك دانيل (البوم) أن لديه فى يومه ذاك أسبابا كثيرة للإحساس بالحزن وإن سطعت الشمس فى السماء الصافية أو شدت البلابل فى الأحراج أو شقت أجراس البقر صدر الفضاء برنينها السوداوى أو نظرت إليه العذراء وتبسمت . كان ثمة أسباب للشعور بالحزن واليأس والرغبة فى الموت . كان يشعر بأن شيئا فى داخله يقتلع اقتلاعا .

ونزل عصرا إلى المهرجان وبرفقته صاحباه (البعرور) و (الأقرع) . كان لايزال حزينا ومغموما وفى حاجة إلى الترويح عن نفسه . كانت رائحة المعجنات المقلية وأكداس اللحم البشرى تخيم على جو الاحتفال المشحون برائحة فرح حيوى مزدحم . وارتفعت فى وسط المكان عصا الكوكانيا . إنها أطول من عصا الأعوام الماضية بعشرة أمتار . توقفوا أمامها لمشاهدة صبيين وهما يحاولان عبثا صعود الأمتار الأولى من العصا . ووقف هناك ثمل وهو يشير بأصبعه إلى نهاية عصا الكوكانيا ويقول :

– هنالك خمسة دورات . فمن استطاع الصعود إليها وإنزالها فليدعونى إلى كأس على حسابه .

ثم أطلق قهقهة سرت عدواها إلى الآخرين . ونظر دانييل (البوم) إلى صاحبيه وقال :

– أنا سأصعد .

فقال له روكى مستهزئا :

– أنت لست رجلا .

أما جيرمان (الأقرع) فقد أبدى حذرا غريبا :

– لا . لا تصعد . فقد تقتل نفسك .

ولكن يأس (اليوم) وحرصه على منافسة الشاب المسود وأولاد مجموعة «الأصوات غير الصافية» دفعه دفعا فقفز على العصا وصعد الأمتار الأولى دون جهد كبير . كان يحتدم في رأسه شيء شبيه بالنار الملتهبة ، مزيج غريب من الكرامة المجروحة والغرور المسترد واليأس . «هيا – كان يقول لنفسه – لن يقدر أحد على فعل ما تفعله» . وواصل الصعود ولكن ساقيه بدأتا تتخزان. «سأصعد لأن السقوط لايهمني ، سأصعد لأن السقوط لايهمني ، كان يردد مع نفسه . وعندما وصل إلى منتصف المسافة نظر إلى أسفل فرأى أن كل الناس يراقبون حركاته ، وأحس بدوار فتشبث بالعصا وواصل التسلق . وبدأت عضلاته تفقد قوتها ولكنه واصل الصعود . وصار في عيون الواقفين أسفله بحجم صرصور صغير . وراحت العصا تتمايل كشجرة تهزها الرياح ، لكنه لم يشعر بالخوف . كان يريد أن يكون قريبا من السماء ، أن يخاطب قمة جبل (راندو) نداً لند .

ودب الخور في ذراعيه وساقيه ، وسمع صرخات عند قدميه فعاود النظر إلى أسفله :

– دانييل ، ولدي .

إنها أمه تتوسل إليه . لقد وقفت إلى جنبها ميكا متألمة و (البعرور) ضئيلا و (الأقرع) وقد أوشك أن يسترد منه مرتبته السليبة ومجموعة «الأصوات غير الصافية» و (الفلفلة) الكبرى ودون خوسيه القس وباكو الحداد ودون انطونيو (الماركيز) . إنه يشاهد كذلك أسطح البلدة المستوية وهي تعرض وجهها المعتم لأشعة الشمس . كان يشعر كالسكران ، تدفعه رغبة غير محدودة إلى التفوق والغلبة .

وواصل صعوده غير مبال بالدعوات القادمة من تحته . إن العصا فى هذا المكان أدق لذلك فهى تتمايل تحت وطأة ثقله وكأنها ثمل . واحتضن دانييل العصا كالمجنون بعد أن أحس بأنها ستسرمى به صوب الجبال مثل قذيفة منجنيق . وصعد أعلى . إنه يوشك على الوصول إلى الدورورات الخمسة المقدمة من «خيال الأمريكى» ولكن فخذيه راحا يوخزانه ويتشققان وماعاد فى ذراعيه شىء من القوة. «انظر لقد جاء خطيب ميكا» ، «انظر لقد جاء خطيب ميكا» — ردد فى نفسه مغتاظا. وصعد سبتمرات قليلة أخرى ، وماأقل مابقى أمامه . وكان يخيم تحته سكون متوتر . «يابنت ، يامخنث» ، «يابنت ، يامخنث» تمتم وصعد . هاهو الآن فى القمة . العصا تتمايل بقوة . كان يخشى أن يطلق يده للإمساك بالجائزة ، فقرب فمه وعض على الظرف بشدة . لم ينطلق من تحت تصفيق ولا صياح ، فقد خيم على الناس نذير بوقوع كارثة . وبدأ دانييل (البوم) بالنزول ، وشعر فى منتصف العصا بالإنهاك فخفف من ضغط أطرافه لينساب مسرعا على العصا المطلية بالشمع . كان يحس بساقيه تحترقان وبدمه يتدفق من فخذيه المسلوختين .

ووجد نفسه فجأة على الأرض محفوفا بهتافات مدوية وضربات تجرح ظهره وطبطبات على خده وقبلات تطبعها أمه ودموع ، وجد كل ذلك مخلوطا . واقترب منه الشاب المسود أخذا بيد ميكا ليقول له مبتسما : «أحسنت يافتى » أما مجموعة «الأصوات غير الصافية» فقد ابتعدوا مطأطئى الرؤوس . أما أبوه فراح يؤنبه بسيل من الكلمات الغريبة التى لم يفهم لها معنى . وأخيرا شاهد أوكا-أوكا تجرى نحوه وتحيط بساقيه ثم تنفجر فى سيل من الدموع المتدفقة .

وغيّر دانييل (البوم) من جديد ، وهو فى بيته ، رأيه فى ذلك النهار ، وأقر أنه ماكان محقا فى شعوره بالحزن والكدر ، فعلى الرغم من كل شىء فإن النهار كان مشرقا والوادى رائعا ، ثم إن خطيب ميكا قال له مبتسما . «أحسنت يافتى» .

الفصل الثامن عشر

كشأن كثيرات من النسوة فقد زهدت (الفلفلة) الكبري في الحب لمّا لم تجد من يدعوها الى أن تحبّ وأن تُحَبّ . وتضحك (الفلفلة) أحياناً لأن الحب الوحيد في حياتها كان بالذات وليد غيرتها على الأخلاق . فلولا حرصها على الطواف في الجبال أمسيات الأحد لما أثارت حفيظة فتيان البلدة . ولولا أنها أثارت حفيظتهم لما منحت كينو (الأقطع) فرصة الدفاع عنها . ولولا تلك الفرصة لما تحرّك قلبها اليابس والمحشور بين الضلوع . كان حبها الأول سلسلة من المصادفات التي لو فكّرت بها لأحست بالضيق وبالخجل . فما أكثر طرق الحب .

ولم يشع خبر العلاقة الغرامية بين (الفلفلة) الكبرى وكينو (الأقطع) في البلدة إلا بعد حين . ثم إنها نمت بطيئة متوترة . لقد كانت خطوة متأخرة جداً ، وإن كان (الأقطع) قد فكّر من قبل في(الفلفلة) . فكّر بها من قبل حادثة فتيان البلدة ، فليست (الفلفلة) صغيرة ولا هو كذلك . ثم إنها ، من ناحية أخرى ، كانت نحيفة ناشفة ، وتمتلك مصلحة مزدهرة وعقلية تجارية واضحة ، وهو بالضبط ما ينقصه بعد أن أغرقته الديون مؤخراً ولم يبق له من ملكية خاصة قدر حشيشة في البستان . ولأن (الفلفلة) كانت نحيفة معصورة الساقين ، على ما يبدو بالطبع إذا لم يتسنّ له ولا لغيره أن يعاين ساقيها ، فقد كانت السيدة لولا تمثل عنده حلاً مناسباً من جميع الجوانب .

لم يكن قصد كينو إذ منع الفتيان عن (الفلفلة) قصداً نفعياً بالطبع ، انما فعل ذلك لأنه رجل شهم ومحترم ويكره العنف وخاصة مع النساء ،

أما أن تتشابك الأمور فتنظر (الفلفلة) إليه بطريقة أو بأخرى ، وتطبع قبلة حارة على فضلة يده فيشعر هو عندها بدبيب على امتداد ذراعه يحرّك عواطفه ، فتلك حلقات سلسلة واحدة وحوادث لازمة لصنع نهاية مكتوبة ومقدّرة ، إنها أقدار الرب .

لقد بيّنت تلك القبلة التي طبعت على لحم فضلة الذارع المبتورة لكينو (الأقطع) كذلك أنه ما يزال يحتفظ في جسمه بنبض الرجوله وعنفوانها وبأنه لم يحيّد بعد في رجولته وأنه ما زال يحسب له كل حساب ، وراح يفكر في كل ما يمكن تنفيذه ، وهكذا ولدت في رأسه فكرة إدخال وردة من تحت باب دكان (الفلفلة) فجر كل يوم والبلدة في سبات .

كان (الأقطع) يدرك أن عليه أن يتصرّف بحذر ، فالبلدة تبغض (الفلفلة) لتطرفها في أمور الدين ولأن أختها كانت قطاً متربصاً . فكان عليه إذاً أن يتصرّف بتكتم وحذر وحكمة .

كان يغيّر الوردة كل يوم ، وان كانت الوردة كبيرة ، اكتفى بإدخال واحدة من وريقاتها . كان (الأقطع) يدرك أن الوردة البريئة لاتصمد أمام الريح ، فإن كانت مقصودة فان لها من قوة الإقناع ما يفوق قوة سبيكة من الذهب . كان يدرك كذلك أن كثرة الطرق تفلّ الحديد .

وبعد شهر بدأ سيل العواطف هذا يصب كله ، بالطبع ، في دون خوسيه القس . قالت (الفلفلة) :

– دون خوسيه . هل من الخطيئة أن تتمنى امرأة إغماءة بين ذراعي رجل ؟

– هذا يعتمد على النية – قال الراهب .

– لانية غير الإغماءة ، دون خوسيه .

- إغماءة في هذه السن يابنتي ؟

- ماذا تقصد ، حضرة القس ؟ وهل يدري أحد متى تحين الساعة ؟ إنها حال الحب وحال الموت ، يجيئان على حين غرّة ، واذا كانت الإغماءة بين ذراعي رجل خطيئة فإنني أعيش متمادية فيها ، دون خوسيه . إنني أقولها لك وليس لما بي من علاج . إنني لا أستطيع أن أتمنى شيئاً آخر وإن قلت لي إنها أعظم خطايا العالم . إن لهذه الرغبة قوة تفوق قوتي . وبكت .

وراح دون خوسيه يحرك رأسه من صوب لآخر كرقّاص الساعة :

- إنه كينو ، أليس كذلك ؟

- بلى ، إنه هو ، دون خوسيه .

- إنه رجل طيب يابنتي ، ولكنه معدم فقير .

- لايهم ، دون خوسيه ، فلكل شيء حل .

- وماذا تقول أختك ؟

- إنها لا تعرف شيئاً بعد ، ولكنها لاتجرؤ على محاسبتي ، ولكن تكسب شيئاً إن هي حاولت نصحي . وأخيراً علمت ايرينه ، (الفلفلة) الصغرى ، بالأمر :

- أكاد لا أصدق ، لولا . هل جننت ؟

- لماذا تقولين لي ذلك ؟

- ألا تعرفين ؟

- لا . لاتنكري أننا في البيت في حاجة إلى رجل .

- وعندما حدث لي ما حدث مع ديماس ، أما كنّا في حاجة إلى رجل في البيت ؟

– الأمر مختلف أختاه .

– الفرق الوحيد هو أن المجنونة هذه المرة هي أنت .

– ولكن كينو رجل ذو حياء .

– وكذلك بدا ديماس .

– ديماس كان طامعاً في مالك ، وقد بقي معك ما دامت آلافك الخمسة . أنت قلت ذلك .

– وهل تظنين أن كينو يريدك لشخصك ؟

ونطّت (الفلفلة) الكبري وقد أحسّت بالإهانة :

– وما هي أسبابك للشك في ذلك ؟

وتراجعت الأخت الصغيرة:

– لا أسباب ظاهرة بالطبع .

– ثم إنني لن أحتاج الى الاختباء كما فعلت أنت . بل سأخضع عاطفتي لشريعة الرب .

ولمعت عينا (الفلفلة) الصغرى :

– لاتتكلمي عن ذلك . أتوسّل إليك بروح والدينا المباركين .

لم يتضح حينها شئ عن الخطوبة في البلدة لذلك توجب على كينو و (الفلفلة) أن يطوفا شوارعها ذات عصر أحد متلازمين لكي يعلم الناس بالخبر . وعلى العكس مما قدّر كينو (الأقطع) فلا ورود الجيرانيو ذبلت في شرفاتها ولا الأبقار ارتعشت في حظائرها ولا الأرض انخسفت ولا الجبال تصدّعت عندما شاع الأمر ، وإنما حدثت ابتسامات لاذعة وتلميحات متنذرة وحسب ، وهوما لم يكن ينتظر أقل منه .

وبعد أسبوعين ذهبت (الفلفلة) الكبري لزيارة دون خوسيه ثانية :

– حضرة القس . هل من الخطيئة أن تتمنى امرأة أن يقبلها رجل من فمها وأن يضمّها بقوة بين ذراعيه ؟

– نعم . إنها خطيئة .

– ولكني لا أستطيع على ذلك صبراً ، دون خوسيه ، انني أخطئ كل دقيقة من حياتي .

– عليكما أن تعجّلا بالزواج – قال القس دون أن يضيف شيئاً آخر .

وعلا صراخ ايرينه عندما علمت بقرار دون خوسيه :

– أنت تكبرينه بعشرة أعوام ، لولا . لقد بلغت الخمسين ، فاعقلي وتفكّري . عودي بحق السماء إلى رشدك قبل فوات الأوان .

ولكن (الفلفلة) الكبري كانت قد اكتشفت لتوها جمال الشمس الرابضة وراء الجبال ، وحلاوة صرير العربات المحملة بالعشب وروعة تحليق الحدآن وهي تطير باتزان وتناسق تحت سماء أغسطس الصافية بل لقد اكتشفت جمال الحياة ، الحياة وحسب ، فأتى لها وقد اكتشفتها أن تتخلى عنها .

– لقد قرّرت ، أختاه . وأمامك الباب مفتوح إن شئت الرحيل .

وانفجرت (الفلفلة) الصغرى بالبكاء وأصيبت بنوبة عصبية ثم رقدت محمومة . وظلت على تلك الحال أسبوعا كاملاً ، ولما حلّ يوم الأحد زالت الحمّى . ودخلت (الفلفلة) الكبرى حجرة أختها على رؤوس أصابعها وسحبت الستائر مبتهجة :

– هيا انهضي ، أختاه . فاليوم سيقرأ دون خوسيه إعلان زواجي الأول ، ويجب أن يكون هذا اليوم عندي وعندك يوماً مشهوداً .

ونهضت ايرينه دون أن تتفوه بشيء. ارتدت ملابسها وذهبت مع أختها لسماع الإعلان الأول عن الزواج ، وعند العودة الى البيت قالت لولا لأختها :

– افرحي أختاه ، فستكونين عرّابتي يوم عرسي .

وكانت ايرينه ، فعلاً ، عرّابة أختها في العرس ، ولكن دون أن تتفوّه بكلمة واحدة ، وبعد أشهر من الزواج أمرت (الفلفلة) الكبرى ، وقد راعها إذعان أختها وصمتها ، باستدعاء دون ريكاردو الطبيب :

– الفتاة مصابة بصدمة قوية . إنها لا تعقل . على أية حال فليس الأمر خطراً ، ومرضها لايوحي بأية حالة عنف – قال الطبيب وانصرف بعد أو وصف لها حقناً . وراحت (الفلفلة) الكبري تبكي بغصّة .

على أن ذلك كله لم يفاجئ دانيل (البوم) الذى صار يدرك أن الحياة مليئة بالحوادث التى تبدو ، قبل وقوعها ، غير ممكنة ثم تبدو ، وقد وقعت ، أن لاشئ فيها غريب ولامفاجئ ، بل إنها طبيعية كشروق الشمس كل صباح وكالمطر وكالليل وكالرياح ، وتابع (البوم) مسيرة العلاقة بين (الفلفلة) و (الأقطع) عن طريق أوكا – أوكا . ومن الغريب أن (البوم) ، حالما علم بتلك العلاقة ، بدأ يحسّ أن نفوره القديم من الصغيرة زال تماماً وأن شعوراً غامضاً بالشفقة عليها بدأ يحل محله . صادفها ذات يوم تنقّب بين الأحراج على شاطئ النهر :

– ساعدني ، بوم ، لقد اختبأ هنا زرور لايقوى على الطيران .

واجتهد هو فى العثور على الزرور ، وتمكن أخيراً من العثور عليه ، ولكن الطائر الصغير جاهد للتملّص فسقط فى النهر وغرق فى الحال ، وعندما جلست ماريوكا – أوكا على حافة النهر وغمرت قدميها فى مائه وجلس (البوم) الى جانبها حزينين لموت الطائر ، لكن الحزن لم يلبث أن تبدد :

– هل صحيح أن أباك سيتزوج (الفلفلة) ؟ قال (البوم) .

– هذا ما يقولونه .

– من يقول هذا ؟

– هم .

– وماذا تقولين أنت ؟

– لا أقول شيئاً .

كان دانيـيل يشعـر بمحنة الصغـيرة المكبـوتة ويتفـهم صمتهـا المطبق الشجاع . وسألته الطفلة فجأة :

– هل صحيح أنك ستذهبين الى المدينة ؟

– نعم ، بعد ثلاثة أشهر ، فقد بلغت الحادية عشرة وأبي يريد لي أن أتقدم .

– وأنت ماذا تقولين ؟

– لا أقول شيئاً .

وأدرك (البوم) ، بعد انتهائه من الكلام ، أنهما تبادلا الأدوار ، إنه هو ، هذه المرة ، من لايقول شيئـاً . ووجد أن بينه وبين أوكا – أوكا نقطة مشتركة ذات شبه غريب ، فكل منهما مضطر الى القبول بما يلائم أباه دون أن يطلب اليـه رأي في ذلك . ولاحظ كذلك أنه لايتـضايق وهو يـحادث الطفلة ، بل انه كـان مرتاحـاً وهو يتحـدث عن أشيـاء وأشياء وأن مـيكا لايخطر على باله في شيء ، خصوصاً أن فكرة السفر الى المدينة تتراءى له من جديد صعـبة لا تطاق ، ولاشك أن ميكا ستكون عنـدما يعود هو من المدينة فقد فقدت نعومة بشرتها بل وانجبت ذرية من الأولاد .

وصار (البوم) يلتقي بالصغيرة مرات أكثر ، وما عاد يعرض عنها عابساً كما كان يفعل من قبل .

– متى العرس ، أوكا – أوكا ؟

– في يوليو .

– وماذا تقولين ؟

– لا أقول شيئاً .

–وهي ماذا تقول ؟

– تقول إنها عندما ستصبح أمي ستأخذني الى المدينة ليزيلوا النمش عن وجهي .

– وأنت ، هل تريدين ذلك ؟

وارتبكت الطفلة وخفضت عينيها :

– بالطبع .

ولم تظهر أوكا – أوكا نهار يوم العرس في أي مكان . وعند حلول المساء ترك كينو (الأقطع) عروسه وكل شيء قائلا أن عليه إن يبحث عن الطفلة مهما كلّف ذلك ، كان دانييل (البوم) يتابع مستمتعاً التحضيرات من حوله ويتأمل الرجال وهم يحملون العصى والقناديل والمصابيح اليدوية ويرتدون الأحذية الضخمة المسمّرة التي تحدث عند السير بها على الطريق ضجيجاً وصريراً .

ولما رأى دانييل (البوم) أن الوقت يمضي دون أن يعود الرجال من الجبال بدأ القلق يساوره . كانت أمه تقف الى جانبه وهي تبكي وتردد بلا انقطاع « باللطفلة المسكينة » ، فيما بدا أنها لم تكن تؤيد أن يكون للطفلة زوجة أب . ومرت في هذه الأثناء رافائيلا (الخنزيرة) ، زوجة كوكو ،

مأمور المحطة ، من أمام معـمل الجبن وقالت إن من المحتمل أن يكون ذئباً قد افترس الفتاة فتملّكت دانييل (البوم) رغبة فى الصراخ من أعماقه وفكر فى تلك اللحظة بأنهم لو أزالوا النمش من وجه أوكسا - أوكا فسيزيلون ظرفها ، هو لايريد أن يزيلوا النمش من وجهها ولا أن يفترسها الذئب .

وفى الساعة الثانية فجراً عاد الرجال وهو يحملون العصى والقناديل والمصابيح اليدوية وقد بدت أوكا - أوكا فى وسطهم شاحبة الوجه شعثاء الشعر ، وخفّ الجميع صوب بيت (الأقطع) لرؤية الفتاة وتقبيلها واحتضانها والاحتفاء بالعثور عليها . ولكن (الفلفلة) سبقت الجميع وتلقّت الطفلة بصفعتين على وجهها . وكظم كينو (الأقطع) لسانه أن يطلق منكراً ، ولكنه حذّر (الفلفلة) قائلاً إنه لايقبل أن تضرب طفلته . ولكن السيدة لولا ردّت عليه قائلة بأنها « صارت منذ الصباح أماً لها ، وأن عليها واجب تربيتها » ، فما كان من كينو الا أن جلس على إحدى دكك الحانة وأسند ذراعيه على الطاولة فكأنه يوشك على البكاء أو كأن فاجعة أوشكت على النزول به .

الفصل التاسع عشر

رفع جيرمان (الأقرع) أصبعه وأمال رأسه قليلاً منتصتاً وقال :

– ذاك الطائر الذى يغنى فوق السور هو طائر أبو زريق .

وقال (البوم) معارضاً :

– كلا . إنه طائر الحسون .

وأوضح له جيرمان أن لأبى زريق خواصاً صوتية تمكّنه من تقليد زقزقات جميع أنواع الطيور وصفيرها . وأنه يقلد أصواتها ليستدرجها ويفترسها ، لذلك فهو من الطيور المقيتة لخبثها ورياتها .

ولكن (البوم) أصرّ على رأيه قائلا :

– بل هو طائر الحسّون .

كان دانييل يجد متعة فى المعارضة ذلك الصباح . إنه يشعر باندفاعه فى المعارضة مع أنها معارضة لاتقوم على أساس ، ولكنه كان يحسّ ارتياحاً وبيلاً وغامضاً إذ يفعل ذلك .

وتدخّل روكى (البعرور) فجأة وهو يصرخ :

– انظر . إنه أحمق الماء .

كان يشير الى مكان يقع على يمين البركة ، مسافة ثلاثة أمتار من مصب النهر . وكانوا فى البلدة يطلقون هذه التسمية على أفعى الماء دون أن يعرفوا لهذه التسمية سبباً ، إذ ليس من دأبهم البحث عن الأسباب فى ما يخص مفردات الوادى ، إنهم يتقبلون التسميات وحسب فيدعون تلك الأفعى التى تصول على ضفة النهر بضربات متشنجة من ذنبها بأحمق الماء

ونهض الأولاد الثلاثة وألقوا ببعض الحجارات على الأحمق الذى كان يحمل سمكة صغيرة بين فكيه .

وصاح (الأقرع) محذراً :

– لا تدعاه يصعد ، لأنه فى الأماكن المرتفعة يلف جسمه كالطوق ويدور متدحرجاً بسرعة تفوق سرعة الأرنب ، وقد يهاجم .

ونظر (البعرور) و (البوم) الى الحيوان مفزوعين . وراح (الأقرع) ينط من صخرة الى صخرة وهو يحمل حجارة كبيرة ويحاول الاقتراب من أحمق الماء ، ولكن خطوة غير موفقة أو انزلاقاً على الوحل الذى كان يغطى الصخور أو زلة من ساقه العرجاء أطاحت به فسقط بقوة على الصخور ليرتطم رأسه بها ولينساب من هناك كتلة هامدة حتى البركة . وألقى (البعرور) و (البوم) بنفسيهما دون تأخر إلى الماء لإنقاذ صاحبهما ، وأفلحا بعد سباحة يائسة مضنية فى انتشال جسده واخراجه الى ضفة النهر . كان (الأقرع) مصاباً بجرح عظيم فى عنقه وكان غائبا عن الوعى . أما روكى ودانييل فكانا مصعوقين . وحمل (البعرور) الجسد الخامد على كتفه وصعد به الى الطريق العام . وفى بيت كينو وضعت (الفلفلة) كمادات الكحول على رأسه ، وبعد قليل مر من هناك استيبان الخبّاز فحمله بعربته إلى البلدة .

وانفجرت ريتا (البلهاء) صراخاً وتأوهاً إذ رأت ولدها على تلك الحال . ومرّت لحظات من الارتباك . وبعد خمس دقائق كانت البلدة عن بكرة أبيها تحتشد أمام باب الاسكافى حتى إن دون ريكاردو الطبيب شقّ طريقه الى البيت بصعوبة لشدة ما كان فى الناس من قلق وجزع ، وعندما خرج الطبيب اتجهت العيون صوبه بانتظار ما سيقول :

– إن حالته خطرة جداً . لقد كسرت قاعدة الجمجمة . اطلبوا سيارة إسعاف من المدينة .

وصار الوادى فى عينى (البوم) رمادياً كـالحاً ، وشحب ضوء النهار واكـفهر ، ودوّت فى السـماء قوة أشدّ حتى من قوة باكو الحداد قال بالمجو (الملحد) انـها قوة القـدر وقالت (الفلفلة) إنـها إرادة الرب ، ولما رأى دانييل أنهـما لم يتفـقا على رأى تسلل الى حجـرة صديقه الجـريح . كان جيرمان (الأقرع) شديد البياض وكانت شفتاه منغلقتين على ابتسامة رقيقة ناعمة .

وظل (الأقرع) لثـمان ساعـات ساحة مـعركة بين الحـياة والموت . ووصلت سيارة الإسعاف من المدينة وكان فيها توماس ، أخو (الأقرع) ، وكان موظفاً فى شركة للحـافلات . وما إن دخل هذا الى البيت كالمجنون حتى تلقته أمه وقد خرجت للتو مذعـورة من حجرة أخيه المصاب ، معانقة فى ما يشبه تماساً كهربائياً وصارخة فى ما يشبه شرارة صاعقة .

– وصلت متأخراً ياولدى . لقد مات أخوك .

وطفرت الدمـوع من عيني توماس وشـدّف مغتاظـاً فكأنه يحتج على الرب لوقوفه عـاجزاً دون حول ولاقوة ، وراحت النسـوة يتحبن ويولولن عند باب الدار ، ثم خرج اندريس الإسكافى من الحجرة وقـد مال بجسمه فكأنه يود التطلع الى سيقان أصغر قزمة فى العالم . وشعر دانييل (البوم) برغبة فى البكاء لكنه لم يجـرؤ لأن (البعرور) كان يصده صارماً مـستبداً دون أن يتحرك له رمش ، واستغـرب (البوم) إذ لاحظ أن الجميع صاروا يحبّون (الأقرع) ، حتى أن المرء ليظن ، وهو يسمع البكاء والنحيب ، أن جيرمان هو ابن كل واحدة من نسـاء البلدة . مع ذلك فقد وجد (البوم) عزاء فى بادرة التضامن تلك .

وذهب (البعرور) و (البوم) الى محل الحدّاد بينما انشغل الآخرون بتكفين (الأقرع) :

– أبي – قال (البعرور) – لقد مات (الأقرع) .

واضطر باكو الحداد ، على ضخامة جسمه وقوته ، الى الجلوس بعد أن أذهله سماع الخبر ، ثم قال وكأنه يجاهد ضد شيء يسلبه قواه :

– الرجال يخلقون ، أما الجبال فقد خلقت من قبل .

– ماذا تقصد بذلك أبتاه ؟ – سأل (البعرور) .

– أن تشربا – قال الحداد بنبرة من الغضب وهو يناول ولده زق النبيذ .

كانت الجبال تكتسي عتمة محزنة ، وكذلك الحقول وشوارع البلدة وبيوتها والطيور وزقزقاتها .

وأشار باكو الحداد عليهما أن يطلبا إكليلاً جنائزياً من المدينة تكريماً للصديق الفقيد ، فذهبا الى بيت (الأرنبات) وطلبا ذلك بالهاتف . كانت كاميلا تبكي هي الأخرى ، ورفضت أن تأخذ منهما نقودا على الرغم من طول مدة المكالمة ، ولما عاد الصديقان الى بيت (الأقرع) طوّقت ريتا (البلهاء) بذراعيها عنق (البوم) طالبة إليه أن يسمح لها باحتضانه وضمه إلى صدرها لأنها تواصل هكذا احتضان ولدها ، فقد كان أقرب أصدقائه إليه ، واشتد حزن دانييل وهو يرى أنه ليس أمامه إلا أربعة أسابيع قبل أن يسافر إلى المدينة ليبدأ تقدمه ، وأن ريتا ، التي لم تكن بلهاء بالقدر الذي يزعمون ، ستبقى صفراً من ولدها (الأقرع) ومنه هو بينما تسعى لإرضاء عاطفتها البائسة الثكلى ، وربت الإسكافي على كتفي الصديقين وشكر لهما أنهما انتشلا ولده من النهر ولكن الموت كان له بالمرصاد وليس من حيلة أمام الموت إن وقف لأحد بالمرصاد .

وواصلت النسوة البكاء عند الجثمان ، ومن حين لآخر كانت تندفع احداهن لتقبل الجسد الصغير النحيف البارد بينما يرتفع عويل الأخريات وتزداد دموعهن .

وشدّ توماس منشفة على رأس أخيه كي لاتبين قرعته فاشتد حزن (البوم) لأن صديقه بدا ، على ذلك النحو ، وكأنه طفل مورى كافر . وتأمل (البوم) أن يحدث منظر المنشفة الانطباع ذاته في دون خوسيه القس فيأمر بنزعها ، ولكن الراهب وصل واحتضن الإسكافي والسقى على (الأقرع) المسحة المقدسة دون أن يتوقف عند المنشفة .

وما أقل ما يلتفت الكبار الى معاناة الصغار الدقيقة القاسية ، بل إن اباه الجبّان لم يواسه عندما رآه لأول مرة بعد الحادثة ، بل قال له :

– دانييل . لكي تعلم ما تؤدى اليه أعمال الشيطنة . أرجو أن يكون لك في هذا درس ، فما حدث لابن الاسكافي كان يمكن أن يحدث لك .

ولم يردّ دانييل بشئ لأنه خمّن إن هو تكلم فسينتهي به الأمر إلى البكاء . فأبوه لايريد أن يعرف أنهم ، عندما وقع الحادث ، لم يكونوا يقومون بأي عمل شيطاني ، وإنما كانوا يحاولون وحسب قتل أحمق الماء ، كما أن الأب لايلاحظ أنه ، يوم اصطادوا الحذاة بالدوق الكبير ، كان يمكن أن يصيب ولده في صدغه فيقتله بدلاً من إصابته بالكرة الرصاصية في خدّه فالكبار ينسبون الفواجع الى طيش الصغار وينسون أن هذه الأشياء هي من مقدرات الله دائما وان للكبار كذلك أفعالهم الطائشة أحيانا .

وأمضى دانيل (البوم) ليلته بالقرب من الميت ، كان يشعر أن شيئا كبيراً يسهر في داخله وان لاشيء سيبقى على حاله مستقبلا ، لقد كان من قبل يفكر أن صاحبيه (البعرور) و (الأقرع) سيشعران بالوحدة عندما

يذهب هو الى المدينة للتقدم ، ولكنه الآن يرى أنه هو من سيشعر بالوحدة ، بالوحدة الموحشة ، هو وحده ، لقد ذبل شيء ما في داخله فجأة ، ربما هو اعتقاده بطفولة دائمة ، وأدرك أن الموت هو غاية كل حي ، شيخاً كبيراً كان أم طفلاً صغيراً .

لم يسبق له قط أن توقف للتفكير في ذلك ، وهو الآن إذ يفكر في هذه الأشياء يختنقه شعور يؤخره ويبعث الضيق في صدره . فالحياة هكذا مشرقة ولكنها كذلك محزنة ومدمّرة . إنها الموت البطيء ، يوماً بعد يوم ، شيئاً فشيئاً . إنها الموت المحتوم ، فالجميع ،على المدى البعيد ،سيموتون : هو ودون خوسيه وأبوه الجبّان وأمه والفلفلات وكينو والأرنبات الخمس وانطونيو (الحوصلة) ومسيكا وماريوكا - أوكا والماركيز حتي باكو الحداد سيموت ، فالكل فان وزائل ولن يبقى أثر منهم على أحجار البلدة بعد مائة عام ، كما لايبقى الآن أثر ممن عاشوا قبل مائة عام . ولكن الانتقال يحدث ببطء ، ودون أن نشعر به . سيختفي الجميع من العالم ، جميع من يعيشون الآن على سطحه ، جميعهم إطلاقاً ولن يلحظ العالم التغيير ، فالموت مقتضب وغامض وفظيع .

وعند حلول الفجر ترك (البوم) صاحبه الميّت وتوجّه الى بيته للافطار ، لم يكن جائعاً ولكنه ارتأى أن يملأ جوفه تحسّباً للمواقف المؤثرة المقبلة . كان يخيم على البلدة في تلك الساعة هدوء راكد جليّ ، فكأن برودة الموت الشديدة طافت في جميع أرجائها وكبّلتها فالأشجار تبدو متيبسة وصياح الديكة جنائزياً فكأنها تصيح من خلال كاتم للصوت ، وكأنها لاتجرؤ على تعكير جو الحزن والانقباض المخيم على الوادي أما

الجبال فبدت بأجسامها الضخمة متشحة بالسواد تحت السماء الرمادية ، وكانت مسحة التعب والاسترخاء المعهودة في الحقول تبدو واضحة حتى في الأبقار التي كانت ترعى في تلك الحقول .

وما إن تناول دانييل (البوم) فطوره حتى عاد إلى البلدة . وبينما كان يمرّ من أمام سياج الصيدلية لمح زرزوراً ينقر كسرة برية على حافة الطريق العام ، فاضطرمت في نفسه المشاعر تجاه صديقه الفقيد . وبحث عن المصيدة في جيبه ثم وضع حجرة في شريطها ، وصوّب بدقة نحو الطائر ثم سحب المطاط بقوة ، وعندما ارتطمت الحجارة بصدر الزرزور سمع دوى عظام تتكسر . وركض دانييل صوب الطائر المجندل والتقطه بيدين مرتعشتين ثم واصل طريقه والزرزور في جيبه .

وعندما وصل كان جيرمان (الأقرع) قد أودع التابوت ، وهو صندوق أبيض مطلى بالورنيش كان الإسكافي قد طلبه من أحد محلات بيع التوابيت في المدينة ، وكان قد وصل كذلك الإكليل الذى طلبه الأولاد وقد كتب عليه ما أملاه (البعرور) : أصدقاؤك (البوم) و (البعرور) لن ينسوك أبداً يا (أقرع) » . وعاودت ريتا (البلهاء) احتضانه قائلة له بصوت منخفض إنه اكليل جميل ، ولكن الأخ توماس ، الموظف في شركة الحافلات ، غضب عندما قرأ الإهداء وقصّ الجزء الذى كتب عليه « يا أقرع » وترك بقية العبارة كما هي :

وبينما كان توماس ينظّم الشريط والآخرون يراقبونه حشر دانييل (البوم) الزرزور خفية في التابوت الى جانب جثمان صديقه . لقد فكّر أن جيرمان الذى يعشق الطيور سيشكر له ، وهو في عالمه الآخر ، تلك الالتفاتة . ولما عاد توماس لوضع الإكليل عندما قدم الميت لمح الطائر

مطروحاً جنب أخيه . وقرّب عينيه ليستأكد من أن ما يراه كان زرزورا بحق ، وما إن تيقن من ذلك حتى أحسّ بتيار غامض يسرى فى بدنه . لم يجرؤ على لمسه بل صاح :

– ماذا ؟ . . . من ؟ ماهذا ؟

ولم يجرؤ دانييل (البوم) بعد ما رآه من غضب توماس عقب حادثة الإكليل على الاعتراف بضلوعه فى هذه الحادثة الجديدة . وسرت دهشة توماس بسرعة بين الحضور عندما اقتربوا لتأمل الطائر ، مع ذلك لم يجرؤ أحد على لمسه :

– كيف وصل الزرزور الى هنا ؟

وراحت ريتا (البلهاء) تبحث عن تفسير معقول فى وجه كل واحد من جيرانها ، ولكنها كانت تقرأ الذهول نفسه فى كل الوجوه :

– أتعرف أنت يا (بوم) ؟

– أنا لاأعرف شيئاً ، لم أر الزرزور الا بعد أن أخبر بذلك توماس .

ودخل فى تلك اللحظة اندريس الاسكافى ، وما أن شاهد الطير حتى رقّت عيناه وراح يبكى بصمت :

– لقد كان يحب الطيور كثيراً ، وقد جاءت لتموت معه .

وبكى الآخرون لبكائه . وتلى الذهول الأولى اعتقاد عام بتدخل سماوى . وكان اندريس ، الرجل الذى لايرى من جانبيه ، أول من ألمح الى ذلك بصوت مرتعش :

– هذه معجزة :

ولم يكن الحاضرون ينتظرون غير أن يصرّح أحدهم بما كان يدور فى خلدهم لينفجروا ، لذلك فما إن سمعوا قول الإسكافى حتى انطلقت صرخة جماعية مدوية مشوبة بتأوهات وبكاء .

– معجزة .

وخـرجت مـجمـوعـة من النسوة فـزعات يركـضن بحثـاً عن دون خوسيـه ، وذهب بعضهن لإبلاغ أزواجهن وأقربائهن لـيكونوا شهوداً على الأعجوبة ، وحدث هرج ومرج عارمان .

كـان دانيـيل (البـوم) يتلـع ريقه دون توقـف فى ركن من أركـان البـيت . أن الكائنات الغريبة الخبيثة المحلقة فى الفضاء تواصل ، حتي بعد مـوت (الأقرع) ، تعقيد أفعـاله البريئة ونواياه الحسنة . وفكّر (البوم) أن من الخير له ، بـعد ما وصلت اليه الأمور ، الـسكوت وإلا فإن توماس قد يقتله وهو فى سورة غضبه .

ودخل دون خوسيه على عجل .

– انظر ، دون خوسيه ، انظر – قال الإسكافى :

واقترب دون خوسيه مـرتاباً من حافة التابوت ورأى الزرزور مطروحاً إلى جنب يد (الأقرع) المتخشبة :

– هل هى معـجزة أم لا ؟ – قـالت ريتا منفعلة وهى تـتأمل الذهول الذى بدا على وجه القس .

وسرت همهـمة طويلة حولهم . حرّك دون خوسـيه رأسه من طرف لآخر وراح يتفحّص الوجوه المحيطة به .

وتوقفت نظراته لحظات فى وجه (البوم) المضطرب . ثم قال :

– اعترف أن الأمر غريب . ولكن ، ألم يضع أحد هذا الطائر هنا ؟

– لا أحد . . – صرخ الجميع .

وخفض دانـييل (البـوم) عينيـه ، وعاودت ريتـا الصراخ مطلقـة قهقهات هستيرية ومتحدية بنظراتها دون خوسيه :

– ها ، حضرة القس . هل هى معجزة أم لا ؟

وحاول دون خوسيه تهدئة الخواطر المنفعلة :

– أنا لا أستطيع أن أبدى رأياً ازاء شيء من هذا القبيل ، فى الواقع أن من المحتمل جداً ، ياأبنائى ، أن يكون أحد ما قد دس الزرزور فى التابوت مازحاً أو بحسن طوية وهو لايجرؤ الآن على التصريح بفعلته خوفا من غضبكم وعاود النظر الى دانيل بعينيه الجارحتين المدببتين كطرف الدبوس ، واستدار (البوم) الخائف ثم ولى هارباً الى الشارع ، وواصل القس كلامه : – على كل حال سأتولى ابلاغ الأسقف بما حدث ، ولكنى أكرر أن عليكم ألا تمنّوا أنفسكم بالكثير فى الواقع هناك كثير من الحوادث التى لها اعجاز ظاهرى ولكنها لاتمتلك من المعجزة غير ما قلنا : الظاهر – ثم قطع حديثه قائلا : – سأعود الساعة الخامسة للدفن .

وعند الباب ، عثر دون خوسيه القس ، وهو قديس كبير ، بدانيل (البوم) الذى كان يختلس النظر إليه خجلاً . ولما أيقن القس أن لا أحد موجود بالقرب منهما ابتسم للفتى وربت بحنان على قفاه وقال له هامساً :

– فعلة متقنة ياولدى . فعلة متقنة .

وترك له يده لكى يقبّلها ثم ابتعد بخطى بطيئة جداً مستنداً على عصاه .

الفصل العشرون

لأجراس النواقيس لغة معبّرة ومستغيّرة ، ولذبذباتها قدرة على إحداث نغمات عميقة وحادة ، رصينة وخفيفة ، قاتمة ومعتمة بالأجراس لا تكرر الشئ نفسه مطلقاً ، ولا تقول ما تقول بالطريقة ذاتها على الإطلاق .

لقد اعتاد دانييل (البوم) أن يكيّف قلبه وعواطفه على نغمة الأجراس إنه يعرف أن دقات يوم الراعية لها نغمة الألعاب النارية وصوت الهرج والمرج الصاخب وغير المتناسق ، والتى لسماعها يتكوّر قلبه وهو ينبض بشعور من الفرح التام المتجانس . وعندما كانت تنتهي الغارة فى وقت الحرب كانت النواقيس تجلجل بفرح كذلك ولكنه فرح مشوب بالحذر والترقب ، فقد كان من الواجب التسلح بالحذر . فى مرات أخري كانت الدقات صمّاء معتمة كالحة جوفاء كما كان حالها يوم دفنوا جيرمان (الأقرع) . لقد عمّت الوادى يومها دقات منبعثة من نواقيس الأبرشية ، دقات صمّاء معتمة كالحة جوفاء ، وكانت برودة ذبذباتها تنفذ الى أعماق الأرض وجذور الزرع ونخاع عظام الرجال وقلوب الأطفال ، فكان قلب دانييل (البوم) يذوب ويلين كالرصاص المنصهر ، من أثر دقات النواقيس المهيبة فيه . كان المطر يسقط خفيفاً . وكان أولاد الاسكافى الكبار الأربعة يسيرون خلف دون خوسيه ، الذى ارتدي قميصه الكهنوتيّ الأبيض مع الوشاح ، وهم يحملون النعش على أكتافهم وبداخله جيرمان (الأقرع) والزرزور ، يتبعهم أبوهم وبقيه العائلة وجميع رجال البلدة ونسائها وأطفالها وقد تجهمت وجوههم وانعكست فى مصارينهم أصداء الأجراس

وهى تتردد فى نغمات بطيئة موزونة ، أما دانييل (البوم) فكان يسمع تلك الأجراس بطريقة خاصة فى ذلك اليوم . كان يرى نفسه مثل واحدة من تلك الحشرات التي دأب راهب بلدة (لاكويرا) على جمعها فى علبة ، إذ كانت كل دقة ، كشأن تلك المخلوقات الصغيرة ، بمثابة إبرة حادة تخترق منطقة حساسة فى كيانة ، انه يفكّر فى جيرمان (الأقرع) وفى نفسه وفى المسارات الجديدة التى تفرض على حياته . كان يؤلمه الإحساس بأن لاشيء لاشيء مما مضى يمكن أن يعود . كان إحساساً ثقيلاً بالانقياد والتبعية والخضوع . ان ما يثير أعصابه عدم قدرته على إعادة عقارب الزمن إلى الوراء ووقوفه عاجزاً ازاء حقيقة أن أحداً لن يعود الى التحدث اليه ، بدقة (الأقرع) واحاطته ، عن طائر أبى زريق والحجل والرفراف ودجاج الماء أن عليه أن يتقبّل ألا يعود أبداً الى سماع صوت جيرمان (الأقرع) وأن تألف أن عظام صاحبه ستصير ، هى وعظام الزرزور ، تراباً ، وأن الدود سينخر الجسدين معاً دون مفاضلة ولاتمييز .

وأحس بشيء من الراحة وهو يتحسّس فى جيبه قرشا مثقوباً من وسطه . وفكّر : عندما سينتهون من الدفن سيذهب هو الى دكان انطونيو (الحوصلة) لشراء قطعة من السكاكر . ولما كان من غير اللائق تناول الحلوى بعد دفن صديق حميم فعليه إذا الانتظار إلى الغد . وبدأوا بنزول العقبة من ناحيتها الشمالية متجهين صوب مقبرة الوادى الصغيرة . وكانت دقات النواقيس تكتسب، وقد مرّوا من ناحية الكنيسة ، تأثيراً نافذاً ومؤلماً. واجتاز الموكب منعطف الأبرشية ثم دخل المقبرة ، وصرت بوابتها الحديدية حاملة ساخطة . لم يكن المكان يتسع للجميع . وأسرع قلب دانييل (البوم) النبض وهو يرى الحفرة الصغيرة مفتوحة عند قدميه . كانت مقبرة

البلدة فـاترة منزوية مـريحة تحتوي على شـجـرتى سرو مـعمـرتين متجهمتين ترتفعان عند سيـاج المقبرة الشرقى. لم يكن فى المقبرة مرمر ولا تماثيل ولا أضرحة ولاقبور محفورة فى الجدران ولا قبور مكسوة بالجدران. فالموتى تراب يعود إلى التراب ، يختلط به فى اندفاع مباشر ، بل معيب ، الى الالتحـام به والامتزاج مـعه ، لقد نمت حـول الصلبان الكثيـرة نباتات السرخس والقراص والنعناع وكل أصناف الحـشائش البرية لكى تكون بمثابة عزاء لمن يرقد هناك محفوفـا فى الليل والنهار بروائح الحقل الذكية . كانت السماء متجهمة عابسة . كان المطر الخفى متواصلاً . وكان الحشد ، محتمياً بالمظلات ، يشكّل بقعة مسوّدة فى لوحة رمزية باعثة على الرعشة والحزن . وأحسّ دانييل (البـوم) بالبرد عندما بدأ دون خوسيـه صلاته على النعش الموضوع عند حافة القبر .

كان يخـيم على المكان صمت سمـحت به مائة حسـرة مكبوتة وألف دمعـة محبوسـة . والتفت (البوم) إذا أحسّ فوق حـرارة يديه بحرارة يد صديقة انها أوكا – أوكا . كانت الطفلة تضيف الى ملامحها الطفولية وقاراً يوحى بعجز وخضوع محزنين . كـان سيروق لدانييل (البوم) لو انه كان مع أوكا – اوكـا وحيـدين عند النعش ليكون فى امكانه أن يصبّ دمـوعه غزيرة على ضفائرها الذهبية . فكّر فى هذا وهو يحسّ بين يديه بحرارة يد صـديقة أخـرى . كمـا أنه يأسف ، وهو ينظر الى النعش عند قـدميـه ، للجـدل الذى نشب بينه وبين (الأقـرع) حول صـوت طيور الحـجل أثناء الطيران وحول رقزقات أبى زريق وحول طعم الندب التى تخلفها الجروح . (الأقرع) الآن لايقـدر على الدفاع عن نفسه ، ولكن دانيـيل (البوم) ، من أعماق روحه ، يرى أنه كان على حق دون قيد أوشرط كان صوت دون خـوسيـه يهتـز ذلك المسـاء تحت المطر بنبرات حـزينة وهو يرتل القـدّاس الجنائزى :

- كريـاليســون ، كرسـتيـاليــسون ، كـريـاليسـون . أبانا الذى فى السماوات . .

وبعد هذا كان صوت الراهب يتحول الى همس غير مفهوم . وأحس (البوم) برغبة شديدة بالبكاء وهو يتأمل الاسكافى مذعنا مستسلما . إنه لايشك ، وهو يراه على تلك الحال ، أن انـدريس ، الرجل الذى لايرى من جانبيه ، لن يعـود أبدا الى النظر الى سيقان النساء ، فقـد أصبح فجأة عجوزاً مرتعشاً منهكا غيـر معنى بالجنس ، وعندما أتم دون خوسيه الصلاة الثالثـة بسط ترينو قطعة من الخيش الى جـانب النعش فرمى اندريس فيـها ببيزيته . وارتفع صوت دون خوسيه من جديد :

- كريـاليسـون ، كرسـتيـاليـسون ، كـريـاليسـون . أبانا الذى فى السماوات . .

وجاء دور (البيدق) فرمى بقطعة نـقدية على رقعة الخيش فرتّل دون خوسيه من جديد ، ثم تقرّب باكو الحداد ووضع عشرين ستتاً أعقبه كيـنو (الأقطع) فساهم بمبلغ طفيف ثم تتابع بعد ذلك كوكو ، مأمور المحطة ، وباسكوالون ، عامل الطاحونة ، ودون رامون العمدة وانطونيو (الحوصلة) ولوكاس (الأبتر) والأرنبات الخمس والقيّمة على منزل (الماركيز) والجانو وكل رجال البلدة ونسائهـا ، وراحت رقعـة الخيش تمتلئ بالقطع بالنـقدية خفيفـة الوزن قليلة القيمة بينما راح دون خوسيـه ، وهو القدّيس الكبير ، يردد على كل عطية بصلاة فكأنه يقدم لهم الشكر :

- كريـاليسـون ، كرسـتيـاليـسون ، كـريـاليسـون . أبانا الذى فى السماوات . .

أما دانييل (البـوم) فكان يتشبث بقطعة نقوده ويحـشر يده فى جيب بنطاله . كان يـفكر لا ارادياً فى حلوى الليمون التـى سيأكلهـا فى غده . ولكنه ربط فجأة بين طعم حلواه ورقدة صاحبه الأخيرة ، وبدأ يقول لنفسه أن لا حق معه إذا يريد أن يتـمتع هو بحلوى الليمون بينما صديقـه يتفسّخ فى حفـرة الأرض . وبدأ يسحب قـرشه ببطء من جـيبه وهـو عازم على الالقـاء به الى رقعـة الخيش ، ولكن صـوتاً فى داخله أوقفـه : « كم من الوقت ستحتاج للحصول على قـرش آخر يابوم ؟ » فألقى به ثانية فى جيبه مدفوعاً بغريزة البخل البذيئـة . ثم تذكر حديثه مع (الأقرع) حول صوت الحجل عند الطيران فعاوده الألم من جديـد . وجثا ترينو على رقعة الخيش وأمسك بهـا من زواياها الأربع لحملهـا لكن دانييل (البوم) تقـدم صوب النعش ، بعد أن تخلّص من يد أوكا – أوكا الممسكة بيده قائلاً :

– انتظر .

وتوجهت إلـيه كل العيـون وتملك دانييل (البـوم) لتلك النظرات ، شعور من تتساقط عليه قطرات المطر . ولكنه لم يأبه لذلك بل شعر باعتزاز كبير كذاك الذى غـمره يوم تسلقه عصا الكوكانيا . أخرج مـن جيبه قطعة نقوده اللمـاعة المثقـوبة من وسطها وألقى بها إلى رقـعة الخيش ثم تابعـها بعينيه وهى تدرج مسافة قـبل أن تنضمّ إلى الأخريات محدثة عند ارتطامها بهن رنّة طروباً . ومع صوت دون خوسيـه القس ، وهو القدّيس الكبير ، بلغته ابتسامة (الأقرع) صادرة من قاع تابوته الأبيض المطلى بالورنيش .

– كريـاليسـون ، كرسـتياليـسون ، كـرياليسـون . أبانا الذى فى السماوات . .

وبعد انتهاء دون خوسيه أنزلوا التابوت في القبر وأهالوا عليه تراباً كثيراً . ثم راح المشيّعون يغادرون المقبرة ببطء . كان الظلام يهبط والمطر يشتد ، وقد علت أصوات نعال الناس العائدين الى البلدة يجرّونها جرّاً .

وعندما وجد دانييل (البوم) نفسه وحيداً اقترب من قبر صاحبه ، رسم علامة الصليب ثم قال :

– لقد كنت على حق يا (أقرع) ، فالحجل عند الطيران تصبح « بررر » وليس « يررر » .

وهمّ بالانصراف لكن فكرة أخرى عادت به من جديد ، فعاود التصليب وقال :

– ومعذرة عن الزرزور .

كانت ماريوكا – أوكا في انتظاره عند بوابة المقبرة . أخذت بيده دون أن تقول له شيئاً ، فأحسّ (البوم) برغبةشديدة بالبكاء تجتاحه من جديد ، ولكنه احتوى ألمه ودموعه فقد كان (البعرور) يسير أمامه على بعد عشر خطوات منه ويلتفت بين الحين والحين ليتحقق إن كان صاحبه يبكي .

الفصل الحادى والعشرون

راح الضوء يحف بدانيل (البوم) من دون أن يشعر هذا به ، وراحت النجوم تتمحى من قطعة السماء المحددة بإطار النافذة ، وعلى خلفية الأرض البيضاء راحت قمة جبل راندو تكتسب لوناً أخضر فى الوقت الذى راحت فيه الشحارير والبلابل وطيور أبى زريق والخضيرى تردد أنغامها الصباحية بين الأحراج. كانت الأشياء تكتسب فى المحيط حدودها ، وترسم تدريجياً أحجامها وألوانها ومقابلاتها وكان الوادى يستقبل يومه الجديد ببهجة زكية الرائحة وبفرح نباتى أخضر وكانت الروائح تشتدّ وتزداد كثافة وحضوراً فى محيط الجو الساكن الهادئ .

وانتبه دانييل (البوم) عندها الى أنه لم تغمض له عين طوال الليل والى أن حكاية الوادى القصيرة والقريبة تسطّر فى ذهنه بترف تفصيلى عجيب . ألقى بنظرة من خلال النافذة ، ثم حط بها على قمة جبل راندو الحادة الموحشة . وأحسّ لحظتها أن حيوية الوادى تتغلغل فيه كاملة غير منتظمة وأنه يهب حيويته الى الوادى فى رغبة شديدة بالانصهار وبالتداخل المتكامل الحميم . كانا متعاهدين مع بعضهما فى تطلع محموم لحماية متبادلة ، فقد كان دانييل (البوم) يدرك أن شيئين تكيّف كل منهما على طريقة الآخر ومقياسه يجب ألا يفترقا أبداً . مع ذلك فان قناعته بفراق قريب كان يقض مضجعه فيسكّن من تعب جفنيه . فبعد ساعتين ، وربما أقل ، سيقول وداعاً للوادى ، سيركب القطار ويهرب الى المدينة البعيدة ليبدأ التقدم . انه ليأسف على أن رحيله يجب أن يحدث الآن ،جيل

يتحلى الوادى بسوداوية الخريف الناعمة ، وحين يمنح كوكو ، مأمور المحطة ، برنيطة حمراء رائعة . وما أقل ما تتوافق التغييرات الكبيرة مع الحالة المعنوية الخاصة التى نعيشها .

كان ذلك الوداع يؤلم دانييل (البوم) ، وهو ما لم يشك فيه أبداً . وما ذنبه فى أن يكون عاطفياً مرهف الإحساس ؟ وما ذنبه فى أن يرتبط الوادى به على ذلك النحو الطاغى المؤلم ؟ إنه غير معني بالتقدم ، والتقدم عنده لايساوى فى الحقيقة قرشاً . تهمه ، بالمقابل ، القاطرات ، يتأملها ضئيلة من بعيد ، والبيوت البيض والحقول ومزارع الذرة المجزأة ، وبركة الإنكليزى وتيارات النهر الصاخبة المجنونة ، وملعب البولو ودقات أجراس النواقيس فى الأبرشية ، وقط (الغلفلة) ورائحة قوالب الجبن الملوثة الحامضة ، وصياغة قطعة الروث بعناية ووقار وفن ، وتهمه الزاوية الكئيبة الموحشة التى يرقد فيها وإلى الأبد صديقه جيرمان (الأقرع) ، وكذلك تقيق الضفادع الرتيب من تحت الأحجار فى الليالى الرطبة ، ولمش أوكا – أوكا وحركات أمه البطيئة وهى تقوم بأعمال المنزل ، وخضوع أسماك النهر الصغيرة واستسلامها واثقة مطمئنة ، وغيرها وغيرها من الأشياء . ولكن عليه الآن أن يترك كل هذا من أجل التقدم ، لأنه ما يزال غير مستقل ولاقادر على اتخاذ القرار ، ولأن القدرة على اتخاذ القرار تتوفر للانسان عندما لايكون فى حاجة اليها ، وعندما لايستطيع أن يتخلى ، ولو ليوم واحد ، عن عربة يجرّها أو حجارة يقرّها دون أن ينام ليلته جائعاً . فما قيمة القدرة على القرار إذاً ؟ إن الحياة لشرّ من عرف من الطغاة ، لأنها عندما تأخذ بتلابيب أحدنا فلا معنى لقدرته على اتخاذ القرار أما هو فمازال فى وضع يسمح له باتخاذ القرار ، ولكن سنواته الإحدى عشرة

تعطى الحق لأبيه بأن يقرر نيابة عنه. فلماذا ، ياالهى ، لماذا ينظم العالم على هذا النحو الرديء ؟ أما الجبّان فقد كان يشعر ، بعيداً عن حالة ولده المعنوية ، بالفخر لاتخاذه القرار وتمكنه من تحقيقه ، وهو ما لايقدر عليه آخرون غيره . لقد طاف بولده ، عشية ذلك اليوم ، البلدة لوداع أهلها :

– سيذهب الولد الى المدينة غداً ، فقد بلغ الحادية عشرة وحان الوقت ليبدأ الشهادة .

وتسمّر الجبّان ينظر الى ولده فكأنه يقول له : « وماذا على الطالب ان يقول ؟ » ولكن (البوم) كان ينظر محزوناً الى الأرض ، فما كان لديه ما يقول ، وأن عليه أن يطيع وحسب .

كان جميع أهل البلدة يبدون عاطفة وداً ، بل إن بعضهم بالغ فى التعبير عن ذلك فكأنه ارتاح كثيراً وهو يسمع بأن دانييل (البوم) سيغرب ، بعد ساعات قليلة ، عن أنظارهم ولوقت طويل . لقد ربت الجميع تقريباً على قفاه ، وأعربوا صراحة عن أملهم وأمانيهم الطيبة :

– لتر إن عدت الينا وقد صرت رجلاً .

– حسناً يافتى ، ستصبح وزيراً ، وحينها سنطلق اسمك على أحد شوارع البلدة أو على الساحة ، وستأتى أنت لازاحة الستارة عن اللوحة التذكارية ثم سنأكل معا فى البلدة ، سنشرب ، يومها ، حد السكر .

وغمز له باكو الحداد بعينه بينما كان شعره الأحمر يصدر بريقاً لامعاً . وكانت (الفلفلة) الكبرى واحدة من أشد الفرحين لسماع خبر سفر دانييل .

– من المناسب جداً أن تؤدب وتهذّب قليلاً ياولدى . هذه حقيقة ، وأنت تعرف اننى صريحة . ولئن ان كانوا سيعلمونك فى المدينة ان تراف بالحيوان وألا تسير فى شوارع البلدة بجلدك وأن تنشد « الرعاية الإلهية » على الأصول.– وتوقفت عن الكلام ثم نادت : – كينو ، دانييل مسافر إلى المدينة وقد جاء ليودعنا ، ونزل كينو (الأقطع)،وعندما نظر (البوم) عن كثب إلى فضلة يده تأججت فى داخله الذكريات وأحس بانقباض خانق مؤلم فى صدره . أما كينو فقد شعر هو كذلك بالحزن لفقدان ذلك الصديق وراح يضرب حنكه بفضلة يده مداراة لألمه وتبسم قائلاً :

– حسنا أيها الفتى ، ومن يبلغ ما بلغت ؟ . . . المهم . . . أكرر ما قلت . – ولم يلحظ كينو (الأقطع) ، الغارق فى همه ، أنه لم يقل شيئاً – حالفك التوفيق .

وجادل بانجو (الملحد) الجبّان لارساله ولده الى مدرسة يديرها الرهبان ، ولكن الجبّان لم يمنحة الفرصة لينفس عما فى قلبه :

– لقد جئت بالولد ليودعك أنت وأهلك لا لأناقشك حول إن كان الواجب أن يدرس على يد راهب دينى أم على يد معلم دنيوى .

وضحك بانجو وأطلق كلمة بذيئة وتمنى على دانييل لو أنه درس ليصبح طبيباً ويعود الى البلدة لياخذ مكانا دون ريكاردو والذى عاد بليداً هرماً ، ثم توجّه بالكلام الى الجبّان وهو يضربه على كتفه :

– ما أسرع ما يمضى الوقت يافتى .

وردّ الجبّان قائلاً :

– وما فرقنا عن الآخرين ؟

وكان (البيدق) هو الآخر لطيفاً معهما ، فقال للأب ان بانتظار دانييل مستقبلاً كبيراً لو أنه انكب على الدراسة بجد ، وأضاف طالباً منهما أن يتأملا سيرته ، فقد خرج هو الآخر من العدم ، ولم يكن شيئاً مهماً ، ولكنه بكدّه واجتهاده أكمل تعليمه وتفوّق . وبلغ من الزهو بنفسه انه بدأ يلوى فمه بانفعال وتشنج ، ولما أوشك على أن يبلغ بفمه سالفته الطويلة السوداء تركاه ، مودعين ، لحركات فمه ولزهو نفسه ولاحتدام انفعالاته .

أما دون خوسيه ، وكان قديساً عظيماً ، فقد زوده بنصائح مفيدة وتمنى له نجاحات أكبر . وكان يلاحظ على القس من بعيد أنه كان متألماً لفراق الصبي . أما دانييل (البوم) فقد تذكّر موعظته يوم العذراء ، عندما قال بأن لكل شخص طريقه المرسوم في الحياة ، وبأن الطموح والشهوات قد تحرفه عن هذا الطريق ، وأن بأمكان المتسول أن يكون أغنى من المليونير في قصره المرمرى الذى يعج بالخدم .

وفكّر دانييل ، وهو يتذكّر ذلك ، في أنه انحرف عن طريقه مدفوعاً بطموح أبيه ، وكظم رعشة في داخله . ولفه الحزن عندما خطر على باله أنه قد لايجد ، لدى عودته ، دون خوسيه في كرسي الاعتراف ، وهو يدعوه بالـ « غجرى » بل في إحدى زوايا الأبرشية وقد تحول الى قديس ذى أكليل ومنصّة ، أما جسده ، في هذه الحالة ، فسيتفسخ الى جنب جسد جيرمان (الأقرع) في مقبرة السروتين المجاورة للكنيسة . ونظر بإمعان الى دون خوسيه وقد أعياه الإحساس بأنه لن يراه ثانية وهو يتكلم أو وهو يحرّك عينيه الغمصاوين الحادتين أو وهو يصوبهما . وأوشك ، حين مرّا بعزبة (الأمريكى) ، أن يحزن ، وهو يفكر في ميكا التي ستتزوج قريبا في المدينة ، لكنه لم يشعر بالضيق لعدم تمكنه من رؤيتها ، بل بالحاجة الى مغادرة الوادى دون أن تراه وتشفق عليه وتحسبه بائسا شقياً .

أما (البعرور) فلم يشأ أن يودعه لأنه سيراه فى المحطة صباحاً . سيعانقه بحرارة وسيراقبه ان كان قادراً على أن يكون رجلاً حتى النهاية . وما أكثر ما نبّهه (البعرور) الى ذلك :

– عند السفر ، عليك ألا تبكى. فالرجل لايبكى وإن مات أبوه فى بحر من الآلام المبرحة .

كان دانييل (البوم) يتذكر بحنين ليلته الأخيرة فى الوادى . ولما تقلّب على سريره لمعت من جديد قمة راندو التى أضاءتها خيوط الشمس الأولى . وارتعشت أرنبات أنفه إذ شعر برائحة عشب ندى وروث . وانتفض فجأة . فالوادى لم يستيقظ بعد ، مع ذلك فقد طرق سمعه صوت آدمي . وأنصت فجاءه الصوت ثانية بعد أن تعمد صاحبه أن يكون خافتاً :

– بوم .

وقفز من سريره مضطرباً ، وأطلّ على الطريق العام ، انها أوكا – أوكا ، تقف هناك على الإسفلت حاملة بيدها دلواً صغيراً فارغاً . كانت عيناها تبرقان بغرابة :

–بوم . أنا ذاهبة الى كويّرا لأجلب اللبن . لن أستطيع أن أودّعك فى المحطة .

وأحسّ دانييل (البوم) ، وهو يسمع صوت الطفلة الحلو الجاد ، بنياط شيء حميم جداً فى صدره تتقطع . كانت تحرّك دلو اللبن كالرقاص دون أن تكف عن النظر الى (البوم) ، وكانت جدائلها تلمع لنور الشمس :

– الى اللقاء أوكا – أوكا – قال (البوم) وفى صوته رعشة غريبة .

– هل ستذكرني ، بوم ؟

وأسند هذا كوعيه على إفريز النافذة ممسكاً رأسه بيديه ، كان يخجل أن يقول لها ذلك ، ولكنها فرصته الأخيرة :

– أوكا – أوكا . لاتسمحي للفلفلة أن تزيل النمش من وجهك . هل سمعت ؟ لا أريد ان يزيلوه من وجهك .

وارتدّ عن النافذة لأنه شعر انه سيبكي ، وهو لايريد أن تراه أوكا – أوكا وهو يبكي . وعندما بدأ بارتداء ملابسه ، غزاه احساس واضح متوقد بأنه يسلك طريقاً غير الذي قدّره له الرب . وبكى .

إيضاحات معنوية

دورو كسوارتو بيسزته	= عملات إسبانية ذات أقيام بسيطة .

الحرب : يريد بها الحرب الأهلية الإسبانية التي جرت بين أعوام ١٩٣٦ ، ١٩٣٩ .

الموس : لعبة من ألعاب القمار .

دياس الآخر : ويعرف أيضاً باللص الصالح . وقد صلب وعلق جسده على يمين جسد السيد المسيح .

مودى : هي كلمة تطلق عموماً على المسلم وخصوصاً على مسلمي الشمال الأفريقي .

الامريكي : وهي في الأصل الـ indiano وهي كلمة تطلق على من هاجر من الإسبان إلى المكسيك أو الى أمريكا وعاد ثرياً .

المشروع القومى للترجمة

١ – اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ – الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ – التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ – كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ – ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ – اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ – العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ – مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ – التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ – خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ – مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ – طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ – ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ – التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ – الحركات الفنية	إدوارد لوس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ – أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ – مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ – الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ – الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ – قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ – خوخة وألف خوخة	محمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ – مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ – تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ – ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ – مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ – دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ – التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ – رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ – الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ – الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت . أحمد فؤاد بلبع
٣١ – مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ – الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ – التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ – الرواية العربية	روجر آلن	ت . حصة إبراهيم المنيف
٣٥ – الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت . خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلان تورين	ت ٠ أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	ان سكستون	ت محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت: عاطف أحمد / إبراهيم فتحي / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – الذهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدي أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد علي
٤٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
٤٩ – الإسلام في البلقان	ه . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت: محمد برادة وعشاق الليل ويوسف الأشقر
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	ماريو بيانويبا وخ. م بينياليستي	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسي التدعيمي	بيشر . ن . نوفاليس ومستيفان . ج ، روجسيفيتز وروجر بيل	ت ٠ لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . آلنجتون	ت : مرسي سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحي
٥٥ – ما وراء العلم	جون بوانكنجهوم	ت : علي يوسف علي
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فيدريكو غرسية لوركا	ت : محمود علي مكي
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فيدريكو غرسية لوركا	ت ٠ محمود السيد ، ماهر البطوطي
٥٨ – مسرحيتان	فيدريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – الحيرة	كارلوس مونتيث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوفانز ايتن	ت ٠ صبري محمد عبد الغني
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف ، محمد الجوهري
٦٢ – لذة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعي ،
٦٣ – تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض ،
٦٥ – في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت ٠ رمسيس عوض ،
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
٦٨ – نشأة العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت ٠ أشرف الصباغ
٦٩ – الفكر الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الوشيد إبراهيم	ت ٠ أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو شانج رودريجث	ت : عبد الحميد شلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمي	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسى العجوز	ت . س . إليوت
٧٣ – نقد استجابة القارئ	جين . ب . توميكنز
٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا
٧٦ – جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب
٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك
٧٨ – العولمة: النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	روناك روبرتسون
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى
٨٠ – بوشكين عند منعطف الدموع	ألكسندر بوشكين
٨١ – الجماعات المتخيلة	بنديكت أندرسن
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو
٨٣ – مختارات	غونغريد بن
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى اقطاى
٨٦ – طوق الحمام	جمال مير صادقى
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد
٨٩ – الطريق الثالث	أنتونى جيدنز
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صموئيل بيكيت
٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو
٩٦ – ثلاث زنبقات وردية	قصص مختارة
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان بروديل
٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون
١٠٠ – مساطة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون
١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فالييط
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى
١٠٣ – قبر ابن عربى يليه ايماء	عبد الوهاب المؤدب
١٠٤ – آوربا ماهوجنى	برتولت بريشت
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	جيرارجينيت
١٠٦ – الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى
١٠٧ – صورة الذاتى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة

ت : فؤاد مجلى
ت : حسن ناظم وعلى حاكم
ت : حسن بيومى
ت : أحمد درويش
ت : عبد المقصود عبد الكريم
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : أحمد محمود ونورا أمين
ت : سعيد الغانمى ونصر حلاوى
ت : مكارم الغمرى
ت : محمد طارق الشرقاوى
ت : محمود السيد على
ت : خالد المعالى
ت : عبد الحميد شيحة
ت : عبد الرازق بركات
ت : أحمد فتحى يوسف شتا
ت : ماجدة العنانى
ت . إبراهيم الدسوقى شتا
ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
ت : محمد إبراهيم مبروك
ت : محمد هناء عبد الفتاح
ت : نادية جمال الدين
ت : عبد الوهاب علوب
ت . فوزية العشماوى
ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
ت . إدوار الخراط
ت : بشير السباعى
ت : أشرف الصباغ
ت : إبراهيم فتديل
ت : إبراهيم فتحى
ت : رشيد بنحدو
ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
ت : محمد بنيس
ت : عبد الغفار مكاوى
ت : عبد العزيز شبيل
ت : أشرف على دعدور
ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود علي مكي
١٠٩ – حروب المياه	جون بواوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فراندسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – رؤية التمرد	سادي بلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحنا حماد كوني ومكان المستقبل	وول شوينكا	ت : نسيم مجلي
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (دربة شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : أنيس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهري سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الذيل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الصندي ، وإيزابيل كمال
١٢٢ – نظام الحيوية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ – الإسكندرية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيلز الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – القمر الكاذب	جون جراي	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقي	سيدريك ثورب ديفي	ت : سمحه الخولي
١٢٦ – فعل القراءة	فولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	هيفاء فتحي	ت : بشير السباعي
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروتا	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقي جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق علي	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	باري ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	جوزيف ماري موارييه	ت : كاميليا صبحي
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – بارسيفال	ريشارد فاجنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبوري
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومي
١٤٣ – فضايا التخلي في البحث الاجتماعي	ديوبك لايدار	ت : عدلي الهدهدي
١٤٤ – صاحبة الوكالة	كارلو جولدوني	ت : سمية محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البحبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت : منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان بروديل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	لجنة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيرلين لمتويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر	لجنة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ – الدفاتر الحمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان بروديل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت . مجموعة من المترجمين
١٦٤ – شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت . سهير المصادفة
١٦١ – العلاقات بين الشيعيين والطوائف في إسرائيل	يشعياهو ليشمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميغيل دليبس	ت : نسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت . محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال	والتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت أحمد محمود
١٧٥ – الكيفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا

(تحت الطبع)

الجانب الديني للفلسفة
الولاية
مختارات من الشعر اليوناني الحديث
جان كوكتو على شاشة السينما
الأرضة
العنف والنبوءة
العمى والبصيرة (مقالات في بلاغة النقد المعاصر)
أنطوان تشيخوف
تاريخ النقد الأدبي الحديث (الجزء الرابع)
الإسلام في السودان
العربي في الأدب الإسرائيلي
ضحايا التنمية
المسرح الإسباني في القرن السابع عشر
فن الرواية
ما بعد المعلومات
علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
المهنة الأخيرة
الهيولية تصنع علماً جديداً
مختارات من النقد الأنجلو - أمريكي

النقد الأدبي الأمريكي
موت الأدب
عن الذباب والفئران والبشر
العولمة والتحرير
علم اجتماع العلوم
الكلام وأسماؤه
محاورات كونفوشيوس
رحلة إبراهيم بيك
قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان
شتاء ٨٤
الشعر والشاعرية
ديوان شمس
عامل المنجم
مصر أرض الوادي
الفرافير أو الجيل الجديد
سحر مصر
أسفار العهد القديم

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٥٥٩٧ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 305 - 204 - 4)

EL CAMINO

« أبنائي ، لكل منا في الواقع طريق محدّد في الحياة علينا أن نواصله دائمًا وألا نحيد عنه ... قد يفقد البعض نصيبهم الذي خصّصه الله لهم من السعادة . قد يفقدونه وهم يبحثون ، لطمع في نفوسهم ، عن طريق أسهل . والسعادة ، في الواقع ، لا تكمن في الأعلى ولا في الأكبر ولا في الأرفع ولا في الأشهر ، بل في اتساق خطواتنا مع الطريق الذي حدّده الرب لنا على الطريق ، وإن كان ذلك الطريق سهلاً متواضعًا » .

هذا هو مفهوم « الطريق » الذي جعله الروائي الإسباني ميغيل دليبس (١٩٢٠) عنوانًا لروايته التي ظهرت عام ١٩٥٠ .

تعد هذه الرواية هي البداية الحقيقية لأدب ميغيل دليبس الروائي ، وصُنّفت ضمن قائمة أفضل الروايات الإسبانية المعاصرة ، وترجمت إلى الفرنسية والألمانية والإنجليزية والبرتغالية ، وصدرت في الولايات المتحدة الأمريكية طبعة خصصت لطلبة المدارس . كما جرت محاولة لنقل الرواية إلى السينما . أما ميغيل دليبس فقد صار - بعد صدور هذه الرواية - واحدًا من أبرز روائيي إسبانيا المعاصرين .

Bibliotheca Alexandrina
0270848

To: www.al-mostafa.com